البرتو مورافيا

الاحتقار

دار الآداب

الاحتقار

البرتو موراڤيا

الاحتقار

رواية

منشورات دار الآداب - بيروت

الطبعة الثالثة
١٩٨٦

الفصل الأول

أستطيع اليوم ان أؤكد ان علاقتي بزوجتي ، خلال العامين الاولين من زواجنا ، كانت ممتازة . أعني ان انسجام حواسنا الكامل والعميق، طوال هذين العامين ، كان مصحوباً بهذا الإظلام ، او بعبارة أفضل ، بهذا الصمت للذهن الذي يعلّق ، في مثل هذه الظروف ، كل نقد ، ويلجأ الى الحب وحده ليحكم على الشخص المحبوب . لقد كانت اميلي تبدو لي بلا نقائص على الاطلاق ، وأظن اني كنت ابدو كذلك في نظرها . او انني ربما كنت ارى عيوبها وترى عيوبي ، ولكن بفضل تحول عجيب معزوّ الى الحب ، كانت تلك العيوب تبدو لنا كلينا مغتفرة ، بل محبوبة ، كما لو انها بدلاً من ان تكون نقائص ، كانت مزايا من نوع خاص . وبالاختصار : لم يكن احدنا يحكم على الآخر : كنا متحابّين . وغرض هذا الكتاب ان يروي كيف ان اميلي ، بينما كنت مستمراً في حبها وفي عدم الحكم عليها ، اكتشفت على العكس ، او ظنّت انها تكتشف عدداً من عيوبي ، فحكمت عليّ ، وبالتالي كفّت عن ان تحبني .

ان المرء بقدر ما يزداد سعادة يقلّ اهتمامه بسعادته . ومن الممكن ان يبدو غريباً انني خلال هذين العامين ، داخلني حتى الاحساس بأني كنت

أعاني السأم . اجل ، انني لم اكن احسّ بسعادتي . فاذ كنت احب زوجتي وكنت محبوباً منها ، كنت احسب اني افعل كالجميع ؛ وكان هذا الحب يبدو لي واقعة مشتركة ، عادية ، من غير ان يكون فيها شيء ثمين بصورة خاصة ، كالهواء الذي نتنشقه والذي ليس هو عظيماً ولا يقدر بثمن الا حين نفتقده . وفي ذلك الحين ، لو نبهني أحدٌ الى انني كنت سعيداً ، لاستغربت ، ولأجبت ، على الارجح ، بأني لم أكن املك السعادة ، لأنني اذ كنت احب زوجتي وتستجيب هي لحبي ، لم اكن املك طمأنينة الغد .

وكان هذا صحيحاً ، فقد كنا لا نكاد نقوم بأودنا من مهنتي العاقة كناقد سينمائي في جريدة يومية من الدرجة الثانية ، ومن أعمال صحفية من الطراز نفسه . كنا نعيش في غرفة مؤثثة تابعة لمؤجر شقق مفروشة؛ وكان المال غالباً ما ينقصنا للنفقات الاضافية ، وحتى احياناً للضروري . فأنى لي ، والحالة هذه ، ان اكون سعيداً ؟ والواقع اني لم أشكُ من وضعي كما كنت اشكو في تلك الفترة التي كنت فيها — كما استطعت ان ادرك ذلك فيما بعد — سعيداً غاية السعادة وأعمقها .

وفي نهاية هذين العامين من حياتنا الزوجية ، تحسنت ظروف حياتنا في آخر المطاف . فقد تعرفت على باتيستا ، وهو منتج افلام ، وكتبت لحسابه السيناريو الاول الذي وضعته ، وهــو عمل كنت اعتبره آنذاك موقتاً ، ثم اصبح على العكس مهنتي . على ان علاقاتي باميلي ، في الفترة نفسها ، بدأت تتغير على نحو مؤسف . والحق ان حكايتي تبدأ تماماً بــأول عهدي بمهنتي كمؤلف سيناريو ، وبالبرود الاول في علاقاتنا الزوجية ، وهما حدثان متعاصران تقريباً ، وسنرى فيما بعد انهما على صلة مباشرة فيما بينهما .

واذا ارتدّت ذاكرتي الى مجرى الزمن ، يخيّل اليّ أني احتفظ بذكرى مشوشة لحادث بدا لي ساعة وقوعه تافهاً ، ولكنه حمل فيما بعد أهمية

حاسمة بالنسبة لي .

انني اتمثلني على رصيف شارع من شوارع وسط المدينة . وكنا ، انا واميلي وباتيستا ، قد تناولنا العشاء في المطعم ، وقبلنا اقتراح باتيستا بإنهاء السهرة في بيته . وها نحن الثلاثة امام سيارة باتيستا ، وهي سيارة حمراء انيقة مترفة ، ولكنها ضيقة وذات مقعدين فقط . وجلس باتيستا امام المقود ، ثم انحنى وفتح الباب وهو يقول :

– آسف يا مولتيني ، ليس لديّ الا مقعد واحد .. فعليك ان تصل الى بيتي بوسائلك الخاصة ... الا اذا كنت تفضل ان تنتظرني هنا؛ ففي هذه الحالة ، سأعود لاصطحابك .

وكانت اميلي الى جانبي ، وهي ترتدي ثوباً من الحرير الاسود ، عاري الكتفين وبلا اكمام ، وهو الثوب الوحيد الذي تملكه ، وكانت تحمل على ذراعها معطفها الفرو . وكنا في شهر تشرين الاول ، وكان الجو ما يزال حاراً . وقد نظرت اليها ، فلاحظت ، ولا ادري السبب، ان جمالها المطمئن الهادىء في العادة قد تعكر بحيرة وقلق ، بنوع من الاضطراب الغريب . وقلت بمرح :

– اذهبي اذن يا اميلي مع باتيستا .. وسألحق بكما في سيارة أجرة .

فنظرت إليّ اميلي ، ثم اجابت بلهجة مغتصبة :

– أليس من الافضل ان يسبقنا باتيستا ، وان نستقل نحن الاثنين سيارة اجرة ؟

وهنا أخرج باتيستا رأسه من باب السيارة وهتف مازحاً :

– هذا لطيف ! انكما تريدان ان تتركاني وحدي ؟...

فأجابت اميلي :

– لا ، ولكن ...

ولاحظت فجأة ان وجهها الجميل ، الهادىء المنسجم عادة ، قد أظلم وبدا متحللاً ببلبلة تكاد تكون مؤلمة . ولكني كنت قد نطقت بعبارتي :

— ان باتيستا على حق ، فهيا ، اذهبي معه . وانا سآخذ سيارة .

انني اذ اكتب هذه السطور ، يعاود ذاكرتي احساس جديد : فعندما جلست زوجتي الى جانب باتيستا ، وكان الباب ما يزال مفتوحاً ، رمتني بنظرة تحمل في وقت واحد التردد والرجاء والانزعاج . وقد تجاهلتُ ذلك ، واغلقت الباب الثقيل ، بالحركة العازمة نفسها التي يغلق بها المرء خزنة حديدية . واقلعتْ السيارة . فاتجهتُ الى اقرب محطة لسيارات الاجرة ، وانا ارسل من بين شفتي صفيراً فرحاً .

ولم يكن بيت المنتج بعيداً عن المطعم ؛ وكان المفروض ان أصل بعد باتيستا تواً ، ان لم يكن في الوقت نفسه . ولكن حادث اصطدام وقع وانا في منتصف الطريق ، عند احد المفارق . فقد تصادمت السيارة التي استقلّها مع سيارة خاصة ، فاصيبتا كلتاهما بأضرار : جُلِفَ جناح التاكسي وسُطّح ، بينما تضرر بـــاب السيارة الاخرى . وترجّل السائقان وتجابها وتناقشا ، ثم تشاتمـــا ؛ واسرع الناس اليهما ، وتدخل شرطي ليفصل بينهما في مشقة ، ثم اخذ اسميهما وعنوانيهما . وفي هـــذه الاثناء ، ظللت انتظر في السيارة من غـــير نفاد صبر ، تكاد تغمرني الغبطة ، لانني كنت قد اكلت وشربت جيداً ، وكان باتيستا قد عرض عليّ في نهاية العشاء ان اشارك في سناريو فيلمه . وفي هذه الاثناء ، كان الحادث وما تلاه من مناقشات قد استغرق من عشر دقائق الى ربع ساعة ، فوصلت منزل المنتج متأخراً .

واذ دخلت غرفة الاستقبال ، رأيت اميلي جالسة على اريكة ، مشتبكة الساقين ، وباتيستا واقفاً في ركن من القاعة ، امام بار نقّال . وقد حيّاني بجذل ؛ اما اميلي فقد سألتني بلهجة شاكية ، شبه مبتهلة ، عما فعلته طوال هذا الوقت . وقد اجبت في استخفاف بأنه قد حصل لي حادث صغير . واحسست انني اتكلم على نحوٍ هروبي ، كما لو كان لديّ ما اخفيه . والواقع اني لا اعلّق اية أهمية عـــلى اقوالي . ولكن

اميلي ألحّت ، باللهجة الفريدة نفسها :
— حادث ؟ اي حادث ؟

فدهشت لذلك ، بل تنبهت . ورويت ما حدث . غير اني اعطيت هذه المرة اكثر مما ينبغي من التفاصيل : فكأنني كنت أخاف ألا أُصدَّق . وادركت اخيراً اني كنت اخرق ، سواء بإيجازي الاول ام بتفاصيلي الدقيقة الثانية . ولكن اميلي لم تلح ، ووضع باتيستا ، وهو يفيض وداً وابتسامات ، ثلاثة اقداح على الطاولة ودعاني الى الشرب . وجلست ، ومرت ساعتان ونحن نثرثر ونتبادل المزاح ، ولا سيما انا وباتيستا . وكان هـو من فرط الجذل والتدفق بحيث لم الاحظ تقريباً ان اميلي لم تكن كذلك . والحق انها،لحيائها ، ذات طبيعة اقرب الى الصمت والانغلاق، ولهذا لم ادهش لتحفّظها . على اني مع ذلك استغربت بعض الشيء الا تشاركنا حديثنا ، على الاقل بالبسمة والنظرة ، على مألوف عادتها : انها لم تبتسم ، ولم تولنا نظرة ، واكتفت بأن تدخن وتشرب في صمت، كما لو انها كانت وحدها .

وفي آخر السهرة ، حدثني باتيستا حديثاً جدياً عن الفيلم الذي ينبغي ان اشترك فيه ، فروى لي موضوعه ، واعطاني معلومات عن المخرج وعن زميلي السيناري ، وانتهى بدعوتي الى زيارته في مكتبه في اليوم التالى لتوقيع عقدي . وانتهزت اميلي فرصة لحظة الصمت التي تبعت هذه الدعوة لتنهض وتقول انها متعبة وانها راغبة في العودة الى البيت.فأستأذنّا باتيستا في الذهاب وهبطنا .

وحين خرجنا ألى الشارع ، مشينا من غير ان نتبادل كلمة حتى محطة السيارات ، فاستقلتنا سيارة انطلقت بنا . وكنت قد جُننت فرحاً من اقتراح باتيستا الذي لم اكد آمله،ولم استطع الامتناع عن ان اقول لاميلي:
— ان هـذا السيناريو يأتي في اوانه !... فلست ادري كيف كنا نستطيع الاستمرار في الحياة ... كنت سأجبر على اللجوء الى الاستدانة.

وجواباً على ذلك ، اكتفت اميلي بأن سألتنى :

ــ ما هو التعويض الذي يُدفع لقاء وضع سيناريو ؟

فذكرت لها رقماً وأضفت :

ــ ها هي مشكلاتنا قد حُلّت ، لهذا الشتاء على الأقل

وفي الوقت نفسه ، بحثت يدي عن يد اميلي فضمّتها . وتركتني افعل ، ولم تنطق بعد ذلك بكلمة حتّى بلغنا البيت .

الفصل الثاني

بعد تلك الأمسية ، جرى كل شيء على ما يرام ، بالنسبة لعملي . ففي اليوم التالي قصدت مكتب باتيستا ، فوقعّت العقد وقبضت سلفتي الاولى من أصل تعويضي . وكانت القضية ، اذا لم تخني الذاكرة ، قضية فيلم قليل الاهمية ، من النوع الكوميدي — العاطفي ، وهو نوعٌ لم اكن اعتقد انه ينسجم مع فكري الجاد ، ولكنه في اثناء العمل كشف لديّ ، بعكس ذلك ، موهبة لا شك فيها . وفي اليوم نفسه ، اجتمعت اول اجتماع بالمخرج وبالسيناريّ الآخر .

وفيما يمكنني ان أؤرّخ تأريخاً دقيقاً بـــدء عملي كسيناري ، أقصد الأمسية التي قضيناها لدى باتيستا ، يصعب عليّ كثيراً ان احدد بالدقة نفسها الوقت الذي بدأت فيه علاقاتي مع زوجتي تتسمم . ان بامكاني طبعاً ان اعود بذلك الى الامسية نفسها ، ولكن ذلك سيكون بمثابة حكم أكيد ، كما يقال ، لا سيما وان اميلي لم تُظهر ، طوال فترة اخرى من الزمن ، اي تغير في مسلكها معي . ومن المؤكد ان هذا التغير قد تحقق خلال الشهر الذي تبع تلك الأمسية العتيدة ، ولكني لا استطيع ان احدد حقاً في أية لحظة اهتزت كفتا الميزان في نفس اميلي ، ولا الذي سبب

انقطاع التوازن ذاك .

كنا في تلك الفترة نرى باتيستا يومياً ، على وجه التقريب ، وبوسعي ان اروي بتفاصيل كثيرة فصولاً اخرى شبيهة بالفصل الذي سبق ان ذكرت ، وهي فصول لم تتميز بشيء ، في نظري على الاقل ، عن اللون العـــام في حياتي ، ولكنها اكتسبت ، فيما بعد ، بروزاً ومعنى خاصين . واود فقط ان اسجل امراً : ففي كل مرة كان باتيستا يدعونا فيها — وكان ذلك غالباً مـــا يحدث الآن — كانت اميلي تُظهر بعض الاستياء في أن تصحبني . صحيح ان مقاومتها لم تكن قوية ولا مصممة، ولكنها كانت ثابتة ثباتاً غريباً في تعبيراتها وتبريراتها . فلكي لا تصحبنا كانت دائماً تجد عذراً ما لا علاقة له ألبتة بباتيستا ، وكنت ادلل لها دائماً في يُسر ان عذرها كان واهياً ، وكنت ألح لكي اعرف اذا لم يكن العذر الحقيقي كراهية لباتيستا ، وكانت في كل مرة تجيب عـــلى سؤالي ، بظل من التبرم ، انها لم تكن تكره باتيستا ، وانها ليس لديها ما تؤاخذه عليه ، وانها انما كانت ترغب الا تخرج معنا ، لان هذه الامسيات كانت تتعبها ، وكانت في الحقيقة تسئمها ولم اكن اكتفي بهذه التفسيرات الغامضة ، وكان يتفق لي غالباً ان اوميء الى ان شيئاً ما لا بد ان يكون قـــد حدث بينها وبين المنتج ، حتى من غير ان يكون هـــذا الاخير قد اراد ذلك او احس به . ولكني كلما ازددت محاولة لاقناعها بانها لا تكنّ الودّ لباتيستا ، بدت اميلي اشد تشبثاً في انكاراتها : كان تبرمهـــا ينتهي بالزوال تماماً ليخلف عناداً وتصميماً شديداً . واذ كنت اطمئن كل الاطمئنان الى عواطفها تجاه باتيستا والى مسلك هذا تجاهها ، كنت احرص على ان افسر الاسباب التي تجيء في صالح مشاركتها ايانا في امسياتنا ، فحتى ذلك الحين ، لم اكن قـــد خرجت قط بدونهـــا ، وكان باتيستا يعرف ذلك ... كان يسرّه ان يراها ، لانه لم يكن ينسى قط ان يوصيني كلما دعاني بقوله :

– انك بالطبع ستصحب زوجتك ...

وكان يمكن اعتبار هذا الغياب اللامنتظر والذي يصعب تفسيره احتقاراً او حتى اهانة نحو باتيستا الذي كانت حياتنا متوقفة عليه بعد الآن ... وبالاجمال ، لما لم تكن قادرة على ان تقدم لي سبباً منطقياً لغيابها ، ولما كنت بالمقابل قادراً على ان اقدّم اسباباً عديدة وممتازة لحضورها ، فقد كان من الحكمة ان نتحمل التعب والسأم اللذين كانت هذه الامسيات تُنتجانهما .

وكان من عادة اميلي ان تصغي الى حججي بتنبه حـــالم ، مستغرق تقريباً ، فكأنها كانت مهتمة ببراهيني اقل من اهتمامها بوجهي وحركاتي. ثم ان الامر كان ينتهي بهـــا دائماً الى الاستسلام لرأيي ، وتبدأ في صمت بارتداء ثيابها تمهيداً للخروج . وعند لحظة الذهاب ، اذ تكون قد اصبحت مستعدة ، كنت أسألها مرة اخيرة ان كان لا يُضجرها حقاً ان تصحبني ، لا لأني كنت واثقاً من جوابها ، بل لأني لم اكن اريد ان اترك لها شكاً بشأن حريتها في التصرف . وكانت تجيبني جواباً قاطعاً بأن ذلك لم يكن يزعجها ، فكنا نخرج آنذاك .

لقد سبق ان قلت انني بنيت هذا كله من جديد فيما بعد وانا التمس التماساً دائباً في ذاكرتي اثر وقائع كانت تافهة آنذاك وقد حدثت في حينها من غير ان تسترعي انتباهي . وكل ما لاحظته في تلك الفترة هو تغير مزعج في مسلك اميلي نحوي ، من غير ان استطيع تفسيره او تعريفه على اي نحو : هكذا يتنبأ المرء باقتراب العاصفة في سماء مـــا تزال صافية من مجرد تغير الجو وتثاقله . وقـــد اخذت افكر بأن زوجتي كانت تحبني اقل من السابق لأني لم اعد اجدها قلقة على الا تتركني كما كان يحدث في العهود الاولى من زواجنا . فاذا كنت اقول لها آنذاك :

ـ اسمعي ، ان عليّ ان اخرج ، وسأتغيب ساعتين ، ولكني سأعود بأقرب وقت ممكن ...

لم تكن لتحتجّ ، مستسلمة ، ولكن وجهها الذي كان يغشاه الظلّ كان ينمّ عن الاسى الذي تخلّفه غيبتي . حتى اني غالباً ما كنت اعدل عن الخروج ، واتحرر كما استطيع من موعدي المضروب ، او انني كنت ، اذا استطعت ، اصحبها معي . وقد كان تعلقها شديداً جداً حتى اني ذات يوم وقد صحبتني الى المحطة التي كنت اغادرها في رحلة قصيرة الى ايطاليا الشمالية ، رأيتها في لحظة الوداع تدير رأسها لتخفي الدموع التي كانت تملأ عينيها . وفي تلك المرة ، تظاهرت بأني لم الاحظ حزنها ، ولكني طوال الرحلة احتفظت بالندم من تلك الدموع المخبأة التي لم تكن قابلة للقهر ، ومنذ ذلك الحين كففت عن السفر بدونها .

اما الآن ، فاذ ابلّغها نبأ سفرٍ ما ، فانها بدلاً من ان ارى وجهها الحبيب تغشاه غشاوة خفيفة من الانزعاج والحزن ، تكتفي بأن تجيبني في هدوء ، وغالباً من غير ان ترفع عينيها عن الكتاب الذي تقرأ فيه :

ـ حسناً .. سنلتقي ثانية عند العشاء ، فلا تتأخر .

بل كانت تبدو احياناً وكأنها راغبة بأن تمتد غيبتي الى ما بعد توقعي. كنت اقول لها مثلاً :

ـ عليّ ان اخرج ، وسأعود في الساعة الخامسة .

فتجيبني :

ـ ابق في الخارج ما حلا لك ، فلديّ ، من جهتي ، ما أعمله .

وذات يوم نبهتها بلهجة خفيفة الى انها تبدو وكأنها تفضل غيابي ؛

ولكنها اجابتني في حيوية بأني ما دمت على نحو او آخر مشغولاً معظم النهار في الخارج ، فقد كان يجب علينا ان نكتفي باللقاء في ساعة الغداء او العشاء ، وسيكون بوسعها هكذا ان تنصرف بهدوء الى اعمالها ... ولم يكن هذا صحيحاً الا بنسبة النصف : فان عملي كسيناري لم يكن يجبرني على الخروج الا بعد الظهر ، وكنت حتى ذلك الحين قد تدبرت امري دائماً بحيث اقضي مع زوجتي بقية النهار . غير انني ، منذ تلك اللحظة ، اخذت اخرج كذلك في الصباح .

وفي العهد الذي كانت اميلي تبدي فيه استياء من غيابي ، كنت اتركها خفيف القلب ، مسروراً حقاً بهذا الاستياء كما لو انــه برهان اضافي على الحب العظيم الذي كانت تحمله لي . ولكن منذ ان لاحظت انهــا لم تكن تكتفي بعـدم اظهـار اي حـزن ، بـل كـانت تبـدو وكأنها تفضل وحدتها ، بدأت استشعر ضيقاً أصم ، كمن يحس الارض تميد تحت قدميه . كنت اخرج الآن كل صباح، كما سبق ان ذكرت، بالاضافة الى خروجي بعد الظهر لأجل عملي ، وذلك لا لغاية اخرى الا لأتثبت من لامبالاة اميلي الجديدة ، تلك اللامبالاة التي كانت شديدة المرارة بالنسبة لي . أنها لم تكن تُظهر بعدُ اي انزعاج ، بل كانت تقرّ غيابي بكل وداعة بل ربما بعزاء لم تكن تُحسن اخفاءه ، عــلى ما بدا لي . وسعيت اول الامر الى ان اتعزى من هذه البرودة باقناع نفسي بأن الحب ، مهما كان رقيقاً ، يُحل محله العادة بعد عامين من الزواج ، وان وثوق كل من الزوجين من انه محبوب من الآخر ، ينزع من الحب اي طابع حماسي في علاقات هذين الزوجين . ولكني كنت اشعر بأن ذلك لم يكن صحيحاً ؛ كنت اشعر بهذا اكثر مما كنت افكر به ، لان الفكرة في دقتها الظاهرة اكثر قابلية للخطأ من الاحساس الغامض المعتكر .

واذن ، فقد كنت أحس بأن اميلي قــد كفت عن الشكوى من

تغيبي ، لا لأنها كانت تعتبره لازماً ولا مفر منه وليس له من تأثير على صميميتنا ، بل لانها كانت تحبني اقل من ذي قبل ، او كانت لا تحبني بعد .

ومع ذلك ، فلا بد ان يكون قد حدث شيء ما قد غيَّر عاطفتها التي كانت من قبل ملتهبة جارفة .

الفصل الثالث

في الفترة التي لقيت فيها باتيستا للمرة الاولى ، كنت في وضع على غاية الصعوبة ، اذا لم اصفه بأنه موئس ، ولم اكن ادري كيف أخرج منه . وكانت مصاعبنا تكمن في اني كنت قبل ذلك بردح من الزمن قد اشتريت شقّة بالتقسيط ، من غير ان املك المبلغ الاجمالي الضروري، ومن غير ان اعرف الطريقة التي بها أستطيع ان احصل على المبلغ . وكنا خلال عامين قد سكنّا غرفة كبيرة مؤثثة في بيت مفروش . وقد كان جديراً بأمرأة غير زوجتي ان تشكو من اقامة موقتة كهذه الاقامة؛ اما اميلي،فأعتقد أنها اذ قبلتها ، قد قدّمت لي انصع دليل حبّ تستطيع امرأة ان تعطيه زوجها . والحق ان اميلي كانت نموذج ربة البيت ، وقد كان في حبّها لبيتها اكثر من الميل الطبيعي المشترك بين جميع النساء ، شيء أشبه بهوس عميق . نوع من النهم الذي كـان يتجاوز شخصها ويبدو وكأنّ له اصلاً عريق القدم . كانت اسرتها فقيرة . وكانت هي نفسها ، حين تعرفت عليها ، ضاربة على الآلة الكاتبة . وأعتقد انـه كان في حبها ذاك لبيتها تعبير غير واعٍ للأماني المكتوبة التي يُحس بها الاشخاص المحرومون من الإرث ، العاجزون ابداً عن امتلاك مسكن لهم، مهما بلغ من التواضع . ولست ادري إن كانت اميلي ، حين تزوجتني،

قدْ راودها وهمُ تحقيق آمالها البورجوازية ، ولكني أذكر ان من المرات النادرة التي رأيتها تبكي فيها هي حين اعترفت لها ، بعد خطوبتنا بقليل اني لم اكن املك وسائل تقديم مسكن لها ، حتى بالأجرة ، وأن علينا في البدء ان نكتفي بغرفة مفروشة . وكانت تلك الدموع ، التي سارعت بوضع حدّ لها ، تعبر ، كما بدا لي ، عن خيبة مريرة من ان ترى حلماً كان قد راودها طويلاً يُرجأ الى المستقبل ، كما تعبر عن قـوة هذا الحلم الذي اصبح في نظرها اشبه بمبرّر للحياة .

وإذن ، فقد عشنا خلال هذين العامين في غرفة مفروشة ؛ ولكن أيّ نظام دقيق وأية نظافة أشاعت اميلي فيها ! كان المرء يشعر انهـا كانت تعمل في حدود الممكن — وقد كانت هذه الحدود ضيقة في غرفة مفروشة — لمنح نفسها وهم التملّك . وبسبب من نقص الاثاث الشخصي ، كانت تريد على الاقل ان تضفي على هذا الاثاث البائس روحَها البيتية المنظمة . كان مكتبي مزداناً دائماً بالزهور ؛ وكانت اوراقي مرتبة في حبّ ، وموضوعة بشكل موحٍ كما لو انها تدعوني الى العمل وتؤمّن لي الحد الاعلى من الصميمية والطمأنينة ؛ ولم تكن طاولة الشاي الصغيرة لتفتقر قطّ الى خوان او علبة بسكوت . ولم يكن أي ثوب او حاجـة اخرى ملقاة على الارض او على كرسي ، كما نرى غالباً في المساكن الضيقة المؤقتة . لقد كانت اميلي ، بعد ضربة المكنسة الاولى لربة البيت ، تُخضع الغرفة لتنظيف آخر ، أطول وأدقّ ، ليصبح كل شيء لمّاعـاً حتى ليستطيع المرء ان يتمرّى فيه ، بما في ذلك قبضة النافذة النحاسية وأقلّ قطعة خشبية من الارض . وفي المساء كانت هي نفسها من تريد ان ترتب الاغطية ، فتضع قميصها في جهة ، ومنامتي في جهة اخرى ، وتنظم وسادتينا التوأمين . وكانت اول من يستيقظ صباحاً ، فتذهب لإعداد الفطور في مطبخ مؤجرنا وتحمله لي بنفسها على طبق . وقد كانت تقوم بهذه الامور جميعاً في صمت ، من غير ان تثير التنبّه ، ولكن

في تركيز وعناية مدروسة . ومع ذلك ، فان الغرفة المفروشة ، رغم جهودها المؤثرة ، كانت تظل غرفـــة مفروشة ، ولم يكن الوهم الذي كانت تسعى الى اكتسابه والى إكسابي إياه ، كاملاً أبداً . واذ ذاك، بين الفينه والفينة ، في لحظات التعب والاستسلام ، كانت تشكو. صحيح انها كانت تشكو بتلك العذوبـــة وتلك الدعة اللتين هما طبعها العميق ، ولكنها كانت تشكو كذلك بمرارة واضحة ، وهي تسألني الى متى يظلّ هذا الطراز من الحياة المؤقتة الوضيعة . وقد كنت أحسّ في تلك الرغبة المعبَّر عنها باعتدال ألماً حقيقياً ، فأعاني من التفكير بأنّ عليّ عاجلاً او آجلاً أن أحققها لها .

وقررت اخيراً ، كما ذكرت ، ان اشتري شقّة ؛ ولم اكن بالتأكيد املك الوسائل الضرورية لذلك ، ولكنني كنت ادرك ان اميلي كانت تتألم ، وانه قد يأتي يوم ينفد فيه صبرها . وكنت قد وضعت في هذين العامين ، بعض المال جانباً ؛ واستطعت من جهة اخرى ان استدين مبلغاً اتاح لي ان ادفـــع القسط الاول . واذ فعلت ذلك ، لم اكن احسّ بالشعور اللذيذ الذي يحس به رجلٌ يؤمّن منزلاً لزوجته الشابة : كنت قلقاً بل كنت اعاني الضيق أحياناً ، لأني لم اكن اتصور على الاطلاق كيف سأتدبر الأمر بعد بضعة شهور ، حين يستحق دفع القسط الثاني. وكان يتفق لي ان اكون من شدة اليأس بحيث كنت أحس مـــا يشبه الحقد على اميلي التي كانت حماستها الدائبة قد أجبرتني على ان اتصرف تصرفاً غير حكيم .

على ان فرحة اميلي الكبرى لدى إعلان نبأ هذا الشراء ، وفيما بعد العواطف الغريبة بنوعها وكثافتها والتي ابدتها اول مرة زرنا فيها الشقة التي كانت ما تزال خالية ، كل ذلك جعلني انسى ضيقي ردحاً مـن الزمن . وقد سبق ان ذكرت ان حب اميلي لبيتها كان يتلبس جميع خصائص العاطفة المهووسة ؛ واضيف هنا ان هذه العاطفة قد بدت لي،

في ذلك اليوم ، مرتبطة ومختلطة بالشهوانية ، كما لو ان منحي إياها شقة قد جعلني في عينيها ، ليس أجدر بالحبّ وحسب ، بل كذلك — وبمعنى جسدي — أقرب واشد صميمية .

كنّا قد ذهبنا نرى الشقـّة ، فاكتفت اميلي اولاً بأن تعبر الغرف الباردة العارية ، فيما كنت أشرح لها مهمة كل من هذه الغرف ومشاريعي المتعلقة بترتيبها . وكانت زيارتنا على وشك ان تنتهي حين اقتربت من احدى النوافذ وفي نيّتي ان افتحها لأري زوجتي المنظر الذي تشرف عليه، ودنت اميلي فالتصقت بي ، وطلبت مني بصوت خافت ان اعانقها . وكان هذا لديها،هي المتحفـّظة عادةً والحييّة تقريباً في علاقاتنا الغرامية، أمراً جديداً غاية الجدّة . وهاجني هذا الجديد بالاضافة الى رنـّة صوتها، فضممتها كما كانت تطلب . ولكن فيما كانت قبلتنا تتعمق ، وكانت من ارقّ قبلاتنا واشدها التهاباً ، شعرت بأن جسدها يزداد التصاقاً بجسدي، كما لو انها كانت تدعوني الى مزيد من الصميمية . ثم نزعت تنورتها بحركة مفاجئة ، وفكت ازرار قميصها وتمددت لصقي . وحين افترقت شفاهنا ، تمتمت في اذني ، في نَفَسٍ لم يكد يبين :

— خذني !

وكان ثقل جسدها كله يجرني نحو الارض . وقمنا بفعل الحب على البلاط المغبر ، تحت تلك النافذة التي اردت ان افتحها . عـلى انني استشعرت في حميا تلك الضمة العجيبة شيئاً آخر غير الحب الذي كانت اميلي تُحسه في تلك اللحظة نحوي ؛ كان يمتزج فيه كل اندفاع عاطفتها المكبوتة كربة بيت كانت تعبّر عن شعورها عبر شهوانية غير مألوفة . كانت في تلك الضمة المستهلكة على الارض المغبرة ، في ظل مثلوج لغرفة ما تزال فارغة ، انما تستسلم للواهب ، لا للزوج ، وإن تلك الغرف العارية المصدية التي تحمل رائحة البرنيق والجص القريب العهد ، قد حركت في أعمق احشائها شيئاً لم تستطع أية مداعبة من مداعباتي حتى

ذلك الحين ان توقظه .

وبين هـــذه الزيارة للشقة الفارغة ويوم انتقالنا اليها انقضى شهران درسنا خلالها عقود البيع المصنوعة كلها باسم اميلي ، لأني كنت اعـلم ان ذلك كان يسرها ، وجمعنا الاثاث القليل الذي مكنتني وسائلي المحدودة من شرائه . واذ انقضى سروري الاول ، كنت احسني — كما سبق ان قلت — قلقاً من المستقبل ، بل خامد الحمية في بعض الاوقات . كنت طبعاً أكسب ما يتيح لنا ان نعيش بتواضع وأدخر بعض المال جانباً ؛ ولكن هذه التوفيرات لم تكن كافية لتسديد القسط التالي من ثمن الشقة . وكانت خيبتي من المرارة أني لم اكن استطيع تخفيفها بمصارحة اميلي التي لم اكن اريد ان افسد فرحتها . واني لأذكر تلك الفترة كما لو انها عهد من الضيق الشديد ومن الحب الناقص لزوجتي . ولم اكن استطيع الامتناع عن التفكير بأنها لم تكن تهتم قط بمعرفة الطريقة التي أتمكن بهـــا من الحصول على هذا المال كله ، بالرغم من انها عرفت وضعنا الواقعي معرفة عميقة . وكانت هذه الفكرة تؤلمني بغموض ، وتوحي لي احياناً ببعض الحنق ازاءهـــا هي التي لم تكن الآن ، في انهماكها وفرحها ، تفكر إلا بالتنقل بين الحوانيت بحثاً عن أشياء تنقص البيت . وكانت تبلغني كل يوم ، بأهدأ لهجة تملكها ، عن اثاث جديد قد اشترته . وكنت أتساءل كيف أنها ، هي التي تحبني ذلك الحب الكبير ، لم تكن تحدس بالهموم الفظيعة التي كانت ترهقني . لقد كانت تفكر على الأرجح بأني ما دمت قد اشتريت تلك الشقة ، فلا بد اني تدبرت الامر للحصول على المال اللازم . ولكن هدوءها وفرحها ، المتناقضين مع ألوان قلقي البائسة ، كانا يبدوان لي علامـــة انانية ، او على الأقل علامة عدم التحسس .

كنت من شدة الانهماك والهم بحيث ان الصورة التي كنت اكونها عن نفسي قد تغيرت . كنت حتى ذلك الحين اعتبر نفسي مثقفاً ، وكاتباً

للمسرح ، وهو نوع من الفن كنت قد غذّيت له دائماً حماسة كبيرة، وكنت احسبني مرصوداً له . وهذه الصورة المعنوية ، اذا صح التعبير، كانت تنعكس على صورتي الجسمية : فقد كنت أراني شاباً يشهد هزاله ونظره الحسير وعصبيته وامتقاعه وهيئته المهمَلة بالمجد الادبي الذي كان ينتظره . ولكن هذه الصورة الملأى بالسحر والوعود انزاحت في تلك الفترة من حياتي لتحل محلها صورة اخرى مختلفة كل الاختلاف ، هي صورة انسان مسكين ، مأخوذ أخذاً مأساوياً في شرك بائس ، وهو لم يستطع ان يصمد لحبه لزوجته ، فتصرف تصرفاً أعمى ، وهو يوشك ان يضطر الى التخبط فترة لايعلم الا الله مداها في اهوال الفاقة المميتة . وكنت اراني متغيراً ، حتى جسدياً : انني لم اكن بعد عبقري المسرح الشاب، الذي ما يزال مجهولاً ، بـل الصحفي الجائع ، المحرر في المجلات والجرائد الثانوية ؛ او ربما — وهذا اسوأ — المستخدم المسكين في احدى المؤسسات الخاصة او الموظف في دائرة حكومية . كان ذلك الرجل يخفي عن زوجته ، حتى لا يقلقها ، همومه بالذات ؛ وكـان طوال النهار يعدو في المدينة بحثاً عن عمل لم يكن ليجده غالباً . اما في الليل ، فقد كان يستيقظ مذعوراً وهو يفكر في ديونه. إنه بالإجمال لم يكن يفكر الا في المال ، ولا يرى غير المال . وربما كانت صورة كهذه مؤثرة ، ولكنها بلا بهاء ، ولا كرامة . إنها صورة بائسة ، اصطلاحية ، كتلك التي ترى في الكتب ، وقد كنت اكرههـا ، لأني كنت أتصور اني بمساعدة الزمن ، وببطء وبلا إحساس ، سينتهي بي الامر الى ان اشبهها. ولكن الامر كان كذلك:انني لم اتزوج امرأة تستطيع أن تشاركني افكاري وميولي ومطامحي وتفهمها ؛ وانما كنت قد تزوجت ضاربة على الآلة الكاتبة ، صحيح انها جميلة ، ولكنها غير مثقفة ، وهي ممتلئة ، على ما يخيل الي ، بجميع الافكار المسبقة والاماني التي تتميز بها الطبقة المتحدرة منها . وقد كان من المستحيل معها ان اواجه شظف حياة فقيرة وبوهيمية،

في مكتب او غرفة مفروشة ، بانتظار ألوان النجاح التي لا مفر من ان اصيبها في الكتابة للمسرح . بل لقد كان عليّ ، بالعكس ، ان احصل لها على بيت احلامها ، حتى ولو اضطرني الامر ، كما فكرت في يأس، الى التخلي عن مطامحي الادبية الاثيرة .

وأسهم شيء آخر آنذاك في مضاعفة انطباع القلق والعجز تجاه مصاعبي المادية . وعلى غرار قضيب من الحديد يلين حين تمسه نار ملتهبة ،كنت أحسّ روحي تلـين وتنثني تحت الهموم التي كانت تتأكلها . وكنت اراقب في نفسي حسداً غير ارادي تجاه اولئك الذين لم يكونوا يعانون الهموم نفسها ، تجاه الاغنياء وذوي الامتياز ، وكان هذا الحسد مصحوباً رغماً عني بضغينة ، ضغينة ليست موجهة نحو مواقف او اشخاص بصورة خاصة ، بل كانت تميل ، كما بقوة لا تُقهر ، الى ان تتعمّم وان تتلبّس السمة التجريدية لمفهوم معين للحياة . وبالاجمال ، كنت أحسّ في تلك الايام الشاقة ، أن حنقي واشمئزازي من الحياة يصبحان رويداً رويداً ثورةً على الظلم الذي كنت ضحيته وكان ضحيته كثير من الكائنات الشبيهة بي . وهذا التحول اللامحسوس لمشاعري الشخصية الى حالة نفسية وآراء عامة كنت أكشفه في افكاري التي كانت تتخذ،دائماً ومن غـير تغيير المجرى نفسه ، وفي كلامي الذي كان يعـود ابداً الى الموضوع نفسه . وكنت احس في الوقت ذاته وداً متنامياً لهذه الاحزاب السياسية التي تعتز بمكافحة امراض هـذا المجتمع الذي انتهى بي الامر الى ان انسب اليه آلامي . كنت اعتقد ، وانا اتأمل حالتي الخاصة ، انه مجتمع يترك لأفضل ابنائه ان يأسنوا فيه ، ويحمي أسوأهم !

إن تطوراً مثل هذا يجري لدى الاشخاص البسطاء اللامثقفين بصورة لاشعورية ، في اعماق النفس المظلمة التي تتحول فيها الاثرة ، بنوع من الكيمياء العجيبة ، الى إيثار ، والحقد الى حب ، والخوف الى شجاعة. اما بالنسبة لي،انا الذي ألفت تحليل نفسي وتحديدها،فان التطور كان من

الوضوح وصفاء الرؤية كما لو اني كنت قد راقبته لدى انسان آخر . ومع ذلك ، فاني لم يكن يسعني الامتناع عن اطاعة تحديدات مادية متحيزة ، وعن تحويل دوافعي الشخصية المحض الى اسباب عامة . وخلافاً لكثير من الاشخاص ، في تلك الفترة المضطربة لما بعد الحرب ، لم أرد قط ان ادخل في اي حزب ، لأنه كان يبدو لي مستحيلاً ان اشتغل في السياسة لأسباب ذاتية ، بل بسبب اقتناع كنت أفتقده حتى ذلك الحين . وكنت منزعجاً بأن أحس افكاري واحاديثي ومسلكي تمضي بلا وعي نحو التهور ، في مجرى مصالحي ، مغيرة لونها وفق صعوبات اللحظة. وكنت افكر في غيظ « بأني كنت مصنوعاً اذن كهذا الجمع كله ، ويكفيني مثلهم ان تكون الجعبة فارغة لاحلم بالانبعاث الجديد للانسانية ؟» ولكن هذا التبصّر كان عاجزاً ، وحدث اخيراً ذات يوم كنت احسني فيه اكثر يأساً واقل صموداً من المعتاد ، ان اقنعني صديق كان يحوم حولي منذ حين ، فتسجلت في الحزب الشيوعي . وما كدت افعل ذلك حتى عاودني الشعور بأني تصرفت مرة اخرى ، لا كالعبقري الشاب المجهول ، بل كالصحفي الجائع او كالمستخدم الصغير الذي كنت اخشى ان اصبحه على مر الزمن . ولكن الامر كان قد تمّ ، فكنت عضواً في الحزب ، وما كنت استطيع ان ارجع القهقرى . واذكر بالمناسبة ان استقبال اميلي لنبأ انضمامي للحزب كان ذا مغزى : « انك لن تجد بعد الآن عملاً الا عند الشيوعيين ؛ اما الآخرون فسيقاطعونك » ولم أملك الجرأة لأحدثها عن رأيي ، اعني اني ما كنت على الارجح لأنخرط في الحزب لو لم اصبح ، من اجل إرضائها ، مالكاً لهذه الشقة الباهظة الثمن . ولم يتجاوز الامر هذا الحد .

وانتقلنا في آخر الامر ، وفي اليوم التالي ، بمصادفة بدت لي محاطة بالعناية الآلهية ، التقيت باتيستا الذي عرض عليّ ، كما سبق ان رويت ، ان اعمل في سيناريو فيلمه . وتعزيت فترة من الزمن ، وكنت مسروراً

كما لم اكن منذ فترة طويلة ؛ وكنت اؤمل ان اؤلف اربعة سيناريوات او خمسة لاسدد ثمن الشقة ثم اعود بعد ذلك الى الصحافة والى مسرحي المفضّل . وكنت قد استعدت حبي لأميلي اقوى من اي وقت مضى ، بل كنت احياناً أؤاخذ نفسي ، في ندم عميق ، ان اكون قد أسأت الظن بها يوماً اذ اعتبرتها انانية وغير متحمسة . غير ان هذا الانقشاع كان قصير المدى . فان سماء حياتي ما لبثت ان تلبَّدت . ولم يكن الامر، في البدء ، سوى غيمة صغيرة ، ولكن ما كان اشد ظلامها !

الفصل الرابع

تم لقائي مع بانيستا يوم الاثنين الاول من تشرين الاول . وبعد ذلك باسبوع ، كنا نقيم في منزلنا الجديد . ولم تكن هذه الشقة ، التي هي سبب هذه المتاعب كلها ، لا كبيرة ولا باذخة . كانت تتألف من غرفتين : قاعة جلوس واسعة ، طويلة اكثر منها عريضة ، وغرفة نوم لا بأس بمساحتها . وبالمقابل ، كان الحمام والمطبخ وغرفة الخادمة صغيرة جداً ، قاصرة كما في المنازل الحديثة على الحد الادنى . وكان ثمة بالاضافة الى ذلك علّية صغيرة بلا نافذة كانت اميلي تريد ان تجعل منها منشراً للغسيل . وكانت الشقة قائمة في الطابق الاخير من بيت ذي بناء حديث ، بواجهة ملساء بيضاء كالطبشور ، واقع في شارع صغير ذي انحدار خفيف . وكان يحف بالشارع ، من جهة ، صف من البيوت الشبيهة ببيتنا ، ومن جهة اخرى سور لحديقة مقصورة كانت اشجارها الكبيرة الكثيفة تدلّي اغصانها الى الخارج . وكان ذلك منظراً جميلاً ، وكان بامكاننا ، كما قلت لاميلي ، ان نتصور ان ليس ثمة ما كان يفصلنا عن تلك الحديقة التي كنّا نلمح هنا وهناك ، عبر الاشجار ، ممراتها المتعرجة واحواضها ودوائرها ، وسيكون بامكاننا ان نتنزه فيها على هوانا .

وتسلمنا الشقة بعد الظهر ؛ وكان لديّ عملٌ طول النهار ، وقد نسيت اين تناولنا العشاء ومع من . وكل ما اذكره اني قرابة منتصف الليل كنت واقفاً في وسط غرفة النوم ، انظر الى نفسي في المرآة ذات الوجوه الثلاثة وأحلّ ربطة عنقي . وفجأة ، رأيت في المرآة ان اميلي تتناول وسادة من على سريرنا وتتوجه نحو غرفة الاستقبال ، فسألتها مندهشاً :

— ماذا تفعلين ؟

تكلمت من غير ان اتحرك ، فرأيتها عبر المرآة كذلك تتوقف عند العتبة وتلتفت وهي تقول بلهجة بسيطة :

— لن يغضبك ان انام هناك على الديوان ؟

فقلت مذهولاً ، غير فاهمٍ بعد :

— هذه الليلة ؟

فأجابت بسرعة :

— لا ، بل دائماً ، ابتداء من الآن . والحقيقة اني من اجل هذا كنت ارغب في تغيير المسكن ... انني لا اريد بعد ان انام والنافذة مفتوحة ، كما تريد انت ... انني كل صباح استيقظ على صياح الديك ، فلا استطيع ان اعود الى النوم ، وأظل طول النهار مملوءة الرأس بالنعاس ... قل لي ، إن ذلك لا يغضبك ؟... انني اعتقد ان من الافضل ان ينام كلٌ منا على حدة ...

كنت مشدوهاً ،ولم أحس في البدء إلا غضباً غامضاً امام هذا التدبير الجديد غير المنتظر . وقلت لاميلي :

— ولكن هذا مستحيل ... ليس لدينا الا غرفتان ،وسريرنا في هذه ، وفي تلك الارائك والديوان ... فأية فكرة ! إن النوم على الديوان ، حتى ولو غيرت شكله ، غير مريح اطلاقاً .

فقالت وهي تخفض عينيها من غير ان تنظر الي :

– إنني لم املك قط الجرأة على ان اقول لك هذا ...

فألححت بقولي :

– انك حتى الآن لم تعلني أية شكوى ... وقد كنت أحسب انك تعودت ...

فرفعت رأسها وقد سرّها ، كما بدا لي ، ان تحرف حجتُها الحديث:

– انني لم اتعود قط ، بل كان نومي مؤرقاً دائماً ... وفي هـذه الفترة الاخيرة ، لم اكن انام تقريباً ، ربما لأن اعصابي ثائرة .. ليتنا على الاقل ننام باكراً .. ولكن الذي يحدث هو العكس ، لهذا السبب او ذاك .

وقطعت كلامها ، ثم خطت خطوة نحو غرفة الاستقبال ، فأمسكتها وقلت لها بكل سرعة :

– انتظري ، إن بوسعي اذا شئت ، ان اعدل عن النوم والنافذة مفتوحة ... لقد اتفقنا ... فابتداء من اليوم ، سنغلق النافذة .

ولم يكن هذا العرض من جهتي هزيمة ودودة فحسب ، فالواقع اني كنت اريد ان أضع اميلي في التجربة . وقد رأيتها تهز رأسها وتجيب ببسمة خفيفة :

– ولكن لا ... لماذا تتحمل هذه التضحية ؟ لقد قلت لي انك كنت تختنق حين تكون النافذة مغلقة .. فمن الافضل ان ننفصل ليلاً .

– اؤكد لك ان هذه ستكون تضحية صغيرة جداً ... سوف اعتاد .

فبدت مترددة ، ثم قالت بتصميم لم اكن اتوقعه :

– لا ، انني لا اريد أية تضحية ، لا كبيرة ولا صغيرة ... سأنام في غرفة الاستقبال .

– واذا قلت انا لك ان هذا يسؤوني ،واني اريد ان انام معك ؟

فترددت من جديد ، ثم قالت بلهجة مصالحة :

– هل ترى كيف انت ، يا ريشار ؟ إنك لم ترد ان تقوم بهذه

التضحية منذ عامين ، حين تزوجنا ... وها انت الآن تريد ان تقوم بها بأي ثمن ... فماذا يمكن ان يؤثر ذلك عليك ؟. إن هناك كثيراً من الازواج ينامون منفصلين ، من غير ان يضعف الحب بينهم .. وستكون اوفر حرية في الصباح لتذهب الى عملك ، فلا توقظني بعد ...

– ولكنك زعمت انك تستيقظين دائماً على صياح الديك ... وانا لا اذهب في تلك الساعة !

فانفجرت في نبرة نافدة الصبر :

– اوه ! كم انت عنيد !

وخرجت من الغرفة ، من غير ان تصغي الي اكثر من ذلك .

وبقيت وحدي ، جالساً على السرير الذي كان ، بوسادته الوحيدة ، قد بدأ يوحي بالفراق والهجر ، وظللت حالماً انظر بشرود الى الباب المفتوح الذي خرجت منه اميلي . وخطر لذهني سؤال : « اذا لم تكن اميلي تريد ان تنام معي بعد ، أبسبب ضوء النهار الذي يزعجها ، ام لأنها ببساطة لم تكن تريد بعد ان تقاسمني فراشي ؟ » وكنت أميل الى الفرض الثاني ، بالرغم من اني اردت من صميم قلبي ان اعتقد بالفرض الاول . وكنت اقول لنفسي اني حتى ولو كنت اقبل تفسير اميلي ، فسيبقى لي نوع من الشك . ومن غير ان أصارح نفسي ، كان السؤال النهائي : « اتكون زوجتي قد كفت عن حبي ؟ »

وفيما كنت مستغرقاً في افكاري ، تاركاً عيني تزوغان في الغرفة ، كانت اميلي تروح وتجيء ، حاملة الى غرفة الاستقبال الوسادة وزوجاً من الشراشف المطوية سحبته من الخزانة ، وغطاء ، وثوب نومها . وكنا في مطلع تشرين الاول ، ولما كانت الحرارة لطيفة ؛ فقد كانت اميلي تتجول في البيت بثوب شفاف .

اني لم اصف اميلي بعد ، وسأفعل الآن ذلك : حتى ولو لم يكن القصد الا ان أشرح عواطفي تلك الليلة .

لم تكن اميلي طويلة القامة ، ولكني بسبب العاطفة التي كنت أكنها

لها ، كانت تبدو لي اكثر طولاً ومهابة من جميع النساء اللواتي سبق ان لقيتهن . ولا استطيع القول إن كانت هذه المهابة موجودة حقاً او ان نظراتي المبهورة كانت تزينها بها مجاناً، غير اني اذكر أنيّ ليلة عرسنا، بينما كانت تخلع حذاءها ذا الكعب الطويل، اخذتها بين ذراعي وضممتها فدهشت ان ارى ان جبينها كان لا يكاد يبلغ مستوى كتفيّ واني كنت اشرف عليها تماماً . ولكن فيما بعد ، حين تمددتْ الى جانبي ، أصبت بمفاجأة جديدة : فقد بدا لي جسمها كبيراً ، عريضاً ، قوياً ، في حين اني كنت اعرف جيداً ان ليس لديها ما هو كثيف . وكان كتفاهـــا وذراعاها وعنقها اجمل ما رأيت في حياتي ، ممتلئة ، أنيقة ، لدنة في حركاتها . وكان لها وجه أسمر ذو أنف مرسوم بدقـــة وبشكل صارم ، وفم ريان ، رطب ، ضاحك باسنان ذات بياض مشع كان يبدو دائماً رطباً براقاً ؛ اما عيناها الكبيرتان بلونهما الكستنائي المذهب وتعبيرهمـــا الشهواني فقد كانتا ، في لحظات الاستسلام ، زائغتين ، مسترخيتين. لقد سبق ان قلت إن اميلي لم تكن آية في الجمال ، ولكنها كانت تترك اثر من كان كذلك ، لست ادري لماذا ؛ ربما بسبب رقة قامتها اللدنة التي كـــانت تُكسب استدارة كشحيها وصدرها مزيداً من البروز ؛ وربما بسبب مظهرهـــا الفخور المليء بالاعتزاز ؛ او ربما بسبب قوة ساقيها الطويلتين الممشوقتين والصلبتين في وقت واحد . كانت تملك تلك الهيئة من الحسن والمهابة اللاارادية والتلقائية التي لا يمكن ان تصدر الا عن الطبيعة وتبدو من اجل ذلك أشد سحراً واقل قابلية للتعريف .

والحال أني في ذلك المساء ، بينما كانت تروح وتجيء من الغرفة الى الصالون وانا اتأملها بعينيّ من غير ان ادري ماذا اقول ، مغتاظاً ومرتاباً في الوقت نفسه ، كانت انظاري تنتقل من وجهها الهادىء الى جسمها الذي كان يُبرز خلال غلالة القميص لونها واستداراتها بين الفينة والفينة، وفجأة هاجم فكري الشك في انهـــا لا تحبني بعد ، مع الشعور بعجز

التماس والاتصال بين جسمها وجسمي . ولم يسبق لي ان احسست بمثل هذا الشعور وظللت لحظة دائخاً بذلك ، غير مصدّق . إن الحب بالتأكيد وقبل كل شيء إحساس ؛ ولكنه كذلك اتصال للاجسام شبه روحي ، اتصال كنت قد تمتعت بــه بلاوعي تقريباً ، كما لو انه شيء عادي وطبيعي تماماً . وهأنذا الآن افهم ، كما لو ان عينيّ قد انفتحتا اخيراً امام امر واضح ، وقد كان ذلك غير مرئي حتى ذلك الحين : ان مثل هذا الاتصال كان يمكن الاّ يوجد ، وانه لم يكن بعد موجوداً بيننا . وعلى غرار اي شخص يلاحظ فجأة انه معلّق فوق هاوية ، كنت احس نوعاً من الغثيان المؤلم لدى التفكير بأن صميميتنا قد أصبحت ، من غير سبب ، بعداً وغيبوبة وانفصالاً .

توقفت عند هــذه الفكرة التي تزرع الاضطراب بينما كانت اميلي تغتسل في الحمام وكنت اسمع الماء يجري من الصنابير . وكان شعور حاد بالعجز ورغبة عنيفة بالتغلب عليه يتنازعان نفسي في وقت واحد . كنت حتّى تلك الساعة قد أحببت اميلي بلا جهد ، ولا محاكمة عقلية ؛ كان حبي قد تفتّح ، كما بفعل السحر ، دفقة غير واعية ، مندفعة ، ملهمة ، منبثقة على ما خيّل الي من ذاتي ، ومن ذاتي وحدها . كنت الاحظ للمرة الاولى ان هذه الدفقة كانت تتغذّى وتتوقف على اندفاع من اميلي ، شبيه باندفاعي ، واذ رأيتها متغيرة هـذا التغير ، كان الخوف يأخذني ان اكون بعد الآن غير قادر على ان احبها بتلقائية الماضي وطبعيته . كنت بالاجمال اخشى ان يلي هــذا الاتصال الرائع الذي اكتشفته عملُ فرضٍ من جهتي ، ومن جهة زوجتي ... كنت اتساءل ما عساه يكون موقفها في المستقبل ، ولكني كنت أدرك اني اذا اكتفيت بأن افرض نفسي ، فلن استطيع بعـد ان ألقى لديهـــا الا سلبيةً او اسوأ من ذلك .

في هذه اللحظة ، مرّت اميلي بقربي وقد عادت الى الغرفة . فانحنيت

فجأة وأمسكتها من ذراعها :

– تعالي هنا ، اريد ان اكلمك ..

فكان رد فعلها الاول ان ابتعدت عني ، ثم ما لبثت ان استسلمت وأقبلت تجلس على السرير ، ولكن بعيداً عني بعض الشيء :

– تكلمني ... ماذا تريد ان تقول لي ؟

لماذا اصاب حلقي المنقبض ضيق مفاجيء ؟ ربما كان ذلك بسبب الخجل،وهو شعور كان حتى ذلك الحين غائباً عن علاقاتنا،وكان ظهوره يبدو لي وكأنه يؤكد التغير المفاجيء .

قلت :

– نعم ، اريد ان اكلمك ، فان لديّ شعوراً بأن شيئاً ما قد تغير بيننا .

فرمتني بنظرة جانبية واجابت بوثوق :

– انني لا افهمك ... اي تغير ؟ لم يتغير شيء ..

– بالنسبة لي ، لا ، اما انت ...

– لم أتغير في شيء ... إنني ما زلت إياي .

– لقد كنت في الماضي تحبينني اكثر من ذلك...كنت تشعرين بالأسف حين كنت أتركك وحدك .. ثم انه لم يكن يزعجك ان تنامي معي ... بل على العكس !

فهتفت ، ولكني لاحظت انها فقدت بعض وثوق لهجتها :

– آه ! من اجل هذا ! كنت أعرف جيداً انك تفكر بشيء من مثل هذا ... ولكن لماذا تستمر في تعذيبي هكذا ؟ انني لا اريد ان انام معك لأني بكل بساطة اريد ان انام ، واني لا اتوصل الى ذلك وانـــا بقربك ، هذا كل ما في الأمر !

كنت احس الآن بحججي ومزاجي السيء تـــذوب سريعاً وتنحلّ كالشمع اذا ما لامس النار . وكانت اميلي بقربي وهي بذلك القميص المثير ، الخفيف ، الذي كان يشفّ عن ألوان جسمها واشكاله الأشد

صميمية ؛ وكنت انا اشتهيها وأجد من الغريب الا تحس ذلك ، والا تصمت ، والا ترتمي على عنقي ، كما كن يحدث في السابق كلما كانت نظراتنا المهتاجة تلتقي . ومن جهة اخرى كانت هذه الرغبة توقظ فيّ الامل بأني سألتقي ثانية باندفاع الماضي ، بل سأثير فيها كذلك الاندفاع نفسه . وقلت لها بصوت خافت :

– اذا لم يتغير شيء ، فاثبتي لي ذلك !

– ولكني اثبته لك كل يوم ، في كل ساعة ...

– لا ، اقصد الآن . .

وفيما كنت اتحدث ملت عليها فأحذتها بعنف تقريباً من شعرها بحثاً عن شفتيها . فاستسلمت بوداعة . ولكنها في اللحظة الاخيرة تحاشت قبلتي بحركة خفيفة من رأسها، بحيث ان في وقع على عنقها . وتركتها :

– الا تريدين ان اقبلك ؟

فتمتمت وهي ترتب شعرها في لامبالاة :

– ليس الامر كذلك ، فلو لم تكن الا قبلة لمنحتك اياها طوعاً .. ولكني اعرف الى اين سيقودنا هذا ، وقد تأخر الوقت الآن ..

فأحسستني مُهاناً بهذه الطريقة في الصرف باللجوء الى العقل .

– هذه الامور لا تعرف تأخيراً في الوقت اطلاقاً !

واذ حاولت ان اقبلها من جديد بجذبها اليّ من ذراعها، اطلقت صرخة:

– آي ! انك توجعني !

لم اكن قد فعلت اكثر من ان امسها ؛ وقد كنت في اوقات حبنا اضمها احياناً بين ذراعي بقوة من غير ان انتزع منها ادنى تنهدة . وقلت مغتاظاً :

– في الماضي ، لم اكن اوجعك !

فأجابت : – ان لك يدين من حديد ، وانت لا تحس بذلك ... وسوف يترك هذا اثراً في ذراعي ...

قالت ذلك كله في ما يشبه الخدر ، من غير اي تدلل .

وفجأة ألححت بقولي :

– قولي لي اذن : اتريدين ام لا ان تمنحيني هذه القبلة ؟

فانحنت ولامست جبيني بقبلة امومية خفيفة وهي تقول :

– خذ . ودعني الآن اذهب للنوم . ان الوقت متأخر .

ولم يكن هذا يكفيني ، فاذا بيديّ الاثنتين تقبضان عليها من قامتها، عند خاصرتيها ، وقلت بينما كانت ترتدّ الى خلف :

– اميلي .. ليست هذه هي القبلة التي اريدها منك ...

فدفعتني وكررت بلهجة عدائية حقاً :

– آي ! دعني ، انك توجعني !

– هذا غير صحيح ، غير صحيح !

هذا ما تمتمت به بين اسناني وانا ارتمي عليها .

وفي هذه المرة تخلصت بفضل حركتين او ثلاث ، بسيطة وقوية ، وقفزت على قدميها ، ثم صمتت فجأة،ثمّ قالت بلا اية حشمة :

– اذا كنت تريد ان تقوم بفعـل الحب ، فلنفعله ... ولكن لا توجعني .. اني لا استطيع ان اتحمل ان أحسّني مشدودة على هذا النحو!

لبثت منقطع الانفاس . كان صوتها هذه المرة مثلوجاً ، مبتذلاً ، ولم استطع ان امتنع عن التفكير بذلك ، من غير ظلّ لعاطفة . وظللت لحظة جامداً ، وانا جالس على السرير ، مشتبك اليدين ، خافض الرأس. وجاءني صوتها من جديد :

– ما دمت تريد الآن ، فلنقم بفعل الحب ... أليس كذلك ؟

فقلت بصوت منخفض ، من غير ان ارفع رأسي :

– نعم .

ولم اكن صادقاً ، فأنـا لم اكن اشتهيها الآن بعد ، ولكني كنت اريد ان أتألم حتى نهاية هذا الشعور الجديد الغريب بأن زوجتي أجنبية بالنسبة لي . وقالت وهي تمر خلفي :

ـ حسناً .

وسمعتها تسير من الجهة الاخرى من السرير . وفكرت بأنها لم يكن لها الا ان تنزع قميصها ، وتذكرت اني في الماضي كنت اتأمل هذه هذه الحركة البسيطة بعينين مسحورتين ، كما في تلك القصة التي يرى فيها اللص ، بعد ان يكون قد نطق بكلمته السحرية ، باب المغارة ينفتح على مهل ، كاشفاً عن عظمة الكنوز المدهشة . ولكني هذه المرة لم أشأ ان انظر ، لأني كنت ادرك ان ذلك سيتم بعينين مختلفتين ، لا بعينين طفوليتين صافيتين حتى في حماسها ، بل بعينين قاسيتين وغير جديرتين بها ، بسبب لامبالاتها . وظللت جامداً ، منحنياً ، ويداي على ركبتي ، منخفض الرأس . وبعد لحظة ، أنّت نوابض السرير تحت جسم اميلي التي تمددت على الغطاء . وسمعت صوت الثياب وهي تُنزع ، ثم صوتها ، صوتها الغريب الفظيع :

ـ هيّا ، تعال ! ماذا تنتظر ؟...

فلم ألتفت ولم اتحرك ؛ ولم اكن اكفّ عن التساؤل : أكان كل شيء يجري هكذا من قبل ؟ وسرعان ما اجبت نفسي ان نعم ، كل شيء كان كما هو اليوم ، وقد كانت تنزع ثيابها وترتمي على السرير ؛ وكيف يمكن ان يكون الامر مختلفاً ؟ ولكن كل شيء كان ، في الوقت نفسه ، مختلفاً . انه لم يسبق لي قط ان عرفت هذه الوداعة الآلية ، الباردة ، اللاشخصية ، التي كانت تكشف عنها نبرة صوتها وحتى أنين نوابض السرير واندعاك الغطاء . في الماضي ، كان كل شيء يجري كما في غيمة اندفاع حماسي ، ولاوعي ثمل ، ومشاركة مسحورة . انه يحدث لك احياناً ، اذ يكون ذهنك تائهاً في فكرة عميقة ما ، ان تضيع حاجة من الحاجات ، كتاباً او فرشاة او حذاء ، في مكان ما ، فاذا ذهب الشرود ، فانك عبثاً ما تبحث عن تلك الحاجة طوال ساعات ، ثم تجدها اخيراً في اغرب مكان ، في مكان غير معقول تقريباً . يقتضي

جهداً حقيقياً لبلوغه ، على ظهر خزانة ، او في زاوية منعزلة ، او في جوف درج ... وهذا مـــا حدث لي مع الحب . كان كل شيء يتمّ بلاتنبّه سريع ، مجنون،مسحور ، وكنت أجدني بين ذراعي اميلي ، من غير ان اذكر تقريباً ما الذي حدث ، وماذا فعلنا ، بين اللحظة التي كنا فيها جالسين وجهاً لوجه ، هادئين وبلا شهوات، وبين اللحظة التي تعانقنا فيها العناق الاعظم .

اما الآن ، فان هذه الغفلة كانت غائبة تماماً من مسلك اميلي ، وبالتالي من مسلكي . أيكون بامكاني ، حتى تحت سلطة اثارة الحواس ، ان اراقب حركاتها بنظرة باردة ، كما يكون بامكانها هي ايضاً ، من غير شك ، ان تنظر بدورها الى حركاتي ؟

وفجأة تجسد الاحساس الـــذي كان يتضح اكثر فأكثر في نفسي
.ورة دقيقة : انني لم اكن موجوداً بعد تجاه امرأة
ت احبها ، بل تجاه مومس غير مجربة ، ونافدة الصبر ،
تخضع سلبياً لعناقي ، آملةً ان يكون هذا العناق قصيراً
وقليل التعب . لقد برزت هذه الصورة امامي لحظة ، كأنها التجلي ، ثم تخيلت انها مرت خلفي لتتحد مع اميلي المتمددة على السرير .

ونهضت فجأة ، من غير ان التفت ، وقلت :

— لننسَ هذا ، فاني لم اعد راغباً فيه .. وانا ذاهب لأنام وحدي، فابقيْ انت ، هنا ...

وتوجهت ، على رؤوس اصابعي ، نحو غرفة الاستقبال .

كان الديوان مهيأ ، والغطاء مبسوطاً،وقميص اميلي ملقىً على السرير، منشور الكمين . وتناولت هذا القميص ، والمشاية الموضوعة على الارض، والروبديشامبر الملقى على اريكة ، وعدت الى الغرفة ، فوضعتها جميعاً على كرسي . ولكني لم استطع هذه المرة الامتناع عن النظر الى اميلي .

كانت ما تزال على الوضع الذي اتخذته لتتمدد وتقول لي « هيا »

تعال » ، وكانت عارية ، وذراع مطوية تحت رقبتها ، ورأسها ملتفت نحوي ، مفتوحة العينين اللامباليتين ، كما لو ان النظر غائب عنها ، بينما كانت ذراعها الاخرى متمددة على جسمها تغطي عانتها بيدها . وفكرت آنذاك بأنها ليست بعدُ المومسة ، وانما هي صورة رؤيت في سراب ، يحيطها جو حنيني لاواقعي ، بعيدة كما لو انها لم تكن على بعد خطوتين مني ، وانما كانت في منطقة ضائعة ، فيما وراء الواقع وخارج احاسيسي .

الفصل الخامس

لا شك في اني شعرت ذلك المساء بأن عهداً مليئاً بالمصاعب كان يبدأ أمامي ، ولكني – وهـــذا ما قد يبدو غريباً – لم استنتج من سلوك اميلي النتائج التي يمكن ان يتصورها المرء . صحيح انها ظهرت باردة ولامبالية ما دمت قد فضلت التخلي عن امتلاكها على ان امتلكها بذلك الشكل . ولكني كنت احبها ، وفي الحب طاقة كبيرة لا عـــلى الوهم وحسب ، بل على النسيان . ففي اليوم التالي ، لا ادري لمـــاذا فقد حادث الليلة الماضية ، الذي كان ينبغي ان يبدو لي مليئاً بالمعاني ، كثيراً من اهميته في نظري ، وتخفف من عبء العـــداء وتناقص الى منازعة عابرة . والواقع ان المرء ينسى بسهولة ما لا يريد ان يتذكره ؛ وبالاضافة الى ذلك ، اعتقد ان اميلي شاركت في هذا النسيان ، لأنها لم تمتنع على عناقي ، من غير ان تتخلى عن ان تنام وحدها . وصحيح انها ، هذه المرة ايضاً ، تصرفت بالطريقة الباردة والسلبية نفسها التي كانت قـــد هاجت ثورتي ؛ ولكن ما كان يبدو لي غير محتمل في المساء الاول ، كان يبدو لي بعد بضعة ايام ، لا محتملاً فحسب ، بل مغرياً كذلك . لقد كنت قائماً ، من غير ان اعترف بذلك ، على المنزلق الذي تصبح فيه برودة الامس حباً لاهباً في اليوم التالي . بفضل الميول الصوفية والارادة

الصادقة للنفس النهمة للاوهام . كنت قد فكرت ، ذلك المساء الاول، بأن اميلي كانت تتصرف كمومس ؛ وبعد اقل من اسبوع ، كنت اقبل ان احبها وان اكون محبوباً منها هكذا ؛ ولاني في اعماق نفسي كنت قد خشيت ان ترفض تماماً ان تكون ملكي ، حمدت لها سلبيتها الباردة النافدة الصبر ، كما لو انها كانت الجو الطبيعي لعلاقاتنا الغرامية .

ولكن ان كنت قد ظللت أهدهد نفسي بوهم ان اميلي كانت تحبني كالسابق،او بالاحرى ان كنت قد فضلت الا اضع حبنا موضع التساؤل، فان شيئاً ما من جهة اخرى كان يكشف في قلبي التغير الذي طرأ فيما بيننا. وهذا الشيء كان عملي . فلئن كنت قد تخليت موقتاً عن مطامحي المسرحية وكرست نفسي للسينما ، فان ذلك لم يكن الا ارضاءً لرغبة اميلي في ان تملك منزلاً لها . وطالما كنت واثقاً من حب زوجتي ، فان عملي كسيناري لم يكن يبدو لي اثقل على الاحتمال مما ينبغي ؛ ولكن بعد حادث ذلك المساء ، بدا لي مرةً واحدة ان شعوراً من الخيبة والقلق والنفور يغمرني. والواقع اني كنت قد قبلت ذلك العمل كما كنت سأقبل عملاً آخر أشد عقوقاً واقل اهمية ، وذلك من اجل حب اميلي وحسب . اما وان هذا الحب يغيب الآن ، فـــان عملي كان يفقد معناه وتبريره ، ويتخذ في نظري خصائص عبودية محض .

وينبغي لي ان اقول بعض العبارات عن مهنة السيناري هذه ، ولو لم يكن القصد من ذلك الا ان افهم فهماً افضل الاحاسيس التي كنت اشعر بها في تلك الفترة . فالمعروف ان السيناري هو الذي يكتب ، مع مساعد له غالب الاحيان ومع المخرج ، السيناريو ، اي التصميم الذي يُستخرج منه الفيلم بعد ذلك .وحسب تطور الحركة، توصف في السيناريو الافعال والكلمات التي يقوم بها الممثلون وصفاً دقيقاً ، واحداً واحداً ، وكذلك حركات آلة التقاط المناظر المختلفة . واذن ، فان السيناريو يستقطب كل شيء معاً، الدرامة وانفعالات الوجه والتكنيك السينمائي والاخراج

الخ .. والحال ان دور السيناري في الفيلم ، بالرغم من انه ذو أهمية اولى وانـــه يأتي في المكان الثاني بعد دور المخرج ، يظل دائماً معلقاً وغامضاً ، لأسباب تمت الى التطور الحالي للسينما .

وبالفعل : فاننا اذا حكمنا على الفنون من وجهة تعبيرهـــا المباشر – ولا ارى كيف يمكن الحكم عليها بصورة مختلفة – فإن السيناري فنان يعطي الفيلم افضل ما في نفسه ، وهو مع ذلك لن يملك عزاء ان يعرف ان كان سيعبّر حقاً عن شخصيته الذاتية . انـــه لا يستطيع ان يكون ، بالرغم من الصفة الخالقة لعمله ، الا واهب لقطـات ، واختراعات ، ومهارات تكنيكية وبسيكولوجية وأدبية ؛ والمخرج هـــو الذي يستعمل هذه المواد وفق عبقريته الخاصة ، اي انه بالاجمال ، هو الذي يملك ان يعبّر عن نفسه . اما السيناري ، فهو الرجل الذي يبقى دائماً في الظل ، واهباً افضل ما في عقله من اجل نجاح الآخرين ؛ وبالرغم من ان انتصار الفيلم متوقف عليه بنسبة الثلثين ، فانه لا يرى اسمه على الاعلانات الدعائية التي تحمل ، بالمقابل ، اسم المخرج والمنتج والممثلين . ان بوسعه طبعاً – وهـــذا يحدث غالباً – ان يبلغ الشهرة ويقبض تعويضات كبيرة ؛ ولكنه لا يستطيع ابداً ان يقول : « انا الذي صنعت هذا الفيلم ... وفي هذا الفيلم عبّرت عن نفسي ... وهذا الفيلم هو انا نفسي بعض الشيء » وعلى العكس من ذلك ، يستطيع المخرج ان يعتز بذلك ويفاخر ويكون في الواقع الوحيد الذي يوقع الفيلم . وفي هذه الاثناء ، على السيناري ان يكتفي بأن يعمل مقابل المال الذي يُدفع له ، بحيث ان المال يصبح في آخر المطاف الغاية الوحيدة لعمله . ولا يبقى له الا ان يُفيد من الحياة ، اذا كان قادراً على ذلك ، بفضل هذا المال الذي هو النتيجة الوحيدة لجهوده ، وهو سينتقل من سيناريو الى آخر ، من مهزلة الى درامة ، من « وسترن » الى فيلم عاطفي ، بلا انقطاع ، وبلا هدنة ، شبيهاً بهاتيك الوصيفات اللواتي ينتقلن من

اسرة الى اخرى ، وهن لا يكدن يجدن الوقت للتعلق بطفل من الاطفال، حتى يجب عليهن ان يتركنه ليبدأن من جديد مع غيره ، تاركات ثمرة جهودهن في آخر الأمر للامهات اللواتي يملكن وحدهن الحـــق في ان يسمّين هؤلاء الصغار اولادهن .

ولكن مهنة السيناري ، بالاضافة الى هذه المساوىء الاساسية والتي لا مفر منها ، تعرف مساوىء اخرى تتباين وفق نوعية الفيلم ونوعه وشخصية المساعدين ، ولكنها ليست دون ذلك اضجاراً . فبعكس المخرج الذي يتمتع ازاء المنتج ببعض الاستقلال والحرية ، لا يستطيع السيناري الا ان يقبل او يرفض السيناريو المقترح عليه ؛ وحين يعطي موافقته لا يستطيع في أي حال ان يختار مساعديه : انه يُختار ، وهو لا يُعطى الاختيار . ولهذا يحدث ان يرى السيناري نفسه مضطراً ، وفق أهـــواء المنتج او المناسبات او المصادفة بكل بساطة ، الى ان يعمل مع اشخاص يجدهم كريهين او هم دونه ثقافة او طبقة اجتماعية ، وهم يثيرون غيظه بملامح من شخصياتهم او تصرفاتهم . والحال ان العمل المشترك في سيناريو لا يشبه في شيء العمل في فرقة كالذي يوجد مثلاً في مكتب او مصنع ، حيث يكون لكل فرد مهمة يقوم بها مستقلاً عن جاره ، وحيث يمكن للعلاقات ان تتقلص الى اشياء قليلة او ألا توجد أصلاً . فالعمل المشترك في سيناريو يعني ان يعمل المرء من الصبح حتى المساء مشاركاً ، مذوباً ذكاءه الخاص ، وحساسيته الخاصة وروحه الخاصة بروح المساعدين . وهذا ما يقتضي قبول صميمية اصطناعية لا غاية لها ، طوال شهرين او ثلاثة يستغرقها انجاز السيناريو ، الا صنع الفيلم ، وبالتالي ، في التحليل الاخير ، كسب المال . ثم ان هذه الصميمية هي من اردأ الانواع ، واكثرها اثارة للاعصاب وازعاجاً ، لأنها بدلاً من ان تعتمد على عمل صامت يشبه عمل العلماء المكرسين انفسهم معاً لتجربة من التجارب ، فهي تقوم على الكلام . فبصورة عامة ، يجمع المخرج مساعديه منذ الساعات

الاولى من الصباح حتى الليل الهابط ، بالنظر الى قصر الوقت المعطى لتأليف المخطوطة ؛ ومن الصباح الى المساء ، لا يفعل السيناريون شيئاً الا ان يتكلموا ، عن عملهم معظم الوقت ، ولكن غالباً بدافع من سرعة التكلم او الضجر ، متحدثـين جميعاً عن مختلف الموضوعات . يروي احدهم حكايات خلاعية ، ويعرض آخر آراءه السياسية ، ويتحدث ثالث عن رأي علم النفس في هذا الشخص او ذاك الذي يعرفه الآخرون ، والبعض يتكلمون عن الممثلين والكواكب ، وآخرون يقفون طويلاً عند وضعهم الخاص . وفي هذه الاثناء ، تمتلىء القاعة المعدّة للعمل بدخان السكاير ، وتصطف فناجين القهوة على الطاولات قرب اوراق المخطوطة؛ امـا السيناريون الذين يكونون قد وصلوا في الصباح نضرين مرتبين ، مسرحي الشعر جيداً ، فانهم يُلفون انفسهم في المساء مشمري الاكمام ، مشعثي الشعر ، يسيل عرقهم ، كما لو انهم قد اغتصبوا امرأة باردة عنيدة . والواقع ان الطريقة الآلية الروتينية التي يؤلّف بها السيناريو تشبه كثيراً نوعاً من افراط الذهن الناتج عن الارادة والضرورة اكثر منه عن الالهام او الميل . ويمكن طبعاً ان يكون الفيلم ذا نوعية رفيعة ، وان يكون المخرج والمساعدون مشدودين فيما بينهم باحترام وصداقة متبادلين، وان يجري العمل اخيراً في تلك الظروف المثالية التي يمكن ان تقوم في بعض النشاطات البشرية ، حتى العاقة منها ؛ ولكن مثل هذه الظروف المؤاتية الى هذا الحد نادرة ، ندرة الافلام الجيدة .

وبعد ان وقّعت عقداً من اجل فيلم آخر ، لا مع باتيستا بل مع منتج آخر ، تخلت عني الشجاعة والارادة ، وبـدأت أشعر في حنق ونفور متزايدين بجميع المساوىء التي عدّدتهـا . كان النهار منذ طلوعه أشبه بصحراء قاحلة لا ظل فيها للتأمل والفراغ ، بل هي قائمة تحت شمس غريبة من الالهام المغتصب . وما كدت أدخل مكتب المخرج حتى استقبلني باحدى تلك العبارات الغريبة :

– ما الذي أسفرت عنه تأملاتك في الليل ؟ هل وصلت الى حل ؟

وكان كل شيء بعد ذلك ، في اثناء العمل ، يستنفد صبري ويثير اشمئزازي : الاستطرادات المختلفة التي كان المخرج والسيناريون يحاولون بها ان يخففوا ساعات المناقشات الطويلة ، وعدم الفهم والافتقار الى الدقة بل حتى مجرد اختلاف وجهات النظر بين مساعديّ في اثناء كتابة المخطوطة ... بما في ذلك عبارات الثناء التي يطلقها المخرج لدى كل لفتة او فكرة تصدر عني ، وهو ثناء كان له بالنسبة لي مذاق مرّ لأنه ، كما سبق ان قلت ، كان يبدو وهو يعطي افضل ما لديّ من اجل شيء لم يكن في حقيقته يخصني وكنت اشارك به على مضض . بل ان هذه السيئة الاخيرة هي التي بدت لي ، في تلك اللحظة ، غير محتملة اطلاقاً . وكلما كان المخرج يقفز على كرسيه ويهتف قائلاً بلغته الشعبية المألوفة التي كان يستعملها كثيرون منهم :

– هنيئاً لك ! انك قائد !

لم أكن استطيع الامتناع عن التفكير : « حبذا لو كان بامكاني ان استعمل هذا في درامة او مهزلة لي أنا ! » ومع ذلك ، فانني بفعل تناقض فريد ومرير ، لم اكن استطيع التخلي عن مهنتي كسيناري ، رغم نفوري منها . ولقد كان انجاز هذه السيناريوات يشبه قليلاً تلك الدواب المقرونة التي كان فيها بعض الخيل الاقوى والاوفر شجاعة تقوم بعمل الجر ، بينما يتظاهر البعض الآخر انه يجر ، وهو في الواقع يستسلم لرفاقه يجرونه . وبالرغم من نفاد صبري ومن كراهيتي ، ادركت بسرعة اني كنت دائماً الحصان الذي يجر ؛ اما الآخرون ، المخرج وزميلي ، فقد كانا ينتظران دائماً امام الصعوبات أن آتي بالحل . وفيما كنت ازدري داخلياً وساوسي وقريحتي ، كنت احمل الحل المطلوب ، من غير ان أرجى . ولم اكن مدفوعاً الى ذلك بروح المنافسة ، بل بحركة اخلاص اقوى من اية ارادة معاكسة : لقد كان عليّ ان اعمل ، ما دمت

اقبض . ولكني كنت اخجل من نفسي كل مرة ، واشعر بأحساس من المرارة والأسف كما لـــو اني بذرت شيئاً لا ثمن له وكان بوسعي ان استغله استغلالاً افضل .

جميع هذه السيئات لم تبدُ لي على حقيقتها الا حين وقّعت بعد شهرين اتفاقي الاول مع باتيستا ولم افهم في باديء الامر كيف اني لم ارها قبل ذلك وكيف انفقت هذا الوقت كله لادركها . ولكن امام استمرار هذا الشعور بالكراهية وعدم الكرامة الذي كان يوقظه فيّ عملٌ كنت راغباً فيه اول الأمر ، لم يكن بوسعي الا ان اربطه منطقياً بهمومي الزوجية . لقد فهمت اخيراً ان عملي اذا كان حقاً ينفّرني ، فلأن زوجتي كفّت عن ان تحبني ، او تبدو على الاقل وكأنها لا تحبني بعد ؛ لقد واجهته بجرأة وثقة ما كنت واثقاً من حب اميلي. ومنذ ان افتقدت هذا الحب، تخلت عني الجرأة والثقة كـــذلك ، وكف العمل عن ان يبدو لي الا عبودية ، وانتهاكاً لحرمة الفكر ، ومضيعة للوقت .

الفصل السادس

اخذت أعيش اذن انساناً يحمل في ذاته آلام مرض في الحضانة ، ولكنه لا يعزم على الذهاب لرؤية الطبيب ؛ اعني اني كنت ابالغ في تحاشي التركيز على موقف اميلي مني ومن عملي . كنت اعلم ان عليّ يوماً ان اواجه هذا التأمل ، ولكن لأني انما كنت أحسه لا مفر لي منه ، كنت اجهد في تأجيله ما امكنني ذلك ؛ فالقليل مما كنت قد احسست به جعلني أبعد هذه الافكار ، لفرط خوفي منها بلاوعي . واذن ، فقد استمرت اميلي في هذه العلاقات التي بدت اول الامر غير محتملة ، والتي اجهد الآن ، وانا اخشى الأسوأ ، في ان اعتبرها طبيعية ، من غير ان انجح تماماً في ذلك : ففي النهار ، احاديث لامبالية ، تافهة ، تهربية ؛ وفي الليل ، فعلُ الحب بين حين وآخر ، مـــع كثير من الارتباك ، مع وحشية من قبلي ، ولكن من غير ادنى مشاركة حقيقية من قبلها . وفي الوقت نفسه كنت ماضياً في عملي بهمة ، بـــل حتى بضراوة ، بالرغم من ان ذلك كان يحدث بارادة تزداد ضعفاً يوماً بعد يوم ، واشمئزاز يزداد قوة يوماً بعد يوم . ولو أوتيت آنذاك الجرأة على ان احدد لنفسي الموقف الذي كنت اجدني فيه ، لتخليت بالتأكيد عن العمل وعن الحب ، مقتنعاً كما حدث فيما بعد ، بأن كل حياة قد امحت

منها . ولكن تلك الجرأة كانت تنقصني ؛ وربما كنت اؤمل بأن الزمن سيتكفل بحل مشكلاتي ، بلا ادنى جهد أبذله . والزمن هو الذي حلها فعلاً ، ولكن لا في الاتجاه الذي كنت أرغبه ! وهكذا كانت الايام تنقضي بين اميلي التي كانت ترفضني والعمل الذي كنت ارفضه في جو من الانتظار المعتم الاصم .

على ان السيناريو الذي كنت أعمله لحساب باتيستا كان يشرف على نهايته ، وفي الوقت نفسه اومأ باتيستا الى عمل جديد، اهم من الاول، كان يريدني ان اشارك فيه . وكجميع المنتجين ، كان باتيستا رجلاً مستعجلاً دائماً وتهربياً ، ولم تكن ايماءاته السريعة تذهب قط الى ابعد من عبارات امثال :

— بمجرد ان تنتهي يا مولتيني ، من هذا السيناريو ، فسنعمل سيناريو آخر على الفور .. وهو اكثر اهمية .

او يقول :

— كن مستعداً في يوم من هذه الايام ، يا مولتيني ، فان لديّ عرضاً سأطرحه عليك ...

او يقول بكلام اوضح :

— لا توقع اتفاقات ، يا مولتيني ؛ فمن الآن حتى خمسة عشر يوماً، ستوقع عقداً معي .

وأعترف اني رغم كرهي المتزايد لهذا النوع من العمل ، فان الامور الاولى التي فكرت بها غريزياً هي الشقة،والمبالغ التي كنت ما ازال مديناً بها ؛ فلهذا كنت سعيداً بعرض باتيستا . والحق ان الامور تجري على هذا النحو ، في مهنة السيناري هذه : ان اي عرض جديد — حتى ولو كان المرء لا يحبه — كما هــو شأني ، يُتقبل تقبلاً حسناً ، واذا لم يُعرض عليك شيء ، قلقت وخشيت ان تُبعد عن الساحة .

ولكني لم أنبس ببنت شفة امام اميلي عن هــذا العرض الجديد من باتيستا ، وذلك لسببين : لأني اولاً لم اكن قد عزمت بعد عــلى ان

أقبله ، ولأني ثانياً كنت قد فهمت ان عملي لا يهمها ، وكنت اوثر الا احدثها عنه خشية ان اسبب توكيداً جديداً لبرودة ولامبالاة كنت أصر الا أعلق عليها أية اهمية . والحق ان الامرين جميعاً كانا مشدودين برباط كنت أحسه احساساً غامضاً : انني لم اكن على يقين بأن اقبل هـذا العمل لانني كنت اشعر بأن اميلي لا تحبني بعد . ولو انها احبتني لأطلعتها على هذا العرض ، وحديثي اليها عنه كان يعني في الحقيقة قبوله .

وذات صباح ، خرجت للقاء المخرج الذي كنت اعمل معه في سناريو رقم واحد ، سيناريو باتيستا . وكنت اعرف ان هذه هي آخر مرة اقصده فيها ، لأن المخطوطة كانت على وشك ان تنتهي ، وسأكون من جديد حراً ، نصف نهار على الاقل . ثم ان شهرين من العمل كانا كافيين لكي ابغض موضوع الفيلم وشخصياته . وكنت اعرف اني لن ألبث طويلاً حتى اشتبك مع موضوع وشخصيات اخرى ستصبح هي ايضاً غير محتملة ؛ ولكني في هذه اللحظة كنت اتخلص من الاولين ، وهذا المنظور كان يكفي للايحاء بعزاء كبير لي .

وبفضل هذا الامل في حرية وشيكة ، اشتغلت ذلك اليوم بسهولة غريبة . ولم يكن ينقص السيناريو الا بعض رتوش غير ذات اهمية ، ولكننا كنا منذ بضعة ايام نعمل فيها بلا نتيجة . واستخفتني قريحتي ، فاستطعت منذ البدء ان أجد الحجج الصحيحة وأحل الصعوبات الاخيرة واحدة بعد الاخرى ، حتى ادركنا بعد زهاء ساعتين فقط ان السيناريو قد انتهى حقاً هذه المرة . وكما يحدث في بعض تمارين الركض المرهقة والتي لا تنتهي في الجبل ، حين يبدو فجأة في احدى المنعطفات الهدف الذي كان المرء يائساً من بلوغه ، كنت اكتب عبارة من الحوار حين صرخت في دهشة :

— ولكن لماذا لا ننهي السناريو بهذه الكلمات نفسها ؟

وكان المخرج ، فيما كنت اكتب ، يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ،

فنظر الى الصفحة من فوق كتفي وقال بدوره ، في لهجة دهشة وعدم تصديق :

— انت على حق . ان بالامكان انهاءه هكذا !

واذ ذاك سطرت كلمة « النهاية » في اسفل الصفحة ، واغلقت الملف ، ونهضت .

وظللنا لحظة صامتين ، ونحن ننظر كلانا الى المكتب الذي كانت المخطوطة المنتهية مستريحة عليه ، أشبه ببطلين من ابطال تسلّق الجبال ، يتأملان ، وقد نفدت قواهما ، البحيرة الصغيرة او الصخرة التي بلغاها بعد كثير من الجهد والتعب . ثم تنهد المخرج وقال :

— اوف ! انتهى الامر !

قلت : — نعم . لقد انتهى .

وكان هـــذا المخرج يُدعى « بازيّي » ، وكان شاباً اشقر بارز القسمات ، جافــاً ، دقيقاً ، مرتباً ، وهو اشبه بمهندس او بمحاسب موسوس منه بفنان . وكان في مثل سني تقريباً ، ولكن العلاقات فيما بيننا ، كما يحدث عادة في مهنتنا ، كانت علاقات رئيس ومرؤوس ، لأن المخرج له السلطة دائماً على معاونيه . وقد استطرد ، بعد لحظة ، بلطفه البارد الاخرق :

— يجب ان نقول ، يا ريشار ، بأنك تشبه الحصان الذي تنبعث منه رائحة الاسطبل ... انني كنت سأراهن انه كان علينا على الاقل اربعة ايام اخرى من العمل ، وها نحن قد تخلصنا في ساعتين ... ها ! ها ! لا بد ان تخيلك التوجه الى الصندوق هو الذي اعطاك الالهام !

لم اكن اكره بازيّي رغم انه متوسط الذكاء وغير حساس نفسياً . وكانت قد قامت بيننا علاقات تعويض ، اذا صح التعبير : كان هو رجلاً لا خيال له ولا اعصاب ، ولكنه كان عارفاً حدوده ومتواضعاً في الحقيقة ؛ اما انا ، فكنت ثائر الاعصاب والخيال ، انفعالياً معقداً .

وقد أجبته بلهجة المزاح نفسه :

ـ نعم ، كما تقول تماماً .. تخيّل التوجّه الى الصندوق ...

ومضى يقول وهو يشعل سيجارة :

ـ ولكني لا اعتقد ان القضية قد انتهت .. لقد قمنا بأهم عملنا ، ولكن يجب ان نعيد النظر بالحوار ... فلا تنم على غارك !

ولاحظت مرة اخرى طريقته في التعبير بجمل مبتذلة وعبارات جاهزة ، وألقيت بنظرة خفية الى ساعتي : فكانت الواحدة تقريباً . وقلت :

ـ إطمئن ، إني باق تحت تصرفك لأي تصحيح تراه ...

فهز رأسه :

ـ اني اعرفكم جميعاً كما انتم .. وحتى لا تنام ، سأقول لباتيستا ان يبقي ما يتوجب لك معلقاً ...

كانت له طريقة في المزاح بلهجة حماية تثير لدى رجل في هـذه السن الشابّة ، لهجة تحث مساعديه بالتناوب بين العقـاب والمديح ، والتحفظات والتشجيعات ، والرجاء والأمر ؛ ويمكن اعتباره ، من هذه الناحية ، مديراً صالحاً ، ما دامت الإدارة تتلخّص في قسم كبير منها بمعرفة استخدام الآخرين استخداماً بارعاً .

وأجبت وانا استجيب لمعانيه كالعادة :

ـ لا ، بل ستأمر بأن تصرف لي كل حقي ، وانا اعدك بأن اكون تحت تصرفك ..

وقال وهو يلح إلحاحاً ثقيلاً :

ـ ولكن ما عسى هذا المال كله ان ينفعك ؟ انك لا تشبع منه .. ومع ذلك ، فليست لك عشيقة ، ولا تلعب القمار ، وليس لك اولاد !

فأجبته جاداً وانا اخفض عيني ، وقد انزعجت قليلاً من قلة تحفظه :

ـ ان عليّ ان ادفع اقساط شقتي .

ـ الا يزال عليك دين كثير ؟

ـ المبلغ كله تقريباً ...

— افترض ان زوجتك هي التي تعذبك لكي تطلب الاجر .. يخيل الي اني اسمعها تقول : ريشار ، لا تنس ان تصفي حساب تعويضك !
فأكدت قائلاً :
— انها طبعاً زوجتي ، ولكنك تعرف النساء والاهمية التي يعلقنها على بيوتهن ...
وأخذ يحدثني عن زوجته التي كانت تشبهه كثيراً ، ولكن كان يخيل الي انه يعتبرها مخلوقاً غريباً مليئاً بالاهواء والمفاجآت ، يعتبرها امرأة بالاجمال . وكنت اتظاهر بأني كنت أصغي بتنبه ، ولكن فكري كان في مكان آخر . وانتهى الى القول :
— هذا كله جيد ، ولكني اعرفكم انتم السيناريين ، فكلكم من طينة واحدة .. حين تقبضون ، لا يراكم بعدُ أحد ... لا ، لا ... سأقول لباتيستا ان ينتظر قبل ان يدفع لك ...
— كفى يا بازيتي ، كن لطيفاً ...
— حسناً ، سأرى ... ولكن لا تعتمد على هذا اكثر مما ينبغي ...
واسترقت نظرة اخرى الى ساعتي . لقد اتحت للمخرج فرصة ان ان يبدي سلطته ، فأبداها ، وكان بامكاني ان امضي :
— حسناً ! انني مسرور ان انهيت هذا العمل ، او كما تقول ، معظم هذا العمل .. ولكني اعتقد انه آن الاوان لكي اذهب .
فصاح بحيوية :
— اطلاقاً ! يجب ان نشرب نخب الفيلم .. ولن تذهب هكذا ...
قلت مستسلماً :
— اذا كانت القضية قضية شرب ، فاني ابقى ..
— إذن ، لننتقل الى الطرف الآخر .. اعتقد ان زوجتي ستكون مسرورة بأن تشرب معنا .
وتبعته الى خارج المكتب عن طريق ممر ضيق ابيض كانت تنبعث

منه رائحة مطبخ وخرق أطفال . وسبقني الى قاعة الاستقبال وهو ينادي:
– لويز ، لقد انتهينا ، انا ومولتيني ، من سناريونا ؛ وسنشرب الآن نخب انتصار الفيلم .
وتركت السيدة بازيتي اريكتها لتأتي الى لقائنا . وكانت امرأة قصيرة ذات رأس كبير ، ووجه متطاول شديد البياض تؤطره عصابات ملساء سوداء . وكانت لها عينان كبيرتان ممتقعتان غير معبّرتين لم تكونا تنتعشان الا لحضور زوجها ، فلا تنفصلان في هذه الحالة عنه ، كما تنظر بعض الكلاب المحبّة الى سيدها . اما في غياب زوجها ، فقد كانت تخفضهما بهيئة تواضع . وكانت قد رُزقت في اربع سنوات اربعة اولاد ، فكانت تبدو رخصة العود دقيقة .
قال بازيتي بمرحه المربك :
– هيا .. انني سأعدّ كوكتيلا .
فقاطعته السيدة بازيتي :
– ليس لي ، يا جينو ، فانت تعرف اني لا اشرب منه !
– ولكننا ، نحن ، سنشرب .
وجلست على اريكة يغطيها نسيج مزهر ، امام مدخنة من القرميد ، وجلست السيدة بازيتي قبالتي على اريكة مماثلة . ونظرت حولي : كانت غرفة الاستقبال مصنوعة على غرار صاحبها ، فهي مرتبة ، ملمعة ، منظمة تماماً ، ولكنها في الوقت نفسه مسكينة بعض الشيء ، كمنزل مستخدم او محاسب . وقد ظللت افحص الغرفة ، لأن السيدة بازيتي لم يكن يبدو انها تشعر بحاجة الى الحديث . كانت جالسة قبالتي منخفضة العينين ، ويداها على ركبتيها ، لا تبدي حراكاً . وفي هذه الاثناء ، كان بازيتي قد اتجه الى الركن المقابل من الصالة ، نحو قطعة اثاث قبيحة متنافرة ، هي في وقت واحد مشرب وجهاز راديو ؛ ورأيته ينطوي فوق ساقيه الهزيلتين ، فيستخرج منه بحركة دقيقة بارزة زجاجتين ،

احداهما زجاجة فرموت والاخرى زجاجة دجن ، وثلاثة اقداح ووعاء. وقد وضعها كلها على صينية حملها الى طاولة تقوم قرب المدخنة . وقد لاحظت ان الزجاجتين كانتا مسدودتين لم تُمسّا . لا بد ان بازيتّي لم يكن يسمح لنفسه ان يشرب ؛ وحتّى الوعاء اللامع كان يبدو جديداً . وقال لنا إنه ذاهب يأتي بالثلج ، ثم خرج .

وظللنا طويلاً في صمت أحسست الحاجة الى قطعه ، فقلت :

– لقد انتهينا اخيراً من السيناريو !

فأجابت السيدة بازيتّي :

– نعم ، لقد قال جينو لي ذلك .

– وانا متأكد من ان الفيلم سيكون جيداً .

– وانا ايضاً متأكدة ، والحق ان جينو ما كان ليفعله لو كان الامر خلاف ذلك .

– هل تعرفين موضوعه ؟

– نعم ، لقد رواه لي جينو .

– وهل يروق لك ؟

– انه يروق لجينو ، فهو إذن يروق لي .

– هل انتما متوافقان ؟

– انا وجينو ؟ دائماً ...

– من يأمر فيكما ؟

– جينو بالتأكيد .

ولاحظت انها كانت قد تفننت بترديد اسم زوجها كلما فتحت فمها. وكنت قد تكلمت بلهجة غير مبالية ، فأجابتني دائماً بأكبر حظ من الجدية . وعاد بازيتّي بدلو الثلج وناداني :

زوجتك على التلفون ، يا ريشار .

ولا ادري لماذا نفر الدم عنيفاً الى قلبي كما لو أنه ارتداد مفاجئ لضيق مألوف . ونهضت آلياً وتوجهت نحو الباب ، فأضاف بيزاتي :

— إن جهاز التلفون في المطبخ ، ولكنك تستطيع اذا شئت ان تتحدث من هنا ، فقد وصلتُ المخابرة .

وبالفعل كان ثمة جهاز تلفون على صندوق بالقرب من المدخنة . وقد تناولت السماعة وسمعت صوت اميلي :

— اعذرني ، يا ريشار ، يجب ان تتدبر أمرك اليوم لتتغدى خارج البيت .. فاني سأتغدى مع امي .

— ولكن ، لماذا لم تقولي لي ذلك قبل الآن ؟

— لم اكن اريد ان ازعجك في عملك .

قلت — حسناً ، سأذهب لتناول الغداء في المطعم .

— الى اللقاء .

وقطعتُ المخابرة ، فالتفتُ الى بازيتي ، فسألني :

— ألا تأكل في بيتك يا ريشار ؟

— لا .. بل سأذهب الى المطعم .

— ولكن ، إبق فتناول الغداء معنا ... بلا تكليف ... وسيسرّنا ذلك .

وكان احساس من الخيبة قد غمرني بشكل غير قابـل للتفسير لدى فكرت بأني سأتناول الطعام وحدي في المطعم ؛ ولا شك في ان ذلك لأني قد تلذذت مقدماً بفرحة إبلاغ اميلي انتهاء السناريو . وربما كنت امتنعت لو تذكرت ان اعمالي لم تعد تهمها ، ولكني في تلك اللحظة كنت قد استجبت لعادة ماضينا القديمة . لقد سرتني دعوة بازيتي ، وقد قبلتها بعرفان يتجاوز حدوده . وكان في هذه الاثناء قد فتح الزجاجتين ، وأخـذ ، بحركات صيدلي يدقق في قدر دواء يصنعه ، يصبّ الدجن والفرموت ويفرغها في وعـاء المزج . وكانت السيدة بازيتي ماضية في

التهام زوجها بعينيها . اما هو ، فبعد ان خض الوعاء بقوة ، كان يتهيأ لملء القدحين . وقالت له زوجته :

— ارجوك ، مقدار اصبع لي فقط . وانت أيضاً ، يا جينو ، خذ منه قليلاً ، فقد يؤذيك هذا .

— إن المرء لا ينهي كل يوم سناريو !

وملأ قدحينا ، وأفرغ قليلاً من الكوكتيل في القدح الثالث . ورفعنا نحن الثلاثة اقداحنا ، فقال بيزاتي :

— العقبى لمئة سناريو كهذا !

وبلّل شفتيه فقط ، ثم وضع قدحه على الطاولة . اما انا ، فأفرغت كأسي جرعة واحدة . وشربت السيدة بازيتي بجرعات صغيرة ثم نهضت وهي تقول :

— انني اريد ان القي نظرة على المطبخ ، هل تسمحان ؟

وخرجت ، فاحتل بازيتي مكانها على الاريكة المزهرة واخذنا نثرثر. او انه بالاحرى أخذ يحاور نفسه ، بصدد السيناريو خصوصاً ، وكنت استمع اليه وانا اقرّة على كل شيء بهمهمات او بهزات من رأسي ، فيما ظللت أشرب . وظل قدح بازيتي على حاله ، نصف ممتليء ، وكنت انا قد افرغت كأسي ثلاث مرات . ولا ادري لماذا كان شعور كثيف بالضيق يتسلل الى نفسي ، وكنت أشرب على امل ان يذهب السكر بهذا الضيق . ولكني شديد الصمود للكحول ، وكان كوكتيل بازيتي خفيفاً، كثير الماء . ولهذا لم تنفع ثلاثة اقداح او اربعة الا في مضاعفة ضيقي المبهم . وتساءلت فجأة : « كم أحسني بائساً ، ولماذا ؟ »

وتذكرت آنذاك ان اول ضربة من ضربات الالم انما كنت قد احسست بها وأنا أسمع في التلفون صوت اميلي ، بارداً ، لاشخصياً ، متحفظاً ، وخصوصاً مختلفاً عن صوت السيدة بازيتي حين كانت تنطق باسم « جينو » السحري . ولكن لم يمكنّي ان أعمّق هذه التأملات لأن

السيدة بازيني ظهرت من جديد واعلنت ان بوسعنا ان ننتقل الى الطعام.

كانت قاعـــة طعام آل بازيني من نوع المكتب والصالون نفسه : أثاث برّاق لطيف رخيص الثمن من الخشب المدهون باللون الابيض ، وصحون من خزف ملوّن ، وزجاجيات قديمة خضراء ، وخوان وفوط من القنّب الخام . وكانت الغرفة صغيرة ، وكانت الطاولة تملأها كلها تقريباً بحيث انه كان على الخادمة ، حين تدور لتقدّم الطعام ، ان تزيح احد المدعوين من مكانه ؛ وقد أخذنا نتناول الطعام في صمت ورزانة . ثم غيرت الخادمة الصحون وانتهزت الفرصة لاسأل بازيني عن مشاريعه للمستقبل . فأجابني بصوته البارد ، الدقيق ، الذي كان التواضع ونقص الخيال يبدوان وكأنهما همـــا اللذان يوحيان باختيار الكلمات فيه وتغيير النبرات . وكنت أصمت ، غير واجد ما اقوله ، لأن مشاريع بازيني لم تكن تهمني اطلاقاً ، وحتى لو همتني ، فقد كان هذا الصوت الابيض كافياً لجعلها مضجرة . واذ كان نظري الشارد يتنقل بغموض من حاجة الى حاجة ، من غير ان يجد شيئاً يمكن ان يجتذبه ، توقف عند وجه السيدة بازيني التي كانت تصغي هي ايضاً ، مسندة ذقنها بيدهـــا ، وعيناها مثبتتان كالعادة على زوجها . واذ ذاك دهشت لتعبير العينين في ذلك الوجه : انه تعبير رقيق ، محرق ، ممزوق باعجاب متواضع وافتتان جسدي وحياء يكاد يكون كئيباً . كنت من شدة الدهشة بحيث ان العاطفة التي كانت تنعكس فيهما كانت تبدو لي حقاً غير قابلة للفهم . إن بازيني ذاك الذي يبلغ هذا الحد من فقدان اللون وضعف الصحة وتوسط الذكاء، والحرمان من جميع المزايا التي يمكن ان تفتن امرأة ، كـــان يبدو لي شيئاً لا يُصدّق بالنسبة لمثل هذه العناية . ثم قلت لنفسي ان كل رجل ينتهي به الامر الى وجود المرأة التي تقدره وتحبه ، وأن الحكم على مشاعر الآخرين وفقاً لمشاعر الانسان الخاصة خطأ جسيم . وأحسست آنذاك بنوع من الودّ لهذه المرأة الى ذلك الحد لرفيقها ، وباحترام له ، هو الذي

كان يوحي لي ، رغم قلة ذكائه ، بصداقة ساخرة حتى ذلك الحين . ولكن ، فيما كانت نظراتي الشاردة تنتقل الى مكان آخر ، اخترقت ذهني فكرة او حدس مفاجيء : « إن في هاتين العينين جماع حب هذه المرأة لزوجها ، وانما هو راض عن نفسه وعما يعمل لأنها تحبه ؛ اما عينا اميلي فقد كفتا منذ وقت طويل عن ان تعكسا مثل هذا الشعور .. ان اميلي لا تحبني بعد ، وهي لن تحبني ابداً ...»

وايقظت هذه الفكرة في نفسي ألماً عميقاً ، فأحدثت لي صدمة جسدية الى حد انني كشرت في وجهي ، وان السيدة بازيني ، المليئة بروح المشاركة سألتني ، هل اللحم الذي كنت آكله قاس . فطمأنتها: لقد كان اللحم طرياً . على اني فيما كنت اتظاهر بالاصغاء الى بازيني الذي كان ماضياً في تعداد مشاريعه ، كنت اجهد في تعميق هذا الاحساس الاول الذي كان حاداً الى ذلك الحد ، وغامضاً في الوقت نفسه . وفهمت آنذاك اني منذ شهر كنت قد حاولت ان اعوّد نفسي على وضع غير محتمل ، من غير ان انجح في ذلك ؛ والواقع اني لم اكن أستطيع بعد ان احتمل ان اعيش هكذا بين اميلي التي لم تكن تحبني بعد ، وبين عمل لم اكن أحبه بعد ، بسبب من اميلي . وقلت في نفسي : « انني لا استطيع بعد المضي في هذا الطريق ، ويجب علي مرة اخيرة ان اتفاهم مع زوجتي ... واذا لزم الامر ، انفصلت عنها وتركت عملي ... »

على اني رغم هذا القرار اليائس ، لاحظت اني لم اكن انجح في الايمان به تماماً : فالحق اني لم اكن مقتنعاً بعد كل الاقتناع بان اميلي قد ابتعدت عني نهائياً ، ولا اني سأجد القوة على الانفصال عنها ، وعلى التخلي عن عملي كسيناري ، وعلى ان اعيش وحدي . كنت بعبارة اخرى أحس شعوراً من عدم التصديق جديداً كل الجدة بالنسبة لي ، ومؤلماً ، تجاه أمر كان ذهني قد يعتبره اكيداً . فما دامت اميلي قد كفت عن ان تحبني ، فكيف تأتى لها ان تصل الى هذه اللامبالاة ؟

كنت أحس ، وقلبي منقبض بالضيق ، ان هذا التأكيد الاول ، المؤلم ، كان يتطلب لاقناعي اقناعاً تاماً الف دليل آخر اشد خصوصية وأكثر ايلاماً . كنت اعرف ان اميلي لا تحبني بعـد ، ولكني كنت اجهل اسباب هذا التغير ومراحله ، ولكي اقتنع بذلك مطلق الاقتناع ، فلا بد من ان اتفاهم معها ، وان ابحث وأحلل ، وأدخـل مسبار التحقيق الدقيق القاسي في جرح كنت قد جهدت حتى الآن في نسيانه . وكانت تلك الفكرة ترعبني ، على اني كنت ادرك اني لن اجـد الجرأة على الانفصال عن اميلي ، الا بعد ان اقوم بتحقيقي ، كما اوحى لي بذلك إحساسٌ يائس من احاسيس روحي .

غير اني ظللت آكل واشرب واصغي الى بازيّي من غير ان اشعر تقريباً بما افعل . وانتهى طعامنا أخيراً ، ولله الحمد . وانتقلنا من جديد الى الصالون حيث كان لا بد من مـلء الشكليات المختلفة للاستقبالات البورجوازية : القهوة — قطعة او قطعتان مـن السكر ؟ — وتقديم المشروب — قوي ام خفيف ؟ — والرفض المألوف لهذا المشروب ، والاحاديث الفارغة التي تُزجي الوقت ...

وحين حسبتني قادراً على الاستئذان بالانصراف ، من غير ان اعطي انطباعاً بالاستعجال ، نهضت . ولكن في تلك اللحظة أدخلت الخادمة كبرى اولاد بازيّي لتبلغ الابوين انها ستأخذها في النزهة اليومية . كانت صبية سمراء ممتقعة ذات عينين كبيرتين جـداً ، ولكنها بالجملة عادية وتافهة كابويها . وفيما كنت انظر اليها وأمها تقبلها وتدللها ، خطرت في ذهني فكرة : انني لن اكون ابداً سعيداً مثل هؤلاء الناس ... ولن نرزق ، انا واميلي ، اي صبي ... ومـا لبثت فكرة اخرى ، اشد مرارة ، ان راودتني : كم أتلبس وضع جميع الازواج الذين خيبتهم نساؤهم ! هأنذا أحسد زوجين عاديين يأكلان بالقبلات ذريتها ... تماماً

كأي زوج يجد نفسه في وضعي ... وارهقتني هـذه الفكرة وجعلت المشهد العائلي الذي كنت اشهد مشهداً لا يطاق . واعلنت فجأة ان عليّ ان انصرف . فرافقني بازيتي ، والغليون في فمه ، الى الباب . وداخلني الشعور بان انصرافي المستعجل قد ادهش وفاجأ زوجته التي كانت تنتظر بلا ريب ان تراني اتعطف وأرق امـام المشهد العميق الذي يعبر عن حبها الرؤوم .

الفصل السابع

كان المفروض ان يشغلني سناريوي الثاني ابتداء من الساعة الرابعة ، وقد كان ما يزال امامي ساعة ونصف الساعة ؛ وحين اصبحت في الشارع ، توجهت بصورة غريزية الى منزلي . وكنت اعلم ان اميلي كانت غائبة ، باعتبار انها قد تناولت الغداء مع امها ، ولكني كنت ارجو ، وانا مليء بالضيق ، حائر ، ان أجدها في البيت . وكنت أقول في نفسي اني في هذه الحالة ستكون لي الجرأة على ان أحدثها بصراحة ، وأن أجرها الى تفسير نهائي . وكنت أشعر ان علاقاتي باميلي ستتوقف على هذا التفسير ، وكذلك عملي ، من جهة اخرى . فبعد هذه الترددات والذبذبات الكثيرة ، كنت أحسبني اؤثر اي كارثة على استمرار وضع يتضح مع الاسف اكثر فأكثر ويقل احتماله أكثر فأكثر . ربما كان علي ان أنفصل عن زوجتي ، وان ارفض سناريو باتيستا الثاني ... ولن يكون ذلك الا افضل . ان الحقيقة ، مهما كانت ، تبدو لي منذ الآن أجدر بالقبول من هذا الوضع المعتكر القذر ، بين الكذب وشعور العطف الذي كنت أكنه لنفسي .

ولكني اذ بلغت شارعنا ، عاودني تململي : ان اميلي لا يمكن ان تكون في هذا البيت وفي هذه الشقة الجديدة التي كانت في نظري الآن

اشدّ كرهاً وغرابة ، وكنت سأحسّني اكثر حيرة وألماً مما لو كنت في مكان عام . وأغريت لحظة بان ابتعد وان اذهب فأقضي هذه الساعة والنصف من الانتظار في مقهى . ثم في لحظة برق مفاجيء من ذاكرتي ، ذكرت اني كنت مساء امس قد وعدت باتيستا ان اكون في بيتي في تلك الساعة من النهار ، لأتواعد معه على اللقاء بالتلفون ، وكان ذلك وعداً هاماً ، باعتبار ان باتيستا سيكلمني نهائياً عن سيناريوه الجديد ، وان يقترح لي عروضاً محسوسة ، وان يقدمني الى المخرج ، وكنت قد أكدت له اني سأكون في بيتي في الساعة الموعودة ، على مألوف عادتي كل يوم . وكان بامكاني طبعاً ان اتلفن لباتيستا من المقهى ، ولكني لم اكن موقناً ان أجده في بيته لأنه غالباً ما يتناول الغداء في المطعم ، ومن جهة اخرى ، كنت وانا في ضيقي الشديد بحاجة الى حجة لكي اعود الى البيت ، وكانت مخابرة باتيستا المنتظرة تعطيني هذه الحجة بالذات .

واذن ، فقد عدت الى المنزل ، وتوجهت نحو المصعد ، فأغلقت ابوابه وضغطت على زر الطابق الأخير الذي أسكنه . وفيما كنت أصعد ، قلت لنفسي اني لم اكن في الحقيقة أملك حق تحديد موعد لباتيستا ، وانا غير واثق اطلاقاً ان اقبل عرضه الجديد . وكان كل شيء متوقفاً على تفاهمي مع اميلي . كنت أعرف انها اذا صارحتني انها لم تعد تحبني ، فاني لن اكتفي بعدم تأليف هذا السناريو ، بل اني لن اؤلف بعده اي سناريو آخر في حياتي . ولما كانت اميلي غائبة عن البيت حين سيتلفن باتيستا ، فلن اكون بمستطيع ان اقبل او ارفض او اذهب لمناقشة عرضه . اما معالجة القضية ثم الانسحاب بعد ذلك ، فأمر يبدو انه عبث من اشد انواع حياتي عبثاً . وامام هذه الفكرة استولى عليّ اشمئزاز وغضب ضار ، فأوقفت المصعد فجأة وضغطت زر الهبوط . وقلت لنفسي ان من الافضل ألاّ يجدني باتيستا في الطرف الآخر من

الخط حين يتلفن . وفيما بعد ، في المساء ، سأتفاهم مع اميلي ، وفي اليوم التالي ، أعطي المنتج جواباً يتطابق مـع الجواب الذي اكون قد تلقيته منها .

في هذه الاثناء ، كان المصعد يهبط ، فكنت ارى الطوابق تجري عبر الزجاج المغبر ، بعيني سمكة ترى مستوى الماء في الحوض الذي تسكنه يهبط شيئاً فشيئاً . واخيراً ، توقف المصعد فوضعت يـدي على مقبض الباب . ولكن فكرة مفاجئة اوقفت حركتي : اجل ، صحيح ان قبولي هذا العمل الجديد يتوقف على نتيجة مناقشتي مع اميلي ، ولكن لنفرض ان اميلي طمأنتني ، في المساء ، عـلى ثبات حبها لي ، الا اوشك ، اذا غبت عن بيتي ، ان اثير استياء باتيستا وان افقد السناريو ؟

لقد كنت اعرف بالخبرة ان للمنتجين اهواء الطغاة الصغار ، وهذا النوع من معاكسة القدر يمكن ان يكفي لجعل باتيستا يغير رأيه ويدفعه لاختيار سيناري آخر .

كانت هذه الافكار تتصارع في رأسي الحزين ، فتخلف لدي شعوراً عميقاً من الضيق الحاد : وكنت افكر باني انسان مسكين ، يتمزق بين مصالحه وعواطفه ، وهو عاجز عن الاختيار والتقرير . والله وحده يعلم كم كنت ساقضي من الوقت في المصعد ، متردداً ضائعاً ، لو لم تفتح امرأة شابة الابواب ، وذراعاها محملتان بالرزم . وخنقت صرخة ذعر اذ اكتشفتني مسمراً في مكاني امامها ، ثم استدركت نفسها ، فدخلت وهي تسألني اي طابق اقصد ، فقلت :

– الطابق الاخير .

فقالت وهي تضغط على الزر :

– اما انا ، فالثاني .

وصعد المصعد .

وخرجت الى العتبة في شعور من العزاء العميق ، ولم استطع الامتناع

عن محاكمة عقلي : « حقاً ، في اية حالة انا حتى اتصرف على هذا النحو ؟ كيف وصلت الى هذا ؟ » فدخلت منزلي ، وانا افكر بهذا ، ودفعت باب قاعة الجلوس . واذ ذاك رأيت اميلي متمددة على الديوان ، في الروبدشامبر ، وبيدها كتاب . وعلى مقربة من الديوان ، كانت ثمة طاولة صغيرة تحمل صحوناً وبقايا طعام . إن اميلي لم تخرج ، وهي لم تتناول الغداء في بيت امها ، لقد كذبت عليّ ...

ولا بد ان وجهي كان ذا هيئة غريبة ، لانهـا سألتني ، بعد ان القت علي نظرة :

– ما بك ؟ ماذا حدث لك ؟

فقلت بصوت مخنوق :

– الم يكن المفروض ان تتغدي في منزل امك ؟ فكيف حدث انك هنا ؟ لقد قلت لي انك ستتناولين الغداء في الخارج ...

فأجابت في هدوء :

– لقد تلفنت لي في اللحظة الاخيرة ... وقد فكرت بانك لم تكن بعدُ عند بازيتي .

كنت واثقاً من انها كانت تكذب ، ولم اكن ادري عـلام كان هذا اليقين قائماً . ولكني كنت عاجزاً عن اعطائها دليلاً ، وكذلك عن اعطاء نفسي ، فسكت وجلست بدوري على الديوان . وبعد لحظة سألتني ، فيما هي تقلب صفحات مجلتها ، من غير ان ترفع الي عينيها :

– وانت ، ماذا فعلت ؟

– لقد دعاني بازيتي وزوجته الى تناول الغداء .

وفي هذه اللحظة ، رن جرس التلفون في الغرفة المجاورة . وفكرت : « انه باتيستا ، وسأقول له اني عزمت على ألا اشتغل بهذا السناريو .. فليذهب كل شيء الى الجحيم ! انه من الواضح تماماً ان هذه المرأة لا تملك ذرة من الحب لي .. »

ولكن اميلي ، بلامبالاتها العادية ، استعجلتني تقول :

ــ اذهب فانظر من يتلفن ، انها مخابرة لك بكل تأكيد .

فنهضت وخرجت . وكان جهاز التلفون في الغرفة المجاورة على طاولة السرير . وقبل ان ارفع السماعة ، ألقيت نظرة على السرير بوسادته الوحيدة ، فشعرت بقراري يتوكد : لقد انتهى الامر ، انني سأرفض السناريو ، ثم اترك اميلي .

ورفعت السماعة الى اذني ، ولكن بدلاً من صوت باتيستا ، سمعت صوت حماتي تسألني :

ــ ريشار ، هل اميلي هنا ؟

وقبل ان افكر اجبت :

ــ لا ، ليست هنا ... لقد قالت لي انها تتناول الطعام عندك ... لقد خرجت ، وكنت اظن انكما معاً ...

فقال الصوت مندهشاً :

ــ عجباً ، ولكني تلفنت لها ان ذلك لم يكن ممكناً ، لان هذا هو يوم عطلة خادمتي .

وفي تلك اللحظة ، رفعت عيني فرأيت عبر الباب الذي ظل مفتوحاً اميلي متمددة على الديوان وهي تنظر اليّ ، ولاحظت ان عينيها المحددتين فيَّ كانتا محملتين بكراهية ارادية واحتقار بارد اكثر مما كانتا محملتين بالدهشة . وادركت انني انا الذي كذبت ، وانها كانت تعرف سبب كذبي . وتمتمت اذ ذاك ببضع كلمات توديع ، ثم صرخت فجأة في جهاز التلفون ، كما لو اني استدرك قائلاً :

ــ لا ... انتظري ... لقد وصلت اميلي في هذه اللحظة ... سأعطيك اياها .

وفي الوقت نفسه اومأت لاميلي ان تأتي الى التلفون . فنهضت عن الديوان ، واجتازت القاعة خافضة الرأس ، وتناولت السماعة من يدي

من غير ان تنظر الي ولا ان تشكرني . وتوجهت نحو قاعة الاستقبال ، فرأيتها تقوم بحركة تنم عن نفاد صبر كما لو انهـا كانت تأمرني بان اغلق الباب . فأطعت ، وجلست على الديـوان ممتلئاً بالاضطراب ، واخذت انتظر .

ظلت اميلي مدة طويلة على التلفون ، وقد خيـل إلي ، وانا في وضعي من نفاد الصبر المؤلم القلق ، أنها كانت تتقصد ذلك تقصداً . ولكن محادثاتها التلفونية مع امها كانت دائماً طويلة جداً . كانت شديدة التعلق بأمها التي ظلت أرملة والتي لم يكن لها سواها بعد ، ويبدو انها قد جعلت منها كاتمة اسرارها .

وفتح الباب اخيراً ، فظهرت اميلي مرة ثانية . وظللت ابكم جامداً ، وفهمت من تعابير وجهها الشديدة القسوة انهـا كانت غاضبة علي . وسرعان ما هاجمتني وهي تصفّ الصحون الباقية على الطاولة الصغيرة :

ـ هل اصبحت مجنوناً ؟ لماذا قلت لامي اني كنت في الخارج ؟

وظللت مغلق الفـم ، منزعجاً باللهجة الـتي كانت تستعملها . واضافت تقول :

ـ لقد كان ذلك لكي ترى هـل قلت الحقيقة ؟ ولتتأكد هـل من الصحيح ان امي كانت قد اخبرتني انها لم تكن تستطيع ان تتغدى معي ؟

فاجبت في جهد :

ـ ربما بسبب هذا ، في الواقع ..

ـ ارجوك اذن الا تعيد هذا ... انني اقول الحقيقة ، وليس لدي ما اخفيه .. انني لا استطيع ان احتمل هذا النوع من التصرف ...

ونطقت بهذه الكلمات بلهجة حاسمة ثم خرجت من القاعة .

وظللت وحدي ، وتذوقت لحظةً الشعور المرير بالانتصار . لقد كان ذلك صحيحاً اذن : ان اميلي لم تعد تحبني ، ولو كنا في الماضي ، لما

حدثتني قط بهذه اللهجة ، بل كانت تقول لي في رقة ممزوجة بالدهشة المرحة :

— ولكن هل كنت تظن حقاً بأني كذبت عليك ؟

ولكانت ضحكت ، كما لو ان المسألة خطأ طفولي يغتفر ، ولربما اظهرت بعد ذلك روحاً دعابية :

— لعلك تشعر حقاً بالغيرة ؟ الا تعرف اذن انك غرامي الوحيد ؟

ولكان كل شيء ينتهي بقبلة شبه امومية ، او بملامسة من يديها الكبيرتين الطويلتين على جبيني كما لتطرد كل همّ او ريبة .

ومن الصحيح اني في ذلك العهد ما كنت افكر قط بأن اراقبها ، ولا ان اشك في كلامها . ولكن كل شيء قد تغيّر : هي في حبها ، وانا في حبي ، وكان كل شيء يبدو متجهاً نحو تغيّر أسوأ .

ولكن الانسان يريد دائماً ان يؤمل ، حتّى حين يكون مقتنعاً بأن ليس ثمة بعد من أمل . لقد حصلت على الدليل بأنّ اميلي لم تكن تحبني بعد ، ومع ذلك ، فقد كان ما يزال في نفسي شك ، او بالاحرى املٌ بأني قد فسرت تفسيراً خاطئاً حادثاً لا اهمية له في الحقيقة . وقلت لنفسي انه كان ينبغي لي الا استعجل الامور ، وان على اميلي نفسها ان تؤكد لي انها لم تكن تحبني بعد : هي وحدها من يستطيع ان يعطيني الادلة التي كنت مفتقراً اليها بعد .

كانت جميع هذه الافكار تتتابع بسرعة في ذهني بينما كنت انظر في الفراغ ، وانا جالس على الديوان . ثم دخلت اميلي ، وعادت تتمدد خلفي ، واستأنفت قراءة مجلتها ، وقلت لها اذ ذاك من غير ان التفت :

— سيتلفن لي باتيستا بعد قليل ليعرض عليّ سناريو جديداً ... وهي عملية مربحة جداً هذه المرة ...

— ستكون مسروراً كما اعتقد ؟

— بامكاني ان اربح من هذا السناريو مالاً كثيراً ، ما يتيح لي ان

اواجه تسديد قسطين على الاقل من ثمن الشقة ...

فلزمتُ الصمت هذه المرة . واستطردت اقول :

ـ ثم انه يمثل اهمية كبيرة لي ، لأني اذا وضعته ، فسيكون عليّ ان أضع سواه بعد ذلك ... انه فيلم كبير .

فسألتْ اخيراً ، بصوتها الشارد ، صوت من يتكلم وهو يقرأ ، ومن غير ان يغادر الصفحة بعينيه :

ـ ايّ فيلم ؟

فأجبت بصوت احتفالي :

ـ لا ادري ، والحقيقة اني قررت ان ارفض هذا العرض .

فسألتْ بصوت ما يزال هادئاً ، لامبالياً :

ـ ولماذا ؟

فنهضت واستدرت حول الديوان واتيت اجلس قبالتها . وخفضت اميلي المجلة التي كانت تقرأها ، ونظرت اليّ ، فمضيت اقول بكل اخلاص :

ـ لانك كما تعلمين اكره هذا النوع من العمل ، ولا اقوم به الا محبة لك ... لندفع اقساط هذه الشقة التي تحرصين عليها او تبدين انك تحرصين عليها الى هذا الحد ... ولكني تيقنت انك لا تحبينني بعد .. ولهذا فان ذلك كله يصبح بلا فائدة ..

كانت تنظر اليّ بعينين كبيرتين ، من غير ان تنبس بكلمة :

ـ انك لا تحبينني بعد .. وعلى ذلك ، فاني سأترك هذه المهنة .. اما البيت .. فأني سأرهنه او ابيعه .. انني لا استطيع الاستمرار في العيش على هذا النحو ، واشعر أن الاوان قد آن لأقول لك ذلك .. انت تعرفين الآن ... ان باتيستا سيتلفن عما قليل ، وسأرسله الى الشيطان .

انقضى الأمر وتكلمت ، وقــد آذنت ساعة الشرح والتوضيح التي كنت اريدها واخشاها في وقت واحد . وكنت احس عزاء لهذه الفكرة ،

وكنت احدق في اميلي بصراحة جديدة كل الجدة ، منتظراً جوابها . ولم تجب في الحال . ان تصريحي المفاجيء قد اخذها طبعاً على حين غرة، ثم قالت بحذر ، كما لو انها تريد ان تكسب وقتاً :

— هل هناك ما يجعلك تفكر بأني لا احبك بعد ؟

فأجبت بعنف مهووس :

— كل شيء .

— مثلاً ؟

— قولي لي اولاً ان كان هذا صحيحاً ام لا ؟

فألحت بعناد :

— عليك انت ان تقول لي ما الذي يجعلك تفكر هكذا؟

فقلت مردداً :

— كل شيء ، طريقتك في الحديث معي ، وفي النظر الي ، وفي تصرفك تجاهي ... كل شيء ... بل لقد عبّرت منذ شهر عن رغبتك في ان ننفصل في غرفة النوم .. وانت لم تريدي ذلك قط في الماضي !

كانت تنظر الي ، غير واثقة ، ثم رأيت فجأة في عينيها بريق عزم سريع ، وكنت واثقاً من انها قد حددت الموقف الذي ستتخذه مني ، ولن يغير شيء خط سيرها ، مهما قلت او فعلت . وقد اجابت في رقـة :

— اؤكد لك ، واستطيع ان اقسم بشرفي ، اني لا استطيع ان انام والنافذة مفتوحة ... اني بحاجة الى الظلام والصمت ... اقسم لك ...

— ولكني عرضت عليك ان تغلقي النافذة ليلاً .

— ثم ان هناك شيئا آخر (وترددت) فأنت لا تكون صامتا وانت نائم ...

— ماذا تقصدين ؟

— انك تشخر (وابتسمت بسمة خفيفة واضافت) كنت توقظني كل

ليلة ، ولهذا قررت ان انام وحدي .

وادهشني ان اعلم اني كنت اشخر ، وكدت لا اصدق ذلك ، لقد نمت من قبل الى جانب نساء أخريات : فلم تشكُ اية واحدة من شخيري . واستطردت :

– انك لا تحبينني بعد لأن امرأة محبة (وترددت متزعجا) لا تقوم بفعل الحب كما تقومين انت به معي منذ حين ...

وسرعان ما احتجت ، بمرارة تقريبا :

– انني اتساءل حقا ماذا تريد ؟. فنحن نقوم بفعل الحب كلما رغبتَ في ذلك .. هل رفضتُ يوما هذا ؟

كنت اعلم انني ، في هذا النوع من الحديث الحميم ، كنت انـا اوفر الاثنين حشمة وحياء وارتباكا . اما اميلي التي هي في العادة شديدة التحفظ ، فقد كانت تبدو وكأنها تفقد في الصميمية كل حشمة وكل انزعاج ، بل كان يحدث لها احيانا – وهذا ما كان يدهشني بغموض ويجذبني في الوقت نفسه بما لا ادري من البراءة – ان تتكلم قبل فعل الحب وفي اثنائه وبعده ، عن الحب نفسه ، بلا تحفظ ولا حنان مغطى ، بل بفجاجة وحرية محيّرتين .

وتمتمت بين اسناني :

– صحيح انك لم ترفضي ، ولكن ...

فقاطعتني واستمرت تقول بحيوية :

– في كل مرة اردت ان تقوم بفعل الحب ، استجبت لك .. ولستَ رجلاً يكتفي بمجرد الفعل ... انك تحسن القيام بفعل الحب جداً ...

قلت وقد اثارني الغرور ، بالرغم مني :

– صحيح ؟

قالت بجفاف من غير ان تنظر اليّ :

– نعم ... اذا كنت لا احبك .. فان تفننك نفسه كان يبدو لي

مضجراً ، ولسعيت الى التهرب .. ان بوسع المرأة ان تجد دائماً اعذاراً للتمنع ، أليس كذلك ؟

قلت : — مفهوم ... انك لم تتمنعي قط .. ولكن طريقتك في فعل الحب هي التي تثبت لي انك لا تحبينني !

— وما هي هذه الطريقة ؟

كان عليّ ان اجيبها : « انك تقومين بفعل الحب كالمومس الخاضعة لزبونها والتي تتمنى بكل بساطة ان يتم الأمر بسرعة ... » ولكني احتراماً لها ولي ، فضلت ان اصمت . ولو قلت ذلك لأنكرت وربما ذكرتني ، بدقة تكنيكية ، بعض اندفاعاتها الشهوانية التي كان يتجلى فيهـــا كل شيء : المرونة والتماس اللذة والضراوة والعنف الغرامي ، كل شيء ما عدا الحنان والاستسلام الصادرين عن عطاء الذات الحقيقي . وما كنت اعرف ما الذي اقابلها به ، وبالاضافة الى ذلك ، فاني سأخطيء خطأً جسياً اذا جرحتها بتشبيه مذل . وادركت ان التوضيح الذي كنت اريد أن افسح له المجال قد تلاشى ، وقد حزنت واكتفيت بالقول :

— بالاجمال ، ومهما كان السبب ، فأنا مقتنع بأنك لا تحبينني بعد ، هذا كل شيء ...

فحددت فيّ نظرها قبل ان تجيبني او قبل ان تقوم بحركة ، كما لو انها تريد ان تعرف من تعبير وجهي الموقف الذي يحسن ان تتخذه . ولاحظت آنذاك عندها تفرداً كنت اعرفه من قبل : لقد كان وجهها الجميل الاسمر الهادىء ، المنسجم ، يُصاب وهي في التردد الذي يمزق نفسها ، بنوع من التحلل ، فتصبح وجنتاها متنافرتين ، اذ تبدو احداهما وقد هزلت فجأة ، وينجذب فمها من جهة ، وتبدو عيناها الزائغتان المعتمتان وكأنهما تذوبان في محجريهما كما في شمع مظلم . لقد قلت اني كنت اعرف هذا التفرد ، والواقع انه كان يظهر كل مرة كانت تتخذ فيها قراراً لم يكن يروق لها او هو ينافي طبعها .

لقد ألقت فجأة ذراعيها حول عنقي ، في اندفاعة مفاجئة من شخصها كله ، وهي تهتف بصوت بدا غريباً في مسمعي :

— لماذا تتكلم هكذا يا ريشار ؟ انني احبك لا اكثر ولا اقل من الماضي !

وشعرت بنَفَسها الحار على رأسي ، ولامست يدها جبيني وصدغي وشعري ، وجذبت رأسي الى صدرها وضمته بذراعيها .

ولكن خطر في ذهني انها كانت تعانقني على هذا النحو لتخفي عني وجهها الذي ربما كان فقط منزعجاً متوتراً كما يحدث حين يُعمل شيء ما بلا ادنى مشاركة روحية ، بل بمحض الارادة . وفيما كنت اضغط رأسي على صدرها نصف العاري الذي كان يعلو ويهبط بأنفاسها الهادئة، لم استطع الامتناع ، وانا في حنيني اليائس الى الحب ، عن التفكير : « ليست هذه الا حركات ... امن الممكن الا تخون نفسها فتعبّر عن نيتها بعبارة او بلهجة ؟ »

وكنت انتظر ، وانتظر ، حين سمعت صوتها يقول في تحفظ :

— ما الذي ستفعله لو كففتُ حقاً عن حبك ؟

لقد كشفت عن نفسها : كنت اذن على حق ، وكنت استطيع ان اتذوق انتصاري المرير . كانت اميلي تريد ان تعرف ما عساه يكون رد فعلي اذا كفت عن حبي ، لكي تعيش الاخطار التي تنتج عن صراحة كاملة . ومن غير ان اتحرك ، تمتمت ورأسي ما يزال في صدرها العذب الدافيء :

— لقد سبق ان اجبتك على هذا السؤال ... سأرفض اولاً عرض باتيستا .

وكنت اود ان اضيف : « وسأنفصل عنك » ، ولكني لم املك الشجاعة لأن اقول ذلك في تلك اللحظة ، وخدي على نهدها ويدها على جبيني . وكنت اؤمل في اعماقي ان تظل متعلقة بي ، واخشى على هذا

الانفصال المقبول نظرياً ، ان يصبح حقيقياً .

وسمعتها تتنهد وهي ما تزال تضمني اليها :

ـ ولكني احبك ، وهذا كله عبث ... اتدري ما الذي ستفعله ؟ حين يتلفن لك باتيستا ستحدد له موعداً،فتوافيه اليه وتقبل هذا العمل...

ـ ولكن لماذا ، ما دمت لا تكنّين لي بعد اي عاطفة ؟

فأجابتني هذه المرة بلهجة تعقل :

ـ احبك ، فلا تجعلني اكرر ذلك ... وانا حريصة على ان ابقى هنا .. اما اذا كان هذا العمل لا يروق لك ، فلن اناقش في الامر .. ولكن اذا كنت تريد ان تتخلى عنه لانك تتصور اني لست متعلقة بلك بعد ولا بمنزلنا ، فاعلم اذن انك على خطأ ...

وداعبني أملٌ غامض في انها لا تكذب عليّ ، وشعرت في الوقت نفسه انها قد اقنعتني ، لهذه اللحظة على الاقل . ولكن كم كنت اود الآن ان اعرف المزيد ، وان اطمئن كل الاطمئنان !

واذ ذاك رأيتها تتكلم ببساطة ، كما لو انها حدست برغبتي ، فتتمتم:

ـ قبّلني : هل تريد ؟

فاستويت وتأملتها لحظة قبل ان اعانقها ، وتوقفت عند تعبير التعب الذي كان يطبع وجهها المتحلل المتردد اكثر من اي وقت مضى ، كما لو انها اذ حدثتني وداعبتني وعانقتني انما بذلت جهداً فوق الجهد البشري. وكانت تتهيأ وهي تضمني لبذل جهد اشد قسوة . وقد اخذتها من ذقنها ، وادنيت شفتيّ من شفتيها حين رن جرس التلفون ، فقالت وهي تتخلص بعزاء واضح :

ـ انه باتيستا .

وركضتْ نحو الغرفة . ومن الديوان الذي ظللت جالساً عليه ، رأيتها عبر الباب المفتوح تتناول السماعة وتقول :

ـ نعم ، انه هنا ، وسأعطيك اياه ... كيف حالك ؟

كلمات اخرى من الجهة المقابلة من الخط . وقالت وهي تومىء لي بيدها ايماءة ذكية :

– كنا بالفعل نتحدث عنك وعن فيلمك الجديد ...

عبارات اخرى مجهولة ... ثم من جديد صوتها الرصين :

– ولكن طبعاً ، سنلتقي كالسابق ، انني اعطيك ريشار .

وذهبت اتناول السماعة . وكما توقعت من قبل ، اخبرني باتيستا انه سينتظرني في اليوم التالي في مكتبه ، بعد الظهر . فأجبته اني سأقصده ، وتبادلت معه بضع كلمات اخرى ثم وضعت السماعة .

واذ ذاك فقط لاحظت ان اميلي ، بينما كنت اتكلم ، كانت قد خرجت من الغرفة . وفكرت تفكيراً طبيعياً بأنها ذهبت لأنها اطمأنت الى اني قبلت موعد باتيستا ، فلم يكن وجودها وملاحظاتها بعد الآن ضرورية !

الفصل الثامن

في اليوم التالي اتجهت الى الموعد المحدد في الساعة المحددة . وكان مكتب باتيستا يشغل كامل الشقة الاولى من بيت قديم ، سبق ان سكنته اسرة ارستقراطية ، وأصبح الآن ، كما يحدث ذلك في ايامنا ، مقرّ عديد من الشركات التجارية . وكان باتيستا قد قسم بحواجز خشبية الصالونات الواسعة ذات السقوف المدهونة ، والجدران المغطاة بالملاط ، وجعل منها عدداً من الغرف الصغيرة المؤثثة بشكل نفعي . وحيث كان مَعلقاً في الماضي لوحات قديمة ذات موضوع ميثولوجي او مقدس ، كانت تُرى اليوم اعلانات دعائية كبيرة ذات ألوان صارخة ؛ وكان مسمراً في كل مكان صور ممثلين وممثلات ، وصفحات من مجلات مصورة ، وشهادات مؤطرة لجوائز مهرجانات وزينات اخرى اصبحت كلاسيكية في مراكز الشركات السينمائية .

وكان يقوم في الغرفة الملحقة ، على أرضية من التصاوير الخضراء الذاهبة اللون ، مقعد معدني كبير مطليّ باللون الاخضر ، وكانت خلفه ثلاث سكرتيرات او اربع يستقبلن الزائرين .

كان باتيستا منتجاً شاباً استطاع خلال هذه السنوات الاخيرة أن يشق طريقه بفضل افلام ذات نوعية مسطحة بما فيه الكفاية ، ولكنها ذات

نجاح تجاري مرموق . وكانت شركته المسماة بتواضع « افلام النصر » تتمتع في ذلك الحين بحظوة ممتازة .

في تلك الساعة ، كانت الغرفة الملحقة غاصّة ؛ وبنظرة واحـــدة صنّفتُ بلا تردد ، بما كنت قد كسبته من خبرة في هـــذه المادة ، الزائرين الى فئات : السيناريين الذين كانوا يُعرفون من مشيتهم المنهمكة المتعبة في وقت واحد ، ومحافظهم التي يشدونها تحت الذراع ، وثيابهم المتكلفة والمهملة في وقت واحد ؛ وامبرازاريو سينمائي قديم ، شبيه بساعي بريد قروي او دلاّل خيل ؛ وفتاتان او ثلاث ، ممثلات ، ربما كنّ جذابات ، ولكنهن فاسدات فساداً مبكراً بتعبير مدروس وماكياج مبالغ به ، وزينة متكلفة ومطامح واضحة ؛ واخيراً بعض الافراد غير القابلين للوصف ، من النوع الذي لا يغيب ابداً في الغرفة الملحقة للمنتجين : ممثلون بلا عمل ، كتّاب مرتجلون ، متسولون من كل نوع . ولقد كان جميع هؤلاء الاشخاص يذرعون الارض الفسيفسائية المسودة ذهاباً واياباً ، او يغوصون في المقاعد المذهبة المصطفة بازاء الجدران ، متثائبين او مدخنين او متحدثين بصوت خافت .

وكانت السكرتيرات ، اذا لم يُجبن على المخابرات التلفونية العديدة ، يبقين جامدات خلف المقعد ، وهن يحدقن في الفراغ بأعينهن التي كان السأم وغياب الافكار يجعلانها زجاجية وشبه حولاء . وكان صوت جرس حادّ ومزعج يُسمع بين الفينة والفينة ؛ فكانت السكرتيرات ينتفضن ، ويقذفن باسم من الاسماء ، فينهض احد الزوار على عجل ويختفي خلف باب ذي مصراعين ابيضين مذهبين .

وأعطيت اسمي وذهبت بدوري اجلس في جوف القاعة . وكنت في حالة نفسية في مثل يأس حالة الامس ، ولكن كنت أحسني اكثر هدوءاً. فبعد محادثتي مباشرة مع اميلي ، كنت قد فكرت طويلاً واقتنعت نهائياً انها قد كذبت عليّ اذ اكدت لي حبها ؛ ولكني كنت في هـــذه

المرة ، بدافع من ذهاب الحماسة ، ومن ارادة قوية في اجبار زوجتي على التفسير الكامل الصريح الذي لم اكن قد حصلت عليه بعد ، كنت قد تخليت ، موقتاً على الاقل ، عن التصرف وفق مخططاتي . إنني إذن لن ارفض اقتراح باتيستا ، بالرغم من اني اعرف ان عملي بعد الآن لم يكن له من هدف بعد ، شأنه في ذلك شأن حياتي كلها . ولن يفوت الاوان فيما بعد ، حين انتزع الحقيقة من اميلي ، على ايقاف عملي والاستغناء عن كل شيء . بل ان هذا الحلّ الاكثر مسرحية ، كان اكثر ملاءمة لي ، على نحو ما : فان الفضيحة والضرر الناتجين اذا وقعا سينمّان عن يأسي ، وفي الوقت نفسه عن ارادتي في وضع حد للترددات والتسويات .

كنت أحسني ، كما قلت ، هادئاً ، ولكن هدوءاً قريباً من الخمود والسكون ؛ إن ألماً غير محدود يخلق الواناً من القلق لأن المرء يؤمل حتى النهاية الا يكون هذا الالم حقيقياً ؛ أما الألم الأكيد فهو يوحي ، فترة من الزمن ، بطمأنينة كئيبة . كنت أحسني هادئاً ، ولكني كنت اعرف ان ذلك لم يكن لمدة طويلة ؛ كانت المرحلة الاولى ، وهي مرحلة الشك ، قد انتهت — او هكذا كنت أظن على الاقل — وستبدأ عما قليل مرحلة الالم والثورة والندم . ولم اكن اجهل ان هدوءاً مميتاً ، أشبه بهذا السكون المزيف الخانق الذي يسبق آخر انفجارات العاصفة ، كان يقوم بين هاتين المرحلتين .

وفيما كنت انتظر ان ادخل على باتيستا ، خطر لبالي اني حتى ذلك الحين كنت قد اكتفيت بالتأكد من وجود حبّ اميلي او عدم وجوده . اما واني كنت احسبني اعرف الآن انها لا تحبني بعد ، فقد كان بامكاني — وقد ادهشني هذا الاكتشاف — ان اعالج مشكلة اخرى ، هي مشكلة سبب لامبالاتها . فاذا ما اكتُشف هذا السبب ، أصبح من الاسهل عليّ ان اجبر زوجتي على توضيح موقفها .

ويجب عليّ ان اقول إن هذه المسألة الجديدة قد أيقظت فيّ عـدم التصديق وبدت لي مستحيلة ، غـير قابلة للوقوع . إن اميلي لا يمكنها ان يكون لديها ايّ سبب للانفصال عني . ومن اين كان يأتيني يقيني بهذا الموضوع ؟ انني لا ادري ؛ ولكني من جهة اخرى ، لم أكن أستطيع ان اشرح لماذا ؛ فبينما كانت في رأيي لا يمكن ان يكون لها اي مبرر لان تكف عن حبي ، فان كونها لا تحبني بعد لم يكن اقل من ذلك يقيناً . وكنت افكر ، وانا تائه بسبب هذا التناقض بين قلبي وفكري ؛ ثم انتهى بي الامر الى القول ، كما يحدث حين يواجه المرء بعض مسائل الهندسة : « لنفكر بدءاً من اللامعقول : ان هناك سبباً ؛ ففي هذا الفرض ، ما عسى ان يكون هذا السبب ؟ »

ولاحظت ان المرء بقدر ما يكون مغموراً بالشك ، يشتد تعلقه بتبصر زائف للفكر ، على امل ان يوضّح بالحجة مـا جعلته العاطفة معتكراً وغامضاً . وفي تلك الساعة التي لم تكن فيها غريزتي تعطيني الا اجوبة متناقضة ، اردت ان الجأ الى تحقيق مبني على الحجج ، منظّم على طريقة التحري في الرواية البوليسية : لقد قُتل شخص ما ، والقضية هي البحث عما سبّب القتل ، ومن هناك ننتقل بسهولة الى القاتل ... وقد كانت الاسباب ، بالنسبة لاميلي ، يمكن ان تكون من نوعين : الاول يتعلق بها ، والثاني بي . ولكن الاسباب الاولى تتلخص في سبب واحد ، كما لاحظت بسرعة : إن اميلي لم تكن تحبني بعد ، لأنها كانت تحبّ شخصاً آخر .

لقد حسبت لاول وهلة أن بامكاني ان أبعد في تصميم ، هذا الفرض . فليس في سلوك اميلي الحديث ما يمكّن من التفكير بوجود رجل آخر في حياتها ؛ بل لقد كنت الاحظ ، على العكس ، انتكاساً في وحدتها وفي تبعيتها لي . كانت تلازم بيتهـا بصورة دائمة تقريباً ، وكانت تقضي وقتها في المطالعة وفي مخابرة امها او في الانصراف الى اعمالها المنزلية ؛

اما بشأن الوان التسلية عندها ، كالسينما والنزهات وتناول العشاء في المطعم فقد كانت مرتبطة بي ارتباطاً وثيقاً . صحيح ان حياتها كانت من قبل اكثر تنوعاً ، وبصورة متواضعة ، اكثر اتصالاً بالناس في العهود الاولى من زواجنا ، حين كانت ما تزال تحتفظ بصداقاتها كفتاة . ولكن هذه الصداقات ما لبثت ان انحلت ، وزاد تعلقها بي ، في تبعية كانت من فرط الوثوق احياناً بحيث غدت تزعجني . ولم تكن هذة التبعية قد خفت مع برود عاطفتها تجاهي . انها لم تسع الى ان تحل محلي ، حتى ولا ان تفعل اي شيء خارجاً عني . كانت تنتظر الآن ، بلا حب ، عودتي من العمل ، كما في الماضي ، وتسلياتها الوحيدة التي كان تحققها معي . وفي هذه التبعية الخالية من الحب ، كانت ثمة ما هو مؤثر وكئيب ، موقف مخلوق يملك نزعة الاخلاص ويبقي مخلصاً بالرغم من ان اسباب اخلاصه قد انتفت . لقد كان بوسعي ان اؤكد في يقين انها لم يكن لها في حياتها إلا اي ، بالرغم من انها لم تعد تحبني .

ومن جهة اخرى ، كنت اعرفها او احسب اني اعرفها معرفة كافية لأعلم انه لم يكن بامكانها ان تكون مغرمة برجل آخر . كنت اعلم انها غير قادرة على الكذب ؛ كانت تملك قبل كل شيء صراحة خشنة لا هوادة فيها يبدو امامها كل زيف مضجراً ومتعباً وصارماً . ثم انها كانت تفتقر كلياً الى الخيال ، الى حد انها لم تكن تستطيع الاهتمام بأي شيء اذا لم يكن محسوساً وحقيقياً مئة بالمئة .

وإذن فقد كنت واثقاً انها اذا احبت شخصاً آخر ، وهي تملك هذا الطبع ، فانها لن تجد افضل من ان تخبرني بذلك على الفور ، وبوحشية قاسية هي خاصية طبقتها كبورجوازية صغيرة . لقد كانت تستطيع بلا ريب ان تكون — وقد كانت بالفعل الآن — كتومة وصامتة فيما يخص تغير عواطفها تجاهي ؛ ولكن كان يكون شاقاً عليها إن لم يكن مستحيلاً ان تعيش حياة مزدوجة فتخفي الخيانة ، اي تخترع تلك المواعيد لدى

الخياطة ، وتلك الزيارات لأهل لها او صديقات ، وتلك الالوان من التأخر بسبب مشهد وقفت عنده او ازدحام الشوارع – تلك الاعذار التي تلجأ اليها النساء عادة في مثل هذه الظروف . لا ، إن برودتها تجاهي لم تكن تعني انها كانت تلتهب بالنسبة لرجل آخر . فلئن كان ثمة من سبب – ولا بد ان يكون هناك سبب – فلا ينبغي التماسه في حياتها ، بل في حياتي .

كنت من شدة استغراقي في افكاري بحيث لم الاحظ على الفور ان احدى السكرتيرات كانت واقفة امامي وهي تردد لي مبتسمة :

– يا سيد مولتيني ، ان السيد باتيستا ينتظرك .

فانتفضت وتركت قضيتي موقتاً معلقة ، ودخلت مسرعاً الى مكتب المنتج .

وفي جوف صالة واسعة ذات سقف مطلي ، وجدران مغطاة بالاوراق المذهبة ، كان باتيستا جالساً خلف مكتب معدني مطلي بالاخضر ، شبيه بالذي يقوم في الغرفة الملحقة . وانا ألاحظ اني بالرغم من حديثي الكثير عن باتيستا ، لم أصفه بعد ، وانه ليس من غير المجدي ان افعل ذلك.

كان باتيستا واحداً من هؤلاء الرجال الذين يعطيه مساعدوه ومرؤوسوه، حين يدير ظهره ، اوصافاً جميلة من مثل « الوحش » ، « القرد الاكبر » « الغوريلا » . ولا استطيع ان انكر حظ الحقيقة الموجود في هذه الاوصاف على الاقل بالنسبة لمظهر باتيستا الجسدي ، ولكني اكره ان انبذ اي انسان بأي لقب ، ولم يسبق لي ان استعملت مثل هذه التسميات ، لا سيما وانهـا كانت مخطئة في كونها لا تحسب حساباً لسمة من شخصية باتيستا شديدة البروز ، اقصد دهاءه ، حتى لا اقول براعته ، الذي يكمن وراء وحشيته الظاهرية . صحيح انه كان وحشاً كبيراً ، ذا حيوية مستمرة متدفقة ، ولكن هذه الحيوية لم تكن تبدو فقط في قابلياته المتعددة.

بل كانت تتبدى في التفنن الدقيق الذكي الذي كان يلجأ اليه لارضاء هذه القابليات .

كان باتيستا ذا قامة ربع ، وكتفين واسعين جداً ، ونصف اعلى طويل ذي ساقين قصيرتين ؛ ومن هنا تشابهه مع قرد كبير ، هذا التشابه الذي استحق عليها تلك الالقاب . وقد كان في وجهه كذلك شيء قردي : فقد كان شعره الذي ينجلي عن صدغيه مزروعاً في منخفض جبينه ؛ وكان ذا حاجبين كثيفين متحركين ، وعينين صغيرتين ، وانف قصير عريض ، وفم واسع متقدم الفكين بعض الشيء ، بلا شفتين تقريباً ، وهو دقيق كأنه الحزّة . ولم يكن لباتيستا بطن ، بل معدة ، اقصد انه كان يحمل الى امام الصدر واعلى الجوف . وكانت يداه القصيرتان الصلبتان يغطيهما شعر اسود كان يمضي الى ابعد من الرسغين ، حتى الى ما تحت أكمامه ؛ وقد سبق لي ان لاحظت ، اذ كنا يوماً معاً على شاطيء البحر ، ان صدره وكتفيه كانت مقنفذة بالشعر الذي كان يتدلى حتى البطن .

وقد كان هذا الرجل ذو المظهر الوحشي يتكلم بصوت رقيق ، مليء بالايماءات ، مصالح بلهجة مائعة ، ذات لكنة ، لأنه كان مولوداً في الارجنتين . وفي ذلك الصوت اللامتوقع الاخاذ ، كنت ارى دليلاً على تلك البراعة والدقة اللتين تحدثت عنهما . ولم يكن باتيستا وحده ، فقد كان جالساً امام المكتب رجلٌ قدّمه لي تحت اسم « رينغولد » .

وكنت اعرف من يكون هذا الشخص ، ولكني كنت اراه للمرة الاولى . كان رينغولد مخرجاً ألمانياً سبق له ، في عهد السينما السابقة للنازية ، أن أخرج عدة افلام من نوع الـ « كولوسال » التي احرزت نجاحاً هائلاً . صحيح ان رينغولد لم يكن من مستوى امثال « بابسيت » او « لانغ » ، ولكنه كان مخرجاً ذا وزن ولم تكن له روح تجارية ، وكانت مطامحه جادة ، بالرغم من انها قابلة للمناقشة . وبعد صعود

هتلر ، سقط هو في النسيان . وقد رُوي انه كان يعمل في هوليود ، ولكن لم يُعرض ايّ فيلم من اخراجه خلال السنوات الاخيرة في ايطاليا. وها هو يعود الى الظهور بصورة غريبة في مكتب باتيستا .

وفيما كان باتيستا يتحدث، كنت انظر الى رينغولد في فضول . هل سبق لك ان رأيت على احدى القواعد القديمة صورة غوته ؟ كان وجه رينغولد النبيل ، الاولمبي ، يذكّر بتلك الصورة ، وبذلك الرأس ذي العينين الفضيتين اللامعتين . كان حقاً رأس رجل عظيم ؛ على ان امتحاناً ادق جعلني ألاحظ ان هذه الجلالة وذلك النبل لم يكونا ثابتين ؛ كانت الملامح خشنة بعض الشيء وفيها شيء ليفيّ وخفيف ، كما في الاقنعة المصنوعة من الورق المقوى المعجن ؛ وكان ذلك الوجـــه يوحي اجمالاً بأنه لم يكن ثمة خلفه شيء ، كما في تلك السحن الكئيبة الـــتي تحملها تلك الرؤوس الضخمة التي يتقنّع بها البلهاء في الكرنفالات .

ونهض رينغولد ليصافحني وهـــو يحني رأسه ويصفق عقبيه بدقة ، فلاحظت اذ ذاك انه كان قصيراً ، ذا كتفين عريضتين تؤكدان جلالة الوجه . ولاحظت كذلك انه كان وهو يصافحني يبتسم بود كبير ، ابتسامة نصف قمرية ، كاشفاً لي عن صفين من الاسنان البيضاء الشديدة الانتظام ، جعلاني افكر ، لا ادري لماذا ، بطقم اسنان مستعار. ولكنه اذ جلس ، اختفت هذه البسمة دفعة واحدة من غير ان تخلف اثراً ، كما ينطفيء القمر حين تلمّ به غيمة ، تاركة المجال لتعبير قاسٍ مستاء ومتسلط في الوقت نفسه .

وتناول باتيستا الامور من بعيد ، على عادته . فقال لي وهو يشير الى رينغولد :

— كنا نتحدث عن كابري ... هل تعرف كابري ، يا مولتيني ؟

فأجبت : — قليلاً .

فتابع باتيستا :

– انني املك فيها مقصورة ، وكنت بالفعل امتــدح لرينغولد سحر كابري .. فحتّى رجل اعمال مثلي يشعر فيها شعوراً خفيفاً انه يصبح شاعراً !

وكانت تلك صفة من صفات باتيستا تظهر غالباً : تلك الطريقة في ان يبعث اعجابه بالاشياء الجميلة الطيبة ، وبكل مـــا ينتمي الى حقل المثالي ؛ وكان اكثر ما يحير ان هذه الحماسة كانت صادقة بالرغم من ارتباطها على نحو او آخر بمقاصد قليلة التجرد . واستطرد بعد لحظات ، كما لو انه قد انفعل بكلماته بالذات :

– طبيعة معطاء .. سماء رائعة .. بحر دائم الزرقة ، وزهور وزهور في كل مكان .. أعتقد اني لو كنت كاتباً ، مثلك يا مولتيني ، فاني احب ان اعيش في كابري لاستلهمها .. ولا ادري لمـــاذا لا يرسم الرسامون تلك المناظر ، بل يعطوننا على العكس لوحات بشعة لا يفهم منها المرء شيئاً .. ان اللوحات في كابري ناجزة اذا صحّ التعــبير .. ويكفي ان يقف المرء امام الطبيعة وان ينقلها .

ولم أقل شيئاً ؛ وكنت انظر الى رينغولد بطرف عــيني ، فرأيته يوميء برأسه موافقاً ، ببسمة معلقة في وسط وجهــه كهلال في سماء لا غيم فيها . ولكن باتيستا كان يتابع :

– ان في نيّتي ان اسافر لاقضي فيها بضعة شهور ، بعيــداً عن الاعمال ، وللراحة وحدها ، ولكني لا انجح في ذلك .. ان لنا نحن سكان المدن حياة ضد الطبيعة .. ان الانسان لم يُصنع ليعيش في مكتب ، بين الاضبارات .. ان اهالي كابري يبــدون أسعد منا .. ويكفي ان تراهم مساء حين يخرجون للنزهة : شبان وفتيات ضاحكون ، هادئون ، فرحون ، على غاية اللطف .. ذلك ان لهم حياة تخلو مـــن الأحداث الكبيرة ، ولهم مطامع متواضعة ، ومصالح صغيرة ، ومصاعب صغيرة .. آه ! كم انهم محظوظون !

وساد صمت من جديد . ثم استطرد باتيستا :

– ان لي هناك مقصورة ، كما ذكرت لك ... ولكني مع الاسف لا أسكنها قط .. ولعلني لم امكث فيها شهرين منذ ان اشتريتها .. وكنت اقول لرينغولد ان هذه المقصورة ستكون المكان المرتجى لتأليف سناريو الفيلم .. ان المناظر الطبيعية ستلهمكما ، لا سيما وانها من لون الفيلم نفسه ، كما أوضحت لرينغولد .

وتدخل رينغولد ليقول :

– ان بامكان المرء ، يا سيد باتيستا ، ان يعمل في اي مكان .. واختيار كابري يمكن بالتأكيد ان يكون مناسباً ، لا سيما اذا التقطنا المناظر الخارجية في خليج نابولي ، كما اعتقد .

– تماماً ... على ان رينغولد يقول لي انه يفضل الاقامة في الفندق بسبب عاداته ، وهو يحب من جهة اخرى ان يكون وحيداً في بعض الساعات ليفكر بهدوء في عمله .. وبالمقابل ، اعتقد ان بامكانك انت ، يا مولتيني ، ان تسكن المقصورة مع زوجتك .. ان فيها كل وسائل الراحة ، ولن يكون من الصعب وجود امرأة لتقوم باعمال البيت .

وكالعادة ، فكرت اولا باميلي : ان قضاء فترة من الزمن في كابري ، في مقصورة جميلة ، يمكن ان يحل اموراً كثيرة . وتيقنت فجأة ، بلا سبب ، ان كل شيء هناك سيتضح . وكان ان شكرت باتيستا بحرارة صادقة :

– شكراً ... اعتقد انا ايضاً ان كابري مناسبة لكتابة سناريو .. وسنكون انا وزوجتي سعيدين بالاقامة في مقصورتك .

– حسناً .. اتفقنا اذن !

قالها باتيستا مع حركة من اليد جرحتني في غموض ، كما لو انه كان يود ايقاف سيل من الشكر لم يكن في نيتي قط ان اعبر له عنه . واضاف :

ـــ اتفقنا .. ستذهبــون الى كابري ، وسألحق بكم .. والآن ، لنتحدث قليلاً عن الفيلم ...

وفكرت : « لقد آن الاوان ! » وترصدت باتيستا في تنبّه . وكنت أحس الآن ندماً غامضاً اني قبلت دعوته بهذه السرعة . كنت احدس ، من غير ان ادري السبب ، بان اميلي ستنكر عــليّ عجلتي . وفكرت وانا مغيظ بعض الشيء : « كان ينبغي ان اقول اني سأفكر بالأمر ، وان عليّ ان استشير زوجتي ... » وكانت الحــرارة التي تقبلت بها ذلك العرض تبدو لي في غـير محلها ، وكنت استشعر مـن ذلك بعض الخجل . على ان باتيستا كان يضيف :

ـــ اننا جميعاً متفقون على اننا يجب ان نجد شيئاً جديداً ، لقد انتهت فترة ما بعد الحرب ، واصبحت الحاجة ماسة الى صيغة جديدة ... لقد اضجرت الواقعية الجديدة ، على سبيل المثال ، معظم الناس .. والحال اننا اذا حللنا الدوافع التي أدت الى هذه التخمة ، فاننا لا شك بالغون استنتاج هذه الصيغة الجديدة ...

وكما سبق ان قلت ، كنت أعرف ان باتيستا كان يفضل ألاّ يطرق اية حجة بطريقة مباشرة . انه لم يكن وقحاً ، او هو عــلى الاقل لم يكن يريد ان يبدو كذلك . واذن ، فقد كان مــن الصعب عليه ان يقدم المسألة المادية ، كما يفعل كثير من المنتجين الاكثر صراحة منه : فان الاستفادة التي لم تكن اقل اهمية بالنسبة اليه مما هي بالنسبة للاخرين ، بل ربما كان العكس هو الصحيح ، كانت تظل دائماً في ظل خفي . فحين كان موضوع فيلم من الافلام لا يبدو له مربحاً بما فيه الكفاية ، لم يكن يقول قط : « ان هذا السناريو لن يعود علينا باي فلس ! » وانما كان يقول : « ان هذا السناريو لا يروق لي لهــذا السبب او ذاك » ـــ وكانت هذه الاسباب دائماً فنية او خلقية . عـلى ان قضية الربح كانت تظل حجر الزاوية ، وكان دليل ذلك يقــوم حين يقع

اختيار باتيستا دائماً على اكثر الحلول نزعة تجارية ، بعد مناقشات عديدة حول الخير والشر في الفن السينمائي ، عندما يتبدد ما كنت اسميه « ستار الدخان » لديه . ومن اجل هذا ، كنت قد فقدت منذ زمن طويل كل اهتمام بآرائه التي لا تنتهي عن الجمال او القبح ، وعـــن الاخلاقية او اللاأخلاقية في الافلام ، وكنت انتظره عند النقطة التي كان ينتهي اليها بصورة حتمية : قضية الأرباح . وفي هذه المرة ، فكرت أيضاً : « انه بالطبع لن يقول ان الفيلم الواقعي الجديد قد أضجر المتنجين لانه غير مربح .. فلنر قليلاً ما سوف يجدّ .. »

وبالفعل ، فان باتيستا استطرد حديثه بعد لحظة تأمل ، فقال :

— ارى ان الجميع ان كانوا قد ضجروا من الفيلم الواقعي الجديد ، فلأنه غير صحي ..

وتوقف لحظة ، فارسلت نظرة مواربة لرينغولد الذي لم يأت بحركة . وانتقل باتيستا ، الذي كان يريد بصمته ان يؤكد على كلمة « صحي » ، الى شرح فكرته ، فقال :

— حين اقول غير صحي ، أعني ان هذا النوع من الافلام لا يشجع على الحياة .. لا يمنح الثقة بالحياة .. انه موئس ، متشائم ، اسود .. فبصرف النظر عن انه يمثل ايطاليا على انها بلد الفقراء ذوي الاسمال — وهذا ما يسرّ الاجانب الذين يهمهم ان يحكموا علينا كأمة للشحاذين — فان الفيلم الواقعي يلحّ اكثر مما ينبغي على نواحي الحياة السلبية ، على كل ما هناك من قبح وانحطاط وشذوذ في الحياة البشرية . وأكرر انه فيلم متشائم غير صحي ، يذكّر الناس بمصاعبهم بدلاً من مساعدتهم على التغلب عليها .

كنت أنظر الى باتيستا وأنا اتساءل مرة اخرى ان كـان يفكر حقاً بما كان يقول . لقد كان في كلامه اخلاص لا يمكن الشك فيه ، بالرغم من انه ربما كان اخلاص انسان مقتنع بالاشياء التي تفيده ؛ وقد تابع

بهذا الصوت ذي الجرس اللاانساني الفريد ، المعدني حتى في عذوبته :

— لقد عرض عليّ رينغولد اقتراحاً بدا لي هاماً ... لقد لاحظ ان الافلام المستمدة من التوراة تحظى منذ حين بنجاح كبير .. وهي التي حققت بالفعل اكبر الارباح (قال هذه العبارة بصوت منخفض ، كما لو انه كان يفتح هلالين بلا أهمية) ولماذا ؟ لأن التوراة في رأيي هي اكثر الكتب صحة .. لقد قال لي رينغولد : « ان الانغلوساكسون تملكون التوراة ؛ وانتم سكان البحر الابيض المتوسط ، تملكون هوميروس ، أليس كذلك ؟

وهنا التفت الى رينغولد ، كما لو انه كان غير واثق من استشهاده .

ولكن رينغولد قال مؤكداً وقد انعكس على وجهه تململ خفيف :

— تماماً ...

واستطرد باتيستا وهو ما يزال يستشهد برينغولد :

— ان هوميروس بالنسبة اليكم ، انتم سكان حوض المتوسط ، كالتوراة بالنسبة للانغلوساكسون ... فلماذا لا نخرج فيلماً عن « الاوديسة » مثلاً ؟

صمت . وكنت مندهشاً ، وكنت اعتقد اني اكسب وقتاً فسألت في جهد :

— الاوديسة كلها ، ام فصل من الاوديسة ؟

وسرعان ما اجاب باتيستا :

— لقد ناقشنا القضية ، وانتهينا الى ان من الافضل ان نأخذ بعين الاعتبار مجموع الاوديسة بالذات .. ولكن ليس لذلك الا أهمية بسيطة .. ان ما يهم (ورفع صوته) اني ادركت اخيراً وانا اعيد قراءة هوميروس ما كنت ابحث عنه منذ وقت طويل من غير ان اشعر بذلك ، وما كنت واثقاً من اني لن اعثر عليه فى افلام الواقعية الجديدة ... شيء لم اجده مثلاً في الموضوعات التي طرحتها عليّ يا مولتيني ... ذلك الشيء

الذي كنت أشعر به من غير ان افهمه ، والذي هو ضروري للسينما ضرورته للحياة : الشعر !

ونظرت من جديد الى رينغولد ؛ كانت بسمته قد عرُضت ، وكان يوافق برأسه . وقلت كيفما تأتّى لي ، وبلهجة اقرب الى الجفاف :

— في الاوديسة .. كلنا يعلم ان في كل صفحة شعراً .. والمهم هو نقل هذا الشعر الى الفيلم !

فقال باتيستا وهو يتناول مسطرة من على الطاولة ويوجّه طرفها نحوي :

— صحيح جداً .. صحيح جداً .. ولكنكما ستكونان اثنين من اجل هذا : انت ورينغولد .. انني اعرف ان الشعر موجود هناك .. فعليكما انتما ان تستخرجاه !

وأجبت :

— ان الاوديسة عالم برمّته .. وبامكاننا ان نستخرج منه ما نشاء .. ويكفى ان يعرف المرء من اية وجهة نظر ينطلق ..

فبدا على باتيستا انه منزعج من قلة حماسي ، وتأملني في تنبه ثقيل ، كما ليحزر النوايا التي كانت تختفي وراء برودتي . وبدا اخيراً انه يؤجل امتحانه الى موعد آخر ، فنهض واستدار خلف المكتب ، واخذ يذرع القاعة جيئة وذهاباً ، عالي الرأس ، ويداه في جيبي بنطاله . والتفتنا ننظر اليه ، فاذا به يقول ، وهو ما فتيء يمشي :

— ان ما استوقفني خاصة في الاوديسة هو ان شعر هوميروس هو دائماً مسرحي ، وحين اقول مسرحي اعني ما يروق الجمهور حتماً .. لنأخذ مثلا فصل « نوزيكا » : اننا نرى فيه جميع هاتيك الفتيات الجميلات العاريات اللواتي يسبحن في الماء تحت انظار يوليوس المختبيء خلف احد الادغال .. ان هذا ، مع فارق بسيط ، هو مشهد من « حسناوات الحمّام » .. ولنأخذ الآن « بوليفام » ، المسخ ذا العين

الوحيدة ، العملاق .. انه « كنغ – كونغ » ، احد انجح افلام فترة ما قبل الحرب .. و « سيرسة » في قصره ، انما هو « انتينايا » في « الاتلنتيد » .. هذا ما ادعوه بالمسرحي ... وهـــذا المشهد ايضاً هو شعري ..

ونوقف باتيستا امامنا ، وهو مهتاج جداً ، واضاف في جلال :

– على هذا النحو ارى « اوديسة » افلام « تريومف » !

ولزمت الصمت ، وكنت ادرك ان الشعر في نظر باتيستا كان يعني شيئاً مختلفاً تماماً عما كان يعنيه في نظري ؛ فأوديسة افلام « تريومف » في مفهومه ، ستنقل نقلاً دقيقاً عن افلام هوليوود التوراتية ذات المشاهد الفخمة ، مع الشياطين والمسوخ والنساء العاريات ومشاهد الاغراء والغرام والحذلقات . لقد كانت نزعة باتيستا في حقيقتها أشبه بنزعة المخرجين الايطاليين الذين ينتمون الى عهـــد انونزيو ؛ وكيف كان يمكن ان يكون الامر غير ذلك ؟

وكان باتيستا في هذه الاثناء قد استدار حول المكتب ، وعاد يجلس وهو يهتف بي :

– واذن ، فما قولك في هذا ، يا مولتيني ؟

ان كل من يعرف عالم السينما يعرف ان بعض الافلام مضمون لها ان ترى النور ، حتى قبل ان تُكتب اول كلمة في السناريـــو ؛ اما بعض الافلام الاخرى ، فبالامكان المراهنة على انها لن تُنجز ، حتى ولو وقّع عقد بشأنها ، وحُررت عدة مئات من صفحات مخطوطاتها . والحال اني بحاسة شمّي كسيناري محترف ، كنت احدس سريعاً ، عبر كلمات باتيستا ، ان هذه الاوذية ستكون واحداً من الافلام التي يتحدث عنها الناس كثيراً ، ولكنها في نهاية المطاف لن تخرج الى النور . لماذا ؟ انني لم اكن استطيع الاجابة على ذلك .. ربما بسبب الطموح المتجاوز حده في هذا العمل ، او ربمـــا بسبب المظهر الجسدي لرينغولد الذي

يبدو جليلا جداً حين يجلس ، وصغيراً جداً حين يقف . كنت اشعر بان هذا الفيلم ، على غرار رينغولد ، سيكون ذا بداية فخمة ونهاية غير ذات قيمة .. ولكن لماذا كان باتيستا يحرص على ان ينتج فيلماً كهذا ؟

لقد كنت اعرفه حذراً جداً ، في حقيقته ، وعازماً على ان يربح من غير مجازفات . صحيح انه كان يغذي املا خفياً في ان يجد تمويلا كثيفاً ، ربما كان امير كياً ، وهـو يستغل اسم هوميروس ، توراة شعوب البحر الابيض المتوسط ، كما كان يقـول رينغولد . ولكني لم اكن أجهل ، مـن جهة اخرى ، ان باتيستا ، شأنه في ذلك شأن المنتجين الآخرين ، سيجد في حال عدم انتاج الفيلم ، حجة صالحة لعدم التعويض عليّ مقابل عملي . ان هذا ما يحدث دائماً : فاذا اخفق الفيلم في اثناء الطريق ، قُذف بالتعويضات الى البحر ، واقترح المنتج ان يحسب تعويض السناريو الناجز على سناريو آخر يأتي فيما بعد ، فلا يجرؤ السيناري المسكين ان يرفض ، مجبراً على ذلك بالحاجة . واذن ، فقد قلت لنفسي انه كان عليّ ، في مطلق الاحوال ، ان اغطي نفسي بان اطلب عقداً ، وخصوصاً سلفة ؛ ولم يكن ثمة لبلوغ غرضي الا وسيلة : ان اخلق المصاعب ، وان اومىء الى ان مساعدتي لم تكن اقل من مضمونة . وقد اجبت بلهجة جافة :

— رأيي أنها فكرة جميلة !

— ولكن لم يكن يبدو عليك انك متحمس جداً ..

فأجبت بما فيه الكفاية من الاخلاص :

— اخشى الا يكون هذا هو النوع الذي يلائمني .. ان يكون هذا السناريو خارج طاقتي ..

فقال باتيستا :

— ولماذا ؟ لقد سبق ان قلت لي مراراً انك كنت راغباً في المشاركة

بفيلم ضخم .. وها انت الآن تنسحب اذ أتيح لك امكانية ذلك !
وحاولت ان افسر موقفي :
- احسّني يا باتيستا مخلوقاً خصوصاً للافلام البسيكولوجية ، اما هذا الذي تتحدث عنه ، فسيكون مسرحياً صرفاً ، اذا فهمت الامر جيداً .. من نوع الافلام الاميركية المستمدة من موضوعات توراتية ...
ولم يتح لباتيستا هذه المرة ان يجيب ، اذ تدخل رينغولد على غير انتظار ، فقال لي وهو يرسم على وجهه بسمته العادية الشبيهة بالهلال ، كما يُلصق ممثلٌ شارباً مستعاراً تحت أنفه ، منحنياً فوقي بتعبير اجلال يكاد يكون تملقاً :
- اسمع يـا سيد مولتيني ، لقد عبّر السيد باتيستا خير تعبير عن آرائه ، ورسم لوحة كاملة للفيلم الذي اود ان اخرجه بمعونته ... على انه قد تكلم بصفته منتجاً ، وهو يأخذ بعين الاعتبار خصوصاً الجانب المسرحي ... ولكن اذا كنت تحسّ نفسك مخلوقاً للموضوعات البسيكولوجية فلا تتردد في وضع هذا السناريو ، لان هذا الفيلم ، لو تعلم ، ليس شيئاً آخر غير تنمية العلاقات البسيكولوجية بين يوليسوس وبينيلوب ... والفكرة التي اريد تصويرها هي فكرة رجل يحب امرأته وهي لا تحبه ..
وظللت مشدوهاً ، لا سيما وان مظهر رينغولد الـذي كانت تضيئه بسمته المتكلفة كان يبدو وكأنه يمنع عليّ ايّ فرار : كان عليّ ان اجيب على الفور . وفي اللحظة نفسها التي كنت اهم بأن احتج بقولي : « ولكن من غير الصحيح ان بينيلوب لا تحب يوليسوس » - ذكّرتني عبارة المخرج فجأة قضية علاقاتي مع اميلي ، وقـد كانت في الواقع علاقات رجل يحب زوجته وهي لا تحبه ، وفي الوقت نفسه ، بسبب من تداعي الافكار ، صعدت من اعماق ذاكرتي ذكرى اشبه بجواب مفاجيء على السؤال الذي كنت اطرحه على نفسي خلال انتظاري في المدخل : لماذا كانت اميلي قد كفّت عن حبي ؟

ان ما سأرويه الآن ربما بدا طويلاً ، ولكن الواقع ان هذا الامر قد مرّ في ذهني بسرعة البرق .

اذن ، فيما كان رينغولد يميل عليّ بوجهه الباسم ، تمثّلتُي فجأة في صالون مؤجّرنا ، وانا املي بضع صفحات من سناريو . وكان هــذا العمل الذي يستمرّ منذ بضعة ايام على وشك ان ينتهي ، وكنت ما ازال غير قادر على ان اقول ان كانت الضاربة على الآلة الكاتبة التي كانت تعمل لحسابي جميلة عــلى النظر ام لا ، وآنذاك حدث حادث صغير فتح عيني ، اذا صحّ التعبير . فقد كانت تضرب على الآلة جملة لا اذكرها ، فلاحظت وانا انظر ما كانت تضربه من فوق كتفها انهــا ارتكبت غلطة . وسرعان ما اردت ان اصححها ، فانحنيت اشير باصبعي الى الغلطة ، وحدث ان لامست على غير ارادة مني يد المرأة الشابة ، وهي يد كبيرة قوية كانت تتناقض تناقضاً غريباً مع ضآلة جسمها . ولاحظت انها لم تسحب يدها ، وضربت كلمة اخرى ، ولمست اصابعها وانا غير بعيد عن تقصّد ذلك . واذ ذاك توجهت عيناي اليها ، فرأيت انهــا كانت تنظر اليّ بدورها في تعبير من الانتظار ، ومن الدعوة تقريباً . وفوجئت كما لو انني كنت اراهــا للمرة الاولى ، فلاحظت انها كانت امرأة جميلة تقريباً ، ذات فم ريــان ، وانف خبيث ، وعينين كبيرتين سوداوين وشعر غزير أجعد يكشف عن جبينها . ولكن تعبير هذا الوجه الممتقع الدقيق كان تعبير كزازة واحتقار . وتفصيل أخير : حين قالت :

ـــ المعذرة ، لقد شردت قليلاً ...

لاحظت نبرة صوتها الجافة المستاءة بوضوح .

لقد نظرت اليها اذن ، فرأيت انها كانت تصمد لنظرتي بطريقة شبه استعدائية . ولا شك في اني اظهرت بعض الاضطراب،وظنت هي اني كنت اردّ عليها بصمت ، لاننا منذ ذلك اليوم ، وخلال بضعة ايام ،

قضينا وقتنا ونحن نتبادل النظر . او على الأصح كانت هي التي تحدّق فيّ طويلاً ، كلما استطاعت ذلك ، في وقاحــة مقصودة ، باحثة عن نظري حين كان يهرب منها ، جاهدة في الاحتفاظ بعينيّ حين كانتا تلتقيان عينيها وفي ترصدهما حين كانتا تستقران عليها . وقد كان تبادل هذه النظرات نادراً في اول الامر ، ثم ازداد تدريجياً . واخيراً ، قررت بعد عجزي عن تفادي نظراتها ان املي عليها من وراء ظهرها . ولكن الخبيثة وجدت وسيلة للتغلب عــلى هذه الصعوبة بالنظر اليّ عبر مرآة كبيرة معلقة على الجدار تجاهها ، بحيث اني كلما رفعت بصري رأيت عينيها في المرآة .

وتمّ اخيراً مــا كانت ترغب في ان يتمّ : فبينما كنت ذات يوم أنحني فوقها لأصحح غلطة ، التقت نظراتنا وتوحّد فانا لحظةً في قبلة سريعة . وكانت كلماتها الاولى ، بعد ان انفصلت شفاهنا ، ذات دلالة :

ــ واخيراً ! لقد بدأت اعتقد حقاً انك لن تقرر ابداً !

وكانت تبدو واثقة من انها استولت عليّ ، واثقة جداً حتى انها بعد ان اخذت القبلة ، ومن غير ان تطلب قبلة اخرى ، عادت الى العمل.

اما انا ، فكنت مضطرباً ، ممتلئاً بالندم . صحيح ان الفتاة كانت تروق لي ، والا لما قبلتها ، ولكني كنت واثقاً من اني لا احبها ، وانها في الحقيقة قد انتزعت هذه القبلة من غروري الرجالي بإلحاح اثار تملقي .

واخذت تضرب على الآلة بعد ذلك من غير ان تنظر اليّ ، خافضة العينين ، اشد فتنة من اي وقت مضى ، بوجهها المستدير الممتقع وشعرها الكثيف المعتم . ثم ارتكبت ، عن قصد بــلا شك ، غلطة اخرى ، وكنت أتهيأ غريزياً لتصحيحها . وكانت هي تراقب حركاتي ، وما كاد رأسي يقترب من رأسها ، حتى التفتت فطوقت عنقي بذراعها وامسكت

بأذني ، فجذبت فمي الى فمهـــا . وفي تلك اللحظة ، فُتح الباب ، ودخلت اميلي .

واعتقد ان عرض ما تلا ذلك بالتفصيل غير مفيد . لقد اختفت اميلي على التوّ ، وبعد ان اعلنت للمرأة الشابة في سرعة :

ــ لقد انتهى العمل اليوم ، يا آنسة ... فتستطعين ان تنصرفي ...

خرجت وانا اكاد اعدو ، ولحقت بزوجتي الى الغرفة ،وكنت اتوقع انفجار حادث من حوادث الغيرة ، ولكن اميلي اكتفت بأن تقول لي اذ رأتني داخلاً :

ــ كان بوسعك على الأقل ان تمسح الاحمر عن شفتيك ..

فسحت فمي ، وذهبت اجلس الى قربها ، واردت ان ابرر موقفي بأن اروي لها الحقيقة كاملة . وقد اصغت اليّ بهيئة من الحذر المرتاب لا يمكن وصفها ، ولكنها في واقعها رحيمة ، وصرحت لي اخيراً اني اذا كنت احب هذه السكرتيرة حقاً،فليس لي الا ان اقول ذلك ، لانها كانت مستعدة لقبول الانفصال . ولكنها كانت تتكلم بلا مرارة ، وبنوع من العذوبة الكئيبة ، كما لو انها كانت تدعوني في صمت الى ان انكر اقوالها . واخيراً ، وبعد تفسيرات طويلة واضطراب شديد (لاني كنت مذعوراً لدى التفكير بأن اميلي يمكن ان تتركني) بدت مقتنعة ، وقبلت ، مع الوان كثيرة من المقاومة والرفض ، ان تصفح عني .

وفي اليوم نفسه ، بعد الظهر ، تلفنت للسكرتيرة بحضور اميلي لاخبرها اني لم أعد بحاجة الى خدماتها . وحاولت ان تنتزع مني موعداً خارج بيتي ، ولكن جوابي كان هروبياً ، ومنذ ذلك الحين لم أرها بعدُ قط.

ربما بدت هذه القصة ، كما ذكرت ، طويلة . ولكن هذه الذكرى انما مُثلت لذاكرتي في الواقع بشكل صورة سريعة هي : صورة اميلي تفتح الباب في اللحظة التي كنت اقبّل فيها الضاربة على الآلة الكاتبة . كيف تراني لم افكر بذلك من قبل ؟ وقلت في نفسي : لا شك في ان

الامور قد حدثت على النحو التالي: ان اميلي لم يبد عليها انها قد علّقت ، على الفور ، اهمية كبيرة على ذلك الحادث ، ولكن ربما ظلت في اعماق نفسها متأثرة بالغ التأثر به . وقد فكرت فيه ، بعد ذلك ، ولفرط عودتها الى تلك الذكرى التي كانت تزداد قسوة وثقلاً ، ذهب الوهم عنها تدريجياً وتفاقم غيظها . وهكذا ، فان تلك القبلة التي لم تكن بالنسبة لي الا ضعفاً عابراً ، كانت قد احدثت في نفسها جرحاً عمّقه الزمن بدلاً من ان يلأمه .

كان لا بد لي ، وانا مستغرق في هذه الافكار ، من ان ابدو غائباً ، ذلك انني سمعت فجأة ، عبر الغيمة الكثيفة التي كانت تسربل فكري ، صوت رينغولد يسألني بلهجة لا تخلو من قلق :

— ولكن ، هل تسمعني ، يا سيد مولتيني ؟

فبدّدت الغيوم دفعة واحدة ، وعدت الى وعيي ، ورأيت وجه المخرج ممدوداً نحوي بلطف ، فقلت :

— اعذراني ... لقد شردت قليلاً... كنت افكر بما قلته يا رينغولد.. رجل يحب زوجته التي لا تحبّه .. ولكن .. ولكن ...

ولم ادر ما ينبغي ان اقول ، فتمتمت بالاعتراض الذي خطر لذهني تلقائياً :

— عجباً ، ان بينيلوب ، في الملحمة ،تحبّ يوليسوس .. والاوديسة كلها ، بمعنى من المعاني ، تدور حول حب بينيلوب هذا ليوليسوس . فأبعد رينغولد اعتراضي ببسمة، وقال :

— ليس هو الحب ، يا سيد مولتيني ، بل الامانة ... ان بينيلوب امينة ليوليسوس، ولكننا لا نعرف الى اي حد تحبه .. وانت تعرف ان بالامكان ان يكون المرء اميناً كل الامانة من غير ان يحب .. بل ان الامانة ، في بعض الاحوال ، نوع من الثأر ، والشانتاج ، والانتقام

للعزة والغرور .. اقول انها امانة ، وليس حباً ...

وزادت كلمات رينغولد هذه قلقي ، وردّتني من جديد الى اميلي . وتساءلت أتراني لا افضّل على الامانة واللامبالاة الخيانة وما يتبعها من ندم ؟ اجل ، لو ان اميلي تخونني وتشعر بندمها ، فانها تتيح لي ان انظر اليها في امان . والحال اني اثبتّ لنفسي انني انا الذي خنتها ، لا هي .

وغبت مرة اخرى ، وانا تائه في افكاري،وأعادني الى الوعي صوت باتيستا الذي كان يقول :

– حسناً ! لقد اتفقنا يا مولتيني ، انك ستعمل مع رينغولد ؟

فأجبت في مشقة :

– اتفقنا .

– حسناً جداً . هذا اذن ما سوف نفعله : ان على رينغولد ان يسافر الى باريس صباح الغد ويبقى فيها اسبوعاً . وفي هذه الاثناء ، ستقدم لي يا مولتيني ملخصاً للاوديسة ... وما ان يعود مولتيني ، حتى تسافر معاً الى كابري ، وتشرعان فوراً في العمل .

وبعد بضع كلمات لخصت محادثتنا ، نهض رينغولد ، فنهضت آلياً كذلك . وكنت اشعر انها كانت اللحظة المناسبة للتحدث عن عقدي وعن السلفة التي كنت اطلبها ، فاذا لم انتهز هذه الفرصة ، فان باتيستا سيخدعني ، ولكن فكرة اميلي كانت تبلبلني ، واكثر منها التشابه الغريب بين التفسير الهوميروسي لرينغولد وبين حالتي الشخصية . على اني تمكنت من ان اتمّم فيما كنا متجهين الى الباب :

– والعقد ؟

فقال باتيستا ، مخالفاً توقعاتي ، بلهجة يخالطها روح الكرم :

– وسلفتك تنتظرك ايضاً ، يا مولتيني ... وليس لك الا ان تمر

بالسكرتارية لتوقع العقد وتسحب السلفة .

وتركتني المفاجأة مذهولاً ، فبالنظر لما حدث بالنسبة لسناريوهاتي السابقة ، كنت اتوقع مساومات دقيقة من باتيستا غايتها تخفيض تعويضاتي وتأجيل دفعها ، وها هو ذا يدفع لي في التوّ ، وبلا مناقشة . وفيما كنا ندخل القاعة المجاورة التي كانت تقوم فيها المكاتب الادارية ، لم استطع الامتناع عن ان أتمتم :

ـ شكراً ، يا باتيستا ، لقد كنت بحاجة الى المال ، كما تعلم ...

وعضضت على شفتيّ ، فقد كان من الخطأ اولاً اني كنت بحاجة الى المال ، بصورة مستعجلة على الاقل ، كما اومأت ، واحسست بغموض انه لم يكن ينبغي لي ان اتكلم على هذا النحو . واتى باتيستا يعزز ندمي اذ قال وهو يربت على كتفي بحركة ابوية حامية :

ـ لقد حزرت ذلك ، يا بنيّ ، حزرته واستجبت له .

ثم توجه الى سكرتير جالس امام مكتب :

ـ هذا هو السيد مولتيني ، من اجل العقد والسلفة على تعويضه .

وكان السكرتير قد نهض ففتح ملفاً سحب منه عقداً جاهزاً كان مربوطاً به شك . وبعد ان صافح باتيستا يد رينغولد ، وارسل الى ظهري تربيتة جديدة وهو يتمنى لنا عملاً طيباً ، عاد الى مكتبه .

واقترب رينغولد باسطاً يده ، فقال لي :

ـ سنلتقي اذن يا سيد مولتيني لدى عودتي من باريس ... وفي هذه الاثناء ستقوم بتلخيص للاوديسة تقدمه للسيد باتيستا وتناقشه معه .

فقلت وقد ساورتني بعض الدهشة اذ ظننت اني لاحظت انه يغمز لي بعينه غمزة من فهم :

ـ اتفقنا .

ولاحظ رينغولد نظرتي فأخذني فجأة من ذراعي ، ثم ادنى فمه

من اذني وقال لي هامساً :

– اطمئن بالاً ، ولا تأخذك الهموم ... ودع باتيستا يتكلم ... اننا سنعمل فيلماً بسيكولوجياً ، وبسيكولوجياً فقط !

وبسم لي ، وشد على يدي ، ثم أمال رأسه وصفق عقبيه وخرج . ورأيته يبتعد ، وارتعشت لصوت السكرتير الذي كان يقول لي :

– ايها السيد مولتيني ، هل تتفضل فتوقع هنا ...؟

الفصل التاسع

لم تكن الساعة تتجاوز السابعة ، وحين عدت الى منزلي ناديت اميلي بلا جدوى ، وانا اعبر غرف الشقة الخالية . كانت قد خرجت ، ولن تعود قبل ساعة العشاء . واحسستني خائباً خيبة شبه مريرة . وكنت آمل ان اجدها وان احدثها على التو عن حادث الضاربة على الآلة ، وانـــا واثق من ان تلك القبلة كانت اصل اختلافنا ، وكنت أهيىء نفسي ، وانا ممتلىء بثقة جديدة ، لأن أبدّد في بضع كلمات سوء تفاهمنا هذا ، ثم انقل الى اميلي اخبار بعد الظهر الطيبة : عقدي من اجل الاوديسة ، والسلفة المقبوضة ، والذهاب الى كابري . قد يُقال لي ان هذا سيؤجل فحسب مدة ساعتين ، ولكني كنت احس رغم ذلك شعوراً من الخيبة وما يشبه نذيراً بالشؤم . لقد كنت في هذه اللحظة واثقاً من قضيتي ، فهل اكون بعد ساعتين مُقتنعاً بالدرجة نفسها ؟ وكما يبدو ، بالرغم من اني اردت اقناع نفسي بأني قد اوضحت الموقف اخيراً ، اي وجدت السبب الحقيقي لابتعاد اميلي ، فاني في الحق لم اكن واثقاً من نفسي . وكانت هذه المعاكسة تكفي لكي تملأني خوفاً وسوء مزاج .

وقصدت غرفة الاستقبال منزعجاً ، ثائر الاعصاب ، فبحثت آلياً على رفوف المكتبة عن ترجمة « الاوديسة » بقلم باندمونت . ثم جلست

مام مكتبي ، فوضعت ورقة على الآلة الكاتبة وتهيأت للبدء في التلخيص بعد ان أشعلت سيكارة . وكنت أظن ان العمل سيهدئ من قلقي ، او يجعلني على الاقل انساه موقتاً ؛ وكنت قد جرّبت هذا العلاج من قبل .

وفتحت المجلد وقرأت على مهل النشيد الاول كله . ثم ضربت العنوان في اعلى الصفحة : « ملخص الاوديسة » وبعد ان تركت فراغاً تحته بدأت :

« كانت حرب طروادة قد انتهت منذ حين . وقد عاد جميع الابطال اليونانيين الذين شاركوا فيها الى منازلهم . جميعهم باستثناء يوليسوس الذي ظل بعيداً عن جزيرته وعن اهله » .

واذ بلغت هذه النقطة ، ساورني شك في جدوى ادخـال نصيحة الآلهة التي يقوم النقاش في اثنائها حـول عودة يوليسوس الى ايتاك ؛ وتركت عملي معلقاً ، للتفكير بهذا الامر . لقد كان مجمع الآلهة ذاك هاماً ، لانه كان يدخل في القصيدة فكرة القدر واللاجدوى . وفي الوقت نفسه فكرة النبالة والبطولة في الجهود البشرية . وقد كان حذف هـذا المجمع يعني الغاء الجانب الخارق من القصيدة ، اسقاط كل تدخل إلهي وحذف الحضور الشاعري اللذيذ لمختلف القوى الإلهية . ولكن باتيستا ، بكل تأكيد ، لم يكن يريد ان يعرف اي شيء عن الآلهة التي لم تكن تمثل في نظره الا مجموعة من الثرثارين المنهمكين في اتخاذ قرارات يُمكن ان تترك المبادرة فيها للابطال الرئيسيين . واما رينغولد ، فان اشارته المبهمة الى الفيلم البسيكولوجي لم تكن تبشر بأي شيء حسن بالنسبة للآلهة؛ إن البسيكولوجيا تُبعد إبعاداً واضحاً القدر والتدخلات السماوية.وقصاراها ان تجد القدر في قلب الروح البشرية ، في طوايا نصف الوعي المظلمة . واذن فان هؤلاء الآلهة اللامسرحيين هم نافلة وضد السبيكولوجيا ...

وكانت تأملاتي حول هذه النطقة تزداد اختلاطاً وبطئاً ؛ وكنت بين

الفينة والفينة ألقي نظرة الى الآلة الكاتبة وانا اقول لنفسي ان عليّ ان اعود الى العمل ، ولكني لم اكن انجح في اتخاذ قرار ولم اكن احرك اصبعي. وانتهى بي الامر ، وانا جامد امام مكتبي ، الى ان اسقط في حلم عميق فارغ ، محركاً في نفسي الطعم الحامز البارد للمشاعر المعقدة المزعجة التي كانت تنتابني ؛ ولكن لم اكن اتوصل الى تحديدها وانا في دواري وتعبي وغيظي .

ثم فجأة خطرت لذهني هذه الفكرة ، كفقاعة هواء تلامس صفحة مستنقع : « سأكون مضطراً الآن الى ان أمسخ الاوديسة على غرار الموجزات السينمائية ... وحين تنجز المخطوطة ، يعود هذا المجلد الى مكتبي ليلتقي بجميع المجلدات الاخرى التي سبق ان استعملتها لسيناريوهاتي... وبعد بضعة اعوام ، فيما انا ابحث عن كتاب آخر اذبحه من اجل فيلم آخر ، سأرى هذا وسأقول لنفسي : عجباً ... كنت آنذاك اضع سناريو الاوديسة مع رينغولد ... وبعد ان اكون قد تكلمت كل يوم ، صبحاً ومساء ، طوال أشهر ، عن يوليسوس وبينيلوب ، وعن سيكلوب وسيريه وعن الحوريات ، لم يتم الفيلم ... بسبب نقص المال ! »

ولدى هذه الفكرة انتابني مرة اخرى قرفٌ عميق من هذه المهنة التي فُرضت عليّ . ومن جديد ، شعرت ، في ألم حاد ، بان هذا القرف كان صادراً عن يقيني بأن اميلي لم تعد تحبني . انني حتى ذلك الحين لم اكن قد عملت الا اكراماً لها ، فاذا افتقدت حبها ، فلن يكون لعملي اية غاية .

لا ادري كم بقيت من الوقت جامداً ، متقوقعاً على كرسي ، تجاه الآلة الكاتبة ، وعيناي محدقتان في النافذة . وسمعت اخيراً باب الشقة يصفق ، وصوت خطى ، ففهمت ان اميلي قد عادت . ولم اتحرّك . وفتح الباب اخيراً خلف ظهري ، وسألني صوت اميلي :

— انت هنا ؟ ماذا تعمل ؟ هل تشتغل ؟

والتفتّ اليها . كانت واقفة على العتبة ، وقبعتها على رأسها ، ورزمة في يدها . وسرعان ما اجبتها في تلقائية ادهشتني بعد تلك الالوان الكثيرة من الشكوك والخوف :

– لا ، لا أشتغل .. كنت أتساءل اذا كان عليّ ان اقبل سناريو باتيستا الجديد ام لا .

فاغلقت الباب ، واقبلت تحدثني وهي واقفة قرب مكتبي :

– هل ذهبت الى مكتب باتيستا ؟

– نعم .

– ألم تتفقا ؟ أليس ما يعرضه عليك كافياً ؟

– بلى ، هو كافٍ ... وقد اتفقنا .

– وإذن ؟ هل الموضوع هو الذي لا يروقك ؟

– لا ، إنه موضوع جيد ..

– ما هي القضية إذن ؟

فنظرت اليها لحظة قبل ان اجيب ؛ وكانت تبدو كعادتها شاردة لامبالية ، وكان واضحاً انها تتكلم بدافع الواجب . وأجبت بايجاز :

– انها الاوديسة .

ووضعت رزمتها على المكتب ثم نزعت قبعتها على مهل ، ونكشت شعرها بيدها . ولكن تعبير وجهها كان غامضاً شارداً ؛ فاما انها لم تكن قد فهمت ان القضية هي الملحمة الشهيرة ، وإما انها – وهذا هو الارجح – لم تجد في العنوان الذي لم تكن تجهله تماماً ما يعني لها شيئاً . وقالت بنوع من نفاد الصبر .

– وإذن ، الا يروقك ذلك ؟

– قلت لك ان بلى .

– الاوديسة ، هي التي تتعلمها في المدارس ، اليس كذلك ؟ فلماذا لا تريد ان تضع هذا السناريو ؟

ـ لأن ذلك لم يعد يعني لي شيئاً .

ـ ولكنك كنت هذا الصباح بالذات قد عزمت على ان تقبل ...

وادركت دفعة واحدة انه آن الاوان لتفاهم جديد ، ونهائي هـذه المرة . ونهضت طفرة واحدة وأمسكت اميلي من ذراعها :

ـ لنذهب الى الغرفة المجاورة ، يجب ان اكلمك .

فقامت بحركة تراجع .وهي اقل ذعراً من لهجة صوتي منها من القوة التشنجية التي كنت اشد بها على ذراعها :

ـ ما بك ؟ هل انت مجنون ؟

ـ لا ، لست مجنونـاً ، لنذهب الى الغرفة المجاورة ، اريد ان احدثك ...

وسحبتها قسراً الى الصالة ودفعتها الى اريكة :

ـ اجلسي .

وجلست قبالتها :

ـ والآن ، ستتحدث .

فنظرت الي مترددة ، وهي ما تزال قلقة قليلاً :

ـ تكلم . انني مصغية اليك .

وبدأت بصوت بارد موحد :

ـ تذكرين اني قلت لك أمس اني غير راغب بوضع هذا السناريو ، لاني لم اكن واثقاً من حبك ... وقد اجبتني انك كنت تحبينني ، وان علي ان اقبل العرض ، أليس كذلك ؟

ـ هذا صحيح ...

فقلت في عزم :

ـ حسناً ، انني مقتنع بأنك قد كذبت علي ... لماذا ؟ لست ادري السبب ... ربما بدافع الشفقة ، وربما بدافع المصلحة ...

فقاطعتني بمرارة :

ـ ولكن اية مصلحة ؟

فشرحت قائلاً :

ـ المصلحة في ان تظلي في هذا البيت الذي تحبينه ...

فأدهشني عنف ردّ فعلها . ذلك انها نهضت فجأة وقالت بصوت مرتفع :

ـ ولكن ما ادراك بذلك ؟ انني لست حريصة على هذا البيت ، على الاطلاق ... انني مستعدة تماماً للعودة الى غرفة مفروشة .. ومن الواضح انك لا تعرفني .. إن هذا لدي سواء تماماً ...

واحسست من هذه الكلمات بشعور حاد من الالم ، كما يحدث للمرء حين تُهان هبةٌ له كلفته تضحيات مريرة . إن هذا البيت الذي تتحدث عنه بهذا القدر من الاحتقار كان في الحقيقة حياتي كلها خلال هذين العامين ؛ لقد تركت من اجله عملاً كنت أحبه ، وتخليت عن أعزّ مطامحي . وسألت ، بلا صوت تقريباً ، غير مصدق مع ذلك :

ـ كيف ، لا تحرصين عليه ؟

ـ على الاطلاق ... (وكان صوتها ناشزاً تقريباً لفرط ما داخله من الاحتقار المغتاظ) هل فهمت ؟ على الاطلاق !

ـ ولكنك حتى الامس كنت ما تزالين تقولين انك تحبينه كثيراً ؟

ـ لقد قلت ذلك مرضاةً لك .. لأني كنت اعتقد انك انت حريص عليه ...

وأسقط في يدي : وإذن ، فانا الذي تخليت عن مطامحي المسرحية ، انا الذي لم اعلّق أية اهمية على مثل هذه الامور ، أأكون انا الحريص على هذا البيت ؟ وادركت انها ، بدافع من سبب كنت اجهله ، كانت ذات نية سيئة ، وانه لن يجدي شيئاً إثارتها ومعاندتها وتذكيرها كم كانت راغبة في هذا الذي يبدو انها تحتقره الآن الى هذا الحد . والواقع ان ذلك لم يكن الا تفصيلاً ، وكان ما يهمني شيئاً آخر تماماً . وقد قلت

وانا اجهد في تمالك نفسي وفي اتخاذ لهجة مصالحة وتعقّل :

— لندع بيتنا جانبا ، فاني لم اكن راغبا في ان احدثك عنه بالذات، بل عن عواطفك تجاهي ... لقد كذبت عليّ أمس ، ولا ادري السبب، حين قلت لي انك تحبينني ... ولأنك كذبت عليّ لا اجد بعـد القوة على العمل للسينما ... لقد كنت افعل ذلك من اجلك وحدك .. وما دمت لا تحبينني بعد ، فليس لدي اي سبب ...

— ولكن من قال لك إني كذبت عليك ؟

— كل شيء ولا شيء ... لقد ناقشنا ذلك بالامس ، ولست راغبا في العـودة الى هذا ... فهذه امور لا تُفسَّر ، وانما تُحَس ... وانا احس انك لا تحبينني بعد ...

وللمرة الاولى قالت في اندفاع مخلص :

— ولكن لماذا انت حريص على ان تعرف بعض الامور بالذات ؟

قالت ذلك بصوت حزين متعَب ، وعيناها تحدقـان في النافذة ، وأضافت :

— دع هذا ... فذلك أفضل لنا كلينا .

— أترين ؟ انك تعترفين أني على حق !

— انا لا اعترف بشيء ... اود فقط ان تتركني بسلام ... بسلام !

وكان في صوتها غصّة دامعة . وأضافت

— والآن ، أنا ذاهبة لتغيير ملابسي ...

ثم ارادت ان تتجه الى الباب ، ولكني امسكتها من معصمها . وكانت تلك حركة مألوفة بيننا ، حين كانت تنهض لتذهب فتمرّ من امامي: فكنت اوقفها من معصمها الذي كان دقيقا وطويلاً . ولكني كنت اقوم بهذه الحركة فيما مضى ، مدفوعا برغبة مفاجئة كانت تنتابني تجاهها ؛ وكانت تشعر بذلك فتقف بوداعـة ، منتظرة ان احيط ساقيها بذراعي وان اريح رأسي في صدرها ، او ان اجذبها الى ركبتيّ . وبعد مقاومة

ضعيفة ومداعبات كثيرة ، كان الامر ينتهي بفعل الحب، حيث نكون، على الاريكة ، او الديوان القريب . اما هذه المرة ، فكان قصدي مختلفا ولم أستطع ان افعل اقلّ من ان استرجع ذكرى ذلك في مرارة . وهي لم تقاومني ، وظلت واقفة تجاهي ، وهي تنظر اليّ من فوق :

– هل استطيع بالاجمال ان اعرف ما الذي تريده مني ؟

– الحقيقة ...

– انك تريد ان تدفع الامور الى الاسوأ ... هذا ما تريده !

– انك تقرّين إذن إن هذه الحقيقة لا تروق لي ؟

– انا لا اقرّ شيئا ...

– ولكنك قلت الآن .. ان هذا سينتهي نهاية سيئة ...

– قلت هذا في الهواء ... فدعني اذهب !

ولكنها مع ذلك لم تتخبّط منتظرة فقط ان احلّ ضمّي عنها . واعتقد اني كنت افضل تمرّداً عنيفاً على هذا الصبر البارد المحتقر . وعلى امل خفي في ان أثير لديها عاطفة من رقة ، وجدت حركتي القديمة التي كانت تمهّد في الماضي للحب ، فتركت معصمها ، وضممت ساقيها . وكانت ترتدي تنورة طويلة ، متكسرة وعريضة جداً، وشعرت عبر هذه التنورة بساقيها الجميلتين المشيقتين تتصلبان ، أشبه بسارية سفينة وسط أشرعة سخية . واستولت عليّ الشهوة ، تكاد تكون مؤلمة بفورانها وباحساس العجز اليائس الذي كان يرافقها . وقلت وانا ارفع بصري نحوها :

– اميلي ، ماذا لديك ضدّي ؟

– ليس لديّ شيء ... دعني أذهب .

وضغطت ذراعاي ضغطاً أشدّ على ساقيها ، وقرّبت وجهي من صدرها . وكنت عادةً حين آتي بهذه الحركة أحس بعد لحظة يدها الكبيرة التي كنت احبّها كثيراً تستريح على رأسي في ملامسة غرامية

بطيئة . وكانت تلك علامة احتياجها واستجابتها لشهوتي . اما هذه المرة، فقد ظلت يدها المتدلية جامدة . وقد أُصبت بضربة في قلبي من هـذا الموقف المختلف عن الموقف الذي كنت اعرفـه . وتركت ركبتيها ثم قبضت مجدداً على معصمها وانا أصرخ :

– لا ، لن تذهبي ... يجب ان تقولي لي الحقيقة ، في هذه اللحظة بالذات .. لن تذهبي قبل ان تقولي لي الحقيقة !

فظلت تنظر الي من فوق لتحت ؛ ولم أكن اراها ، ولكن كـان يخيّل إليّ اني اشعر بنظرها المتردّد يثقل على رأسي المنحني . وقالت أخيراً :

– حسناً ! انت الذي اردت ذلك ؛ انني لم اكن اطلب اكثر من ان اظل اعيش كما في الماضي ... ولكن مـا دمت تريد ذلك ، فهذا صحيح .. انني لم اعد احبك .. هذه هي الحقيقه !

إن من الممكن تصور افظع الاشياء وتخيلها إذ يعرف المرء بفطنة انها موجودة . اما ان يرى هذه الفروض او بالاحرى هذه اليقينيات تتأكد، فان ذلك يُحدث دائماً صدمـة مؤلمة ، كما لو ان المرء لم يسبق له ان واجهها قط . صحيح اني كنت قد عرفت دائماً ان اميلي لم تعد تحبني ؛ ولكن ان اسمع ذلك من فمها ، هذا ما جمّد الدم في عروقي . إنها لم تعد تحبني : إن هذه الكلمات التي ترددت مراراً في ذهني كانت تأخذ على شفتيها معنى جديداً. لم تكن القضية بعد قضية افتراض ، ولو كان ممزوجاً باليقين ، بل كانت قضية واقع . وقد كان لهذه الكلمات وزن وبُعدٌ لم يسبق ان كانا لها في ذهني . ولا اذكر كيف تلقيت هـذا التصريح . لقد ارتجفت على الارجح ، كما يرتجف المرء حين يقف تحت « دوش » مثلج وهو يعرف مقدماً الشعور الذي سيحسّه . ثم جهدت ان اتمالك نفسي وان اظهر اني موضوعي ومتعقل ، فقلت لاميلي بأهدأ لهجة استطيعها :

– تعالي هنا ، إجلسي واشرحي لي كيف حدث ذلك ؟

فاطاعت وجلست على الديوان واجابتني ، كما لو انها مدفوعة الى النهاية :

– ليس ثمة ما يُشرح ..ان كل ما في الامر هو اني لا احبك بعد..

وبمقدار ما كنت احاول ان ابدو متعقلاً ، كانت شوكة هذا الالم الذي لا يوصف تنغرز في لحمي . وجهدت في مشقة ان ابتسم :

– انت تقرّين على الاقل ان من واجبك ان تقدمي لي تفسيراً ... فحتّى حين يطرد الانسان خادماً يقدم له الاسباب ...

– لم اعد احبك ، ولا استطيع ان اقول شيئاً آخر .

– ولكن لماذا ؟ لقد كنت تحبينني في السابق ، أليس كذلك ؟

– نعم ، كثيراً ... اما الآن ، فقد انتهى الامر .

– لقد احببتني كثيراً ؟

– نعم ، كثيراً ... ولكن انتهى ذلك .

– ولكن ... لماذا ؟ ان هناك سبباً ؟

– ربما ... ولكني لا استطيع ان اشرحه .. انني لا اعرف الا شيئاً واحداً : هو انني لم اعد احبك .

فقلت وانا ارفع صوتي رغماً عني :

– لا ترددي هذا بلا انقطاع !

– انت الذي تجعلني أردّد ... انك لا تريد ان تقتنع .. ولذلك أردّده !

– لقد اقتنعت الآن بذلك .

وسقط الصمت . وكانت اميلي قد اشعلت سيكارة واخذت تدخنها خافضة العينين . وكنت منحنياً فوق ركبتي ، ورأسي بين يدي .

– واذا قلتُ أنا لك سبب هذا التغير ، هل تعترفين به ؟

– ولكني لا اعرفه ، انا نفسي ...

– نعم ، ولكن ربما استطعت الاعتراف به اذا قلته لك ...
– حسناً ، اذن قُلْه ...
– لا تتحدثي بهذه اللهجة .

وكنت اوشك ان اصرخ لفرط ما جرحتني هذه الطريقة اللامبالية السريعة في الكلام ، ولكني كنت اتمالك نفسي واجهد في الاحتفاظ بلهجة رصينة ، فبدأت اقول :

– انك تذكرين الفتاة ، الضاربة على الآلة التي جاءت الى هنا منذ اشهر لتضرب لي سناريو على الآلة ... لقد فاجأتنا في اللحظة التي كنت اقبّلها فيها ... وقد كان ذلك مني ضعفاً بليداً ... ولكن تلك القبلة كانت الاولى والاخيرة ، ولم يحدث شيء آخر ، اقسم لك على ذلك .. انني لم ار تلك الفتاة ثانية ... فقولي لي الحقيقة : ايكون ذلك الحادث هـــو الذي ابعدك عني ؟ تكلمي بصراحة ... أإبتداء من تلك اللحظة بدأت تكفّين عن حبي ؟

وكنت انظر اليها في تنبّه ، فيما كنت اتكلم . وقد بدرت منها حركة مفاجأة وانكار ، وداخلني الشعور بان افتراضي كان يبدو لهـــا غير معقول . ثم رأيت ملامحها تتغير كما لو ان فكرة مفاجئة قد خطرت لها ، فتقول :

– لنفترض ان السبب هو هذه القبلة ... فهل اطمأننت الآن،بعد ان وضح الامر لك ؟

وسرعان ما فهمت انها لم تكن صادقة ، ان دافعهـــا لم يكن تلك القبلة . كان افتراضي قد فاجأ اميلي لشدة بعده عن الحقيقة ، ثم دفعها حسابٌ سريع الى قبول هذا التفسير . ولا بد ان سبب ابتعادها كان اخطر بكثير من هذه القبلة التي لم تكن لها عواقب . وهي لم تكن تريد ان تكشفه لي ، بسبب من بقية مراعاة لي . وكنت اعرف ان اميلي لم تكن شريرة ، ولم تكن تحبّ ان تشقّ عليّ . ولا بد ان السبب الحقيقي

مهين مذل . وقد قلت في رقة :

— ليس صحيحاً يا اميلي ، فتلك القبلة لا دخل لها بابتعادك ...

— لماذا تقول ذلك ؟ لقد قلت لك العكس !

— لا ، ليست القضية قضية هذه القبلة ... فهناك شيء آخر !

— انني لا افهم ما الذي تقصده .

— بل تعرفينه جيداً .

— لا ، اقسم بكلمة الشرف ، لست اعرفه .

— وانا اقول لك ان بلى ...

فبدت على وشك ان تفقد صبرها، ثم قالت بلهجة شبه رؤوم كانت تتبناها احيانا :

— لماذا انت حريص على ان تعرف بعض الاشياء ؟ انك غريب .. فما جدوى اثارة هذا كله ... ماذا يجديك ؟

— انني افضل الحقيقة ، اياً كانت ، على الكذب ... وبالاضافة الى ذلك ، اذا لم تكلميني بصراحة ، فبامكاني ان اتصور ... شيئاً رديئاً جـداً !

فنظرت اليّ من غير ان تنبس بكلمة نظرة نفّاذة فريدة ، ثم قالت:

— لماذا تعذب نفسك ؟ انك مطمئن الضمير ، أليس هذا صحيحاً ؟

— انا ، بكل تأكيد !

— اذن ، ماذا يهمك الباقي ؟

فألححت : — هذا اذن صحيح ، القضية قضية شيء بشع جداً ؟

— انني لم اقل ذلك ... كل ما قلته لك ان الباقي هو بلا اهمية ، ما دام ضميرك مرتاحاً ...

— صحيح ان ضميري مرتاح .. ولكن ذلك لا يعني شيئاً .. فانه يحدث ان الضمير نفسه يخطيء ...

فقالت بلهجة ساخرة لم تفتني ، بـل بدت لي اكثر جرْحاً من

لامبالاته :

– ولكن ليس ضميرك ، أليس كذلك ؟

– بل حتى ضميري ...

وقالت فجأة :

– هيا ، يجب ان اذهب ... هل لديك شيء آخر تقوله لي ؟

– لن تذهبي قبل ان تقولي لي الحقيقة .

– لقد قلتها لك : انني لم اعد احبك .

هذه الكلمات الاربع : اي ألم كانت تحدثه لي ! لقد احسستني امتقع ، وابتهلت اليها ابتهالاً معذباً بقولي :

– لقد رجوتك الا ترددي هذه الكلمة ... انك تعذبينني !

– انت الذي تضطرني الى ترديدها...من المؤكد ان ليست لدي أية سعادة في قولها .

فتابعت وانا امضي في خيط افكاري :

– كيف تريدين ان اعتقد انك لا تحبينني بعدُ بسبب هذه القبلة ؟ ان القبلة شيء يسير ... لقد كانت هذه الفتاة خبيثة ، وانا لم ارها بعد ذلك ابداً ... انت تعرفين ذلك كله وتفهمينه ... كلا، انك في الحقيقة لا تحبينني بعد بسبب ...

وكنت ابحث عن كلماتي لأعبّر عن حدسي الغامض الشاق ، ثم تابعت :

– بسبب انه حدث شيء ما ، شيء ما قد اثر على عواطفك تجاهي، بل قد غيّر كلياً الفكرة التي كونتها عني ، وبالتالي فان حبك ...

فقاطعتني قائلة بلهجة مخلصة تكاد تكون لهجة اعجاب :

– يجب الاعتراف بأنك ذكي !

– اذن ، فهذا صحيح ؟

– لم اقل ذلك ، بل قلت فقط انك ذكي ...

وكنت احسّ الحقيقة قريبة جداً ، وكنت على وشك ان ألمسها بيدي :

ــ قبل حادث معين ، كان لك رأيٌ طيب فيّ ... وبعد ذلك ، حكمت عليّ حكماً سيئاً ، ومن ثمّ كففت عن حبي ، أليس كذلك ؟

ــ هذا ممكن ...

وغمرني فجأة شعور فظيع . لقد كانت تلك اللهجة الهادئة التي تبنيتها زائفة ، لم اكن متعقلاً ، بل كنت أتألم ألماً حاداً ، وكنت يائساً وغاضباً ، كنت متلاشياً ، فلماذا تراني كنت استعمل لهجة الاعتدال تلك ؟ ولا ادري ماذا اصابني آنذاك ، فقبل ان ادركه ، نهضت فجأة وانا اصرخ :

ــ لا تظني اني اكتفي بالهذر والهذيان ...

ووثبت على اميلي فأمسكتها من عنقها وقلبتها على الديوان وصحت في وجهها :

ــ قولي الحقيقة ! قوليها مرةً والى الابد !

وكان جسمها الكبير المنسجم الذي كنت احبّه كثيراً يتخبط تحت يديّ ، ووجهها يحمرّ وينتفخ : لا شك في انني كنت اضغط بشدة، كما لو اني كنت أودّ ان اقتلها . ورددت :

ــ قولي الحقيقة ... قولي الحقيقة !

وكررت ضغطي وانا افكر : « سأخنقها ، ولكن الافضل ان اراها ميتة على ان تكون عدوّة ! »

وفجأة شعرت بأن احدى ركبتيها كانت تسعى لان تضربني في معدتي، وقد تمكنت فعلاً بعنف شديد جداً حتى ان نَفَسي قد تقطع . وكانت تلك الضربة في مثل ايلام عبارتها ، لم أعد أحبّك ، لأنها كانت ضربة عدو يسعى الى إلحاق اكبر الاذى بغريمه . وفي اللحظة نفسها انحسر حقدي المجرم مرة واحدة ، فأرخيت ضمّي ، وتحررت اميلي وهي

تدفعني بقوة حتّى سقطتُ عن الديوان .

وقبل ان اتمكن من النهوض ، صاحت بصوت مغيظ :

ـ انني احتقرك ! هذا هو الشعور الذي أكنّه لك ، والسبب الذي من اجله لم أعد احبك ! انني احتقرك واشمئز منك حين تلمسني ... لقد أردتَ الحقيقة : انني احتقرك واشمئز منك !

كنت واقفاً ، فامتدت يـــدي وعيناي في وقت واحد الى منفضة سكاير كثيفة من البلور كانت على الطاولة . وظنّت اميلي بالتأكيد انني كنت اريد قتلها ، لانها اطلقت صرخة رعب وغطت وجهها بذراعها . ولكن ملاكي الحارس ساعدني : فلم أدر كيف نجحت في السيطرة على نفسي ، فوضعت المنفضة على الطاولة وخرجت من القاعة .

الفصل العاشر

لم تكن اميلي قد تلقت ، كما سبق ان ذكرت ، الا ثقافة بدائية ، فبعد سنوات المدرسة الابتدائية ، لم تتابع الدروس الا فترة من الزمن ، وسرعان ما تركت الدراسة لتتعلم الضرب على الآلة الكاتبة والاختزال ، حتى بلغت السادسة عشرة ، والتحقت بمكتب للمحاماة . صحيح انها كانت تنتمي الى ما يسمى « اسرة رفيعة » ، اي اسرة كانت ميسورة من قبل وكانت في الماضي ذات املاك في جوار روما . ولكن جد اميلي كان قد هدر ثروته في مضاربات رديئة ، وكان الاب ، حتى موته ، موظفاً صغيراً في وزارة المالية . وهكذا ترعرعت في الفقر ،وظلت بتربيتها وطريقتها في التفكير من الشعب ، ولهذا كان يبدو انها لا تستطيع ان تعتمد الا على حسّها الشعبي الذي هو من الصلابة بحيث يتراءى احياناً بلادةً او ضيقاً في الذهن . ولكن كان يحدث لها بمساعدة هذا الحسّ وحده ان تعبر بطريقة غير متوقعة ، وغريبة في نظري ، عن افكار او عن تقديرات شديدة النفاذ ، شبيهةً في ذلك بأفراد الشعب اولئك الذين هم اقرب الى الطبيعة من الآخرين والذين لا يعكّر محاكمتهم العقلية اي اصطلاح او اي تفكير مسبّق. وهي لانها كانت تفكر تفكيراً سلبياً ببعض الاشياء،فانها كانت تعبر عنها برصانة وصراحة ووضوح،وقد

كان لكلماتها بالفعل لهجة الحقيقة التي لا تخطيء. على انها لكونها لم تكن تدرك صراحتها ، فانها لم تكن تتبجّج بها ، مؤكدة بهذا التواضع السمة الحقيقية لمحاكمتها .

من أجل ذلك ، لم أشك لحظة حين صاحت بي ذلك اليوم : « انني أحتقرك ! » ان هذه العبارة التي ، لو قالها فم آخر ربما لم تعن شيئاً ، كانت تتلبس في نظرها معنى دقيقاً محدداً : كانت تحتقرني حقاً ، وليس ثمة بعد الآن مجال لفعل شيء . وحتى لو كنت اجهل كل شيء من طبع اميلي ، فان اللهجة التي لفظت بها هذه العبارة لم تكن تترك اي شك : كانت لهجة الكلمة لدى ولادتها ، منبثقة تواً من الشيء نفسه ، منطوقة من قبل انسان ربما كان يستعملها للمرة الاولى ، وهو قد استمدها ، بدافع من الضرورة ، من ارث اللغة العريق القدم ، من غير ان يبحث عنها ، وعلى غير ارادة منه تقريباً . هكذا ينطق الفلاح احياناً ، بلكنة حقله ، وبالكلمات التي يمسخها ، وبالعبارات المماتة التي يستعملها ، جملة مشرقة بالصواب ، وبحكم نافذ لو نطق به رجل آخر لأثار الدهشة ؛ اما حين يصدر عنه هو فانه يُعجب ويبدو غير قابل للتصديق تقريباً .

« نعم ، انني احتقرك » : كان لهذه الكلمات الثلاث — وقد كنت أشعر بذلك في مرارة — الصدى الحقيقي نفسه الذي كان لهذه الكلمات الاخرى الثلاث التي كانت قد نطقت بها حين اعترفت لي للمرة الاولى بحبها « انني احبك كثيراً ! »

وحين وجدتني وحيداً ، مقتنعاً بصدق هذه الكلمات القاسية وحقيقتها ، اخذت اذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، خالي الذهن ، مرتجف اليدين ، زائغ النظرات ، لا ادري ما افعل . وكل دقيقة تمر كانت تغرز اعمق فاعمق هذه الشوكات الثلاث ، كلمات اميلي الثلاث ، في اضلعي .

ولكني ، خارج الألم الحادّ المتزايد الذي كنت أعيه بالغ الوعي ، لم اكن لأفهم بعد شيئاً . لقد كان أشق شيء عليّ ، بالاضافة الى اني لست بعد محبوباً ، هو اني كنت محتقراً ؛ ولكني لعجزي عـن ان اجد لهذا الاحتقار أي تفسير ، مهـما كان خفيفاً ، كنت استشعر احساساً عميقاً بالظلم ، وفي الوقت نفسه خوفاً من ألاّ يكون ثمة ظلم ، وان يكون هذا الاحتقار قائماً على أساس متين ، غـير قابل للنقاش بالنسبة لي . لقد كنت املك عن نفسي رأياً عالياً بما فيـه الكفاية ، مطبوعاً على الأكثر بنوع من الشفقة ، كما لو اني رجل قليل الحظ لم يعطف عليه القدر كما يستحق ، ولكنه لم يكن يملك الا ما هو جدير بالاحترام . وها أن عبارة اميلي هذه تأتي لتهز هـذه النظرة ؛ كنت للمرة الاولى اتساءل اذا كنت اعرف نفسي واحكم عليها كما هي ، من غير رضى زائف عن ذاتي .

وفي النهاية ، توجهت الى الحمام ، ووضعت رأسي تحت المـاء ، فخرجت من ذلك بشعور ارتياح : كانت عبارة زوجتي تلك قد أشعلت النار في رأسي . وتسرحت ، ورطبت وجهي ، وعقدت ربطة عنقي من جديد ، وعدت الى الصالة . ولكن رؤية المائدة معدّة مـن فتحة النافذة أثارت استنكاري ؛ انـه لم يكن بامكاننا ان نجلس الى الطاولة كالايام السابقة وان نأكل معاً في هذه القاعة التي كانت ما تزال مليئة باصداء الكلمات التي هزتني .

وفي تلك اللحظة ، فتحت اميلي الباب وظهرت ؛ كان وجهها قد استعاد ملامحه المألوفة الصافية المرتاحة . وقلت من غير ان انظر اليها :

ــ لا رغبة لي بتناول العشاء هنا هـذا المساء .. قولي للخادمة اننا خارجان ، ثم ارتدي ثيابك ... فاننا سنتعشى في الخارج ...

فأجابت وهي مندهشة بعض الشيء :

– ولكن العشاء جاهز منــذ حين ... والأشياء جديرة بان ترمى بعد ذلك !

فصرخت وقد عاودني غضبي :

– هذا يكفي ! ارمي كل ما تريدين ، ولكن البسي ثيابك ، لاننا سنتعشى في الخارج ..

ولم اكن قد رفعت بصري اليها ، ولكني سمعتها تتمتم :

– اي سلوك هذا !

وخرجت واغلقت الباب .

وبعد بضع دقائق كنا نخرج من البيت . وفي الشارع الضيق الذي كانت تكتنفه بيوت عصرية ذات واجهات متصلة بالشرفات ، شبيهة ببيتنا ، كانت سيارتنا الصغيرة تنتظرنا بين عديد من السيارات الفارهة ؛ وكنا قد اشترياها حديثاً ، كالبيت ، وكان معظم ثمنها ينبغي ان يدفع بعدُ مـن تعويضات السناريو القادم . ولم يكن قد مرّ عـلى اقتنائها الا بضعة أشهر ، وكنت ما أزال أعاني شعور الغرور الطفولي الذي يوحيه في البدء ترفٌ مثل هذا . ولكن في المساء ، بينما كنــا متجهين نحو السيارة ، جنباً الى جنب ، مــن غير ان نتبادل النظر ، لم أستطع الامتناع عن التفكير : هذه سيارة تمثل ، الى جانب الشقة ، تضحية مطامحي ، وهي تضحية لا جدوى منها بعد الآن ... واخذني لمدة لحظة الأحساس الدقيق بالمفارقة بين هذا الشارع الباذخ الذي يبدو كل شيء فيه جديداً وثميناً ، وبين شقتنا التي كانت نوافذها تنظر الينا من الطابق الثالث ، وبين السيارة التي كانت تنتظرنا عــلى بضعة أمتار ، وسوء حظي الذي كان يضفي على جميع هذه الأشياء المقتناة طابع اللاجدوى والنفور .

وصعدت السيارة ، وانتظرت ريثما تجلس اميلي ، ومددت ذراعي لكي أغلق الباب من جهتها . وكنت حين اقوم بهذه الحركة عادة ألامس

ركبتيها ، او كنت أدير رأسي فألامس خدّها بقبلة سريعة . اما هذه المرة فقد تجنبت غريزياً ان ألمسها . وصفقت البـــاب ، وظللنا لحظة جامدين صامتين . وأخيراً سألت اميلي :

– الى اين نحن ذاهبان ؟

فترددت ثم اجبت كيفما اتفق :

– لنذهب الى جادّة « ابيان » ...

– ولكن لم يئن الاوان للذهاب الى جادة « ابيان » ... سيكون الجو بارداً ، ولن يكون ثمة أحد .

– لا بأس ... سنكون نحن هناك ، على اي حال .

فصمتت وسلكنا الطريق باتجاه جادة « ابيان » . وبعد ان غادرنا حيّنا ، عبرنا وسط المدينة وأخذنا طريق « تريونفي » و « البروميناد اركيولوجيك » ، بمحاذاة الجدران القديمة المغطاة بالطحلب والحدائق والجنائن والمقاصير القائمة بين الاشجار الـتي كانت تسجل بدء جادة « ابيان » . ثم كان مدخل المقابر المضاء بمصباحين ضعيفين . وكانت اميلي على حق : فقد كان الوقت مبكراً بالنسبة لذلك المكان .

واذ دخلنا المطعم ذا الاسم القديم ، لم نجد في القاعة الكبرى المزينة بالقوارير والبلاط المكسر الا طاولات فارغة وموجة من الخدم . كنا وحدنا ، فخطر لذهني ان هذه القاعة الفارغة الرديئـــة التدفئة ، مع طابع الاستعجال المضجر الذي كـــان يطبع خدمها الكُـثُر ، لم تكن المكان الملائم لحلّ مشكلة حياتنا المشتركة . ثم تذكرت اننا منذ عامين ، في عهد حبنا ، كنا قد جئنا مراراً لتناول العشاء ، وأدركت لماذا كنت قد اخترت ، غريزياً ، هذا المطعم الكئيب المتوحد في ذلك الفصل ، من بين كثير من المطاعم .

كان الخادم واقفاً امامي ولائحة الطعام في يده ، ومن الجهة الاخرى كان الخازن ينحني ليمد لي لائحة الخمور . وأخذت اقرأ اللائحة ،

معدداً الوان الطعام لاميــلي ، ماثلاً عليها كزوج مستعجل متأدب .
وكانت عيناها منخفضتين ، وكانت تجيب بكلمات موجزة :
ــ نعم ، لا ، حسناً ...
وطلبت نوعاً من الخمر ، بالرغم من احتجاج اميــلي التي لم تكن تريده ، فقلت :
ــ سأشربه أنا نفسي ...
وبسم لي الخازن بسمة فاهمة وابتعد مع الخادم .
لن اصف عشاءنا بتفاصيله ، ولا اريد الا ان اصوّر حالتي النفسية ذلك المساء ، وهي حالة جديدة كل الجدة بالنسبة لي ، وسوف تمثّل فيما بعد الوضع الطبيعي في علاقاتي مع اميلي .
يقال ان الآلية هي التي تتيح لنا ان نعيش بلا تعب يتجاوز حدوده ، وذلك حين تجعلنا غير واعين لمعظم حركاتنا . ان خطوة واحدة تتطلب تشغيل كمية من العضلات ، ومع ذلك ، فنحن نقوم بها من غير ان نعي ذلك ، بفضل الآلية . وكذلك الأمر بالنسبة لعلاقاتنا مع الآخرين . ان نوعاً من الآلية السعيدة كان قد حكم حياتي المشتركة مع اميلي ، وظللت مؤمناً بانها تحبني ؛ وفي سلوكي نحوها كان التفتح النهائي وحده هو الذي يشع على ضوء شعوري ، بينما يظل الباقي كله في ظل عادة رقيقة وآلية . اما واني قد تجردت الآن من وهم الحب ، فقد كنت أعي كل عمل من أعمالي حتى اكثرها تفاهة .
كنت أقدم الكأس لاميلي ، وأقرّب المملحة منها ، وانظر اليها ، واكف عن النظر اليها : وكانت كل حركة مرفقة بمعرفــة أليمة ، مصدومة ، عاجزة ، يائسة . وكنت أحسّني متزعجاً ، مضطرباً ، مشلولاً ، غير مستطيع ان افعل شيئاً من غير ان اقول لنفسي : هل هذا حسن ؟ هل هذا سيء ؟ وكنت قــد فقدت كل اطمئنان . ان بوسع المرء دائماً أن يؤمل استرداد الثقة المفقودة مع الأجانب ؛ اما مع

اميلي ، فقد كانت القضية قضية تجربة ماضية ، مدفونة : فلم يكن لي بعد ما اؤمّله .

هكذا كان الصمت يمتد بيننا ، لا تكاد تقطعه الا جُملٌ تافهة :

— هل تريدين خمراً ؟ خبزاً ؟ مزيداً من اللحم ؟

وكنت اودّ لو أستطيع وصف نوعية هذا الصمت الذي قام ذلك المساء بيننا لكي لا يغادرنا بعدُ ابداً . لقد كان صمتاً لا يُحتمل ، لأنه كان سلبياً كل السلبية ، مصنوعاً من اسقاط كل ما كنت أودّ أن اقوله وما كنت أحسّني غير قادر على التعبير عنه . ولم يكن بيننا عداء ، على الأقل من جانبي ، وانما كان بيننا عجز . كنت بحاجة الى ان أتكلم ، وكانت لديّ اشياء كثيرة اقولها ، وفي الوقت نفسه كنت احسّ ان الكلمات كانت بعد الآن بلا جدوى ، واني لن استطيع ان اجد اللهجة المناسبة . واذن ، فقد كنت ألزم الصمت ، لا مع الشعور الرضي الهادىء الذي يحسه رجل لا يعاني الحاجة الى الكلام ، بل مع شعور رجل يغلي ذهنه بأشياء يعيها ويريد ان يقولها ، ولكنه يصطدم عبثاً بهذا الاحساس كما يصطدم بقضبان سجن حديدية . وكان ثمة ما هو اكثر من ذلك : لقد كنت اشعر ان هذا البَكم الذي لا يحتمل كان مع ذلك أنسب وضع بالنسبة لي ؛ واني اذا قطعته ، حتى ولو بأفضل طريقة واحكمها ، فاني اوشك ان اخلق مناقشات هي اصعب على الاحتمال من هذا الصمت نفسه ، اذا كان ذلك ممكناً .

ومع الاسف ، لم اكن قد تعودت بعدُ ان اصمت . لقد تناولنا اللون الاول من الطعام ثم اللون الثاني ، من غير ان نقول كلمة ؛ وعند تناول الفاكهة ، نفد صبري ، فاتجهت الى اميلي :

— لماذا انت بكماء ؟

وسرعان ما اجابت :

— لأني لا اجد ما اقوله .

ولم تكن هيئتها حزينة او عدوانية ، وكان لكلامها نبرة الحقيقة .
واستطردتُ برصانة :

— ان ما قلتِه الآن يستحق ان يُشرح شرحاً وافياً .

وباللهجة الصادقة نفسها قالت :

— إنس هذه الأشياء ... كما لو اني لم أقلها قط !

فعاودني الأمل :

— لماذا انساها ؟ ليتني متأكد انها ليست صحيحة ، وانها افلتت منك بدافع الغضب ...

فلم تجب هذه المرة . وتعلقت من جديد بالأمل . ربما كانت قد صارحتني باحتقارها كردّ فعل على عنفي . وألححت بحذر :

— اعترفي بان هذه الأشياء القبيحة التي قلتها لي اليوم ليست صحيحة ... وانها انما جاءتك لانك كنت تظنين في تلك اللحظة انك حاقدة عليّ وانك كنت تريدين ان تجرحيني ...

فنظرت اليّ نظرة عميقة ، وظلت صامتة . وخيّل اليّ — وربما كنت على خطأ — ان عينيها الكبيرتين المعتمتين كانتا مغرورقتين بالدمع . ووثب قلبي ، فمددت ذراعي وامسكت بيدها على الخوان :

— اميلي ، ان ذلك لم يكن صحيحاً ، أليس كذلك ؟

فسحبت يدها بفجاءة غريبة ، تقلّص معها جسمها كله لا ذراعها وحدها :

— بلى ، كان ذلك صحيحاً .

ولاحظت نبرة الصدق المطلق والحزين معاً في هذا الجواب . وكان يبدو وكأنها تشعر في تلك اللحظة بأن كذبةً ما تستطيع ان ترتب كل شيء ، على الاقل لفترة من الزمن ، على الاقل في الظاهر ؛ وقد راودها ذات لحظة اغراء الكذب ، ولكنها بعد التأمل والتدبر ، عدلت عن ذلك . وأصبت من جديد بتشنج ألم عنيف ، فتمتمت بين اسناني

المنقبضة وانا خافض الرأس :

— ولكن الا تفهمين ان هناك اشياء لا يمكن ان نقولها ، من غير ان نبررّها ، لأي انسان ، وللزوج بصورة خاصة ؟

فلم تجب ، واكتفت بأن تنظر اليّ بنوع من الخوف ؛ ولا بد ان وجهي في الواقع كان معتكراً بالغضب ، وقالت اخيراً :

— انك تسألني ، فأجيبك .

— ولكنك ملزمة ان تفصحي .

— ماذا تعني ؟

— يجب ان تشرحي لي لماذا ... لماذا تحتقرينني ؟

— آه ! هذا ما لن اقوله لك ابداً ... حتى ولو كنت على وشك الموت !

وعجبت للهجة العازمة بصورة غريبة . ولكن مفاجأتي لم تدم طويلاً . فلقد استولى عليّ غضب لم يكن يترك لي وقتاً للتفكير ، فألححت وانا امسك بيدها من جديد ، ولكن بضمة رقيقة هذه المرة ، قائلا :

— قولي لي ، لماذا تحتقرينني ؟

— لقد سبق ان اجبتك اني لن اقول لك ذلك ابداً .

— قولي لي ، والا اوجعتك ...

واستبد بي الغضب ، فلويت يدها . ونظرتْ اليّ ، مشدوهة لحظة، ثم تشنج فمها بكزازة ألم ، وانتشر علـى وجهها ذلك الاحتقار الذي تحدثت عنه ، فقالت بوحشية :

— دعني ! هاأنت تريد بالاضافة الى ذلك ان توجعني ؟

ولاحظت عبارة « بالاضافة الى ذلك » هذه التي كانت تومىء الى الوان اخرى من العنف ربما كنت قد كبّدتها اياها ، فانقطع نفَسي :

— دعني ! الا تخجل ؟ ان الخدم ينظرون الينا ...

— قولي لي لماذا تحتقرينني ...

ـ لا تكن أبله ... دعني !

ـ قولي لماذا تحتقرينني ...

ـ اوف !

وحرّرت يدها بحركة عنيفة اسقطت قدحاً على الارض . وارتفع صوت تحطم زجاج ، فنهضت اميلي واتجهت نحو الباب وهي تقول لي بصوت مرتفع :

ـ انني سأنتظرك في السيارة ريثما تدفع الحساب .

وخرجت ، فظللت مسمراً في مكاني ، جالساً ، متلاشياً ، لا بسبب الاذلال الذي لحق بي ـ فان الخدم العاطلين ، كما قالت اميلي ، لم يرفعوا انظارهم عنا ولم يفوّتوا اية كلمة من كلماتنا ولا اية حركة من مشادّتنا ـ وانما بسبب تصرف زوجتي الغريب . انها لم يسبق لها قط ان حدثتني بتلك اللهجة ، ولم يسبق لها ان شتمتني . وقد ظلت عبارة « بالاضافة الى ذلك » ترنّ في اذنيّ كأحجية مزعجة اخرى يجب حل لغزها ؛ فمتى وكيف كنت قد ارتكبت الاشياء التي كانت ، عبر هذه الجملة ، تشكو منها ؟

وناديت الخادم أخيراً ، فدفعت الحساب ، وخرجت بدوري .

ولاحظت في الخارج ان الطقس الذي كان طوال اليوم غائماً متقلباً ، قد بدأ بمطر مطراً خفيفاً ناعماً . وفي الظلام ، لمحت طيف اميلي واقفاً بازاء السيارة التي كنت قد اغلقت بابها بالمفتاح ، وكانت تنتظرني في صبر تحت المطر . واعتذرت بصوت خال من الطمأنينة :

ـ اعذريني ، كنت قد نسيت ان السيارة كانت مغلقة .

فاجاب صوتها الهادىء :

ـ لا أهمية لذلك ، فالمطر رذاذ ...

ومرة اخرى ، استيقظ في قلبي امام تنازلها امل المصالحة . هل من الممكن ان تحتقر كائناً وتحدثه بمثل هذه اللهجة الرقيقة الودود ؟

وفتحت الباب ، ودخلنا كلانـا الى السيارة . وأدرت المحرك ، وقلت بلهجة بدت لي فجأة خفيفة ، ذات مزاج طيب :

ــ حسناً ، اين تريدين ان تذهبي ، يا اميلي ؟

فاجابتني وعيناها محدقتان امامها :

ــ لا ادري ... حيث تريد .

فاقلعت ، وانطلقت السيارة . وكنت احس ، كما ذكرت ، انطباعاً من التفاؤل والطلاقة ، بل والمرح ، كما لو انني حين أغيّر الامر الى مزاح ، واستبدل بالرصانة والهوس الخفة والدعابة ، فبوسعي ان ابلغ التقارب . ولا ادري ماذا اصابني آنذاك ؛ ربما كان اليأس قد صعد الى رأسي ، كما يصعد الخمر المسكر ؟ وقلت بلهجة لامبالية :

ــ لنذهب كيفما اتفق ، مغامرين ...

ولكني اذ نطقت بهذه الكلمات أحسستني انساناً أخرق ، اشبه باعرج يريد ان يقوم بخطوة في الرقص . وفي هذه الاثناء كانت اميلي صامتة ، واستسلمت لما كنت اظنه قريحتي فلم يلبث ان تكشّف تجربـة رديئة . وكنت أقود سيارتي الآن على طول جادة « ابيان » التي كنا نستطيع ، على ضوء الفوانيس التي كانت تصطف امامنا ، ان نلمح عـبر الوف الاسلاك اللامعة من المطر ، شربينها وقرميد خرائبها المحمرّ ، وتماثيل المرمر البيضاء ، واحجار البلاط الروماني المتصدع . وسرنا ردحاً مـن الزمن ، ثم قطعت الصمت فجأة بصوت زائف الحماسة :

ــ لننس مرة واحدة من نحن ، ولنتخيل اننـا طالبان يبحثان عن زاوية هادئة ، بعيـدة عن العيون الفضولية ، ليقوما بفعل الحب في أمان .

فظلت على صمتها ، وشجعني ذلك فأوقفت السيارة . وكـان المطر يهطل الآن مدراراً ، وكانت المسّاحتان تروحان وتجيئـان على الزجاج

الامامي فلا تنجحان في ايقاف الرشح الذي كان يعكر الرؤية . ومضيت أقول بصوت قليل الطمأنينة :

ـ نحن طالبان ، ولنقل ان اسمي ماريو ، وانت ماريسا ؛ وقد وجدنا اخيراً مكاناً هادئاً ؛ صحيح انه تحت المطر ... ولكننا في السيارة مطمئنان ... قبليني .

واحطت كتفيها بذراعي في سرعة عزم رجل ثمل ، وحاولت ان اقبلها .

ما الذي كنت أرجوه ؟ لست ادري ؛ لقد كان لا بدّ لتصرف اميلي في اثناء العشاء من ان يتركني اتنبأ بما كان في امكاني ان اتوقعه . وحاولت اولاً ، في صمت ومن غير استياء ، ان تتخلص من ضمّتي ، ثم حين رأت اني كنت الحّ ، واني اخذتها من ذقنها محاولاً ان ادير وجهها نحو وجهي ، دفعتني بقوة وهي تقول :

ـ هل اصبحت مجنوناً ؟ هل أنت سكران ؟

فتمتمت : لا ، لست بسكران ، أعطيني قبلة .

فاجابت بما كان لديها غيظاً مشرفاً ، وهي تدفعني من جديد :

ـ ليست لدي اية رغبة في ذلك ... وانت تعجب لماذا احتقرك ، حين تتصرف على هذا النحو ... بعدما حدث بيننا !

ـ ولكنني أحبك .

ـ اما انا ، فلا .

وكنت أحسني مثيراً للسخرية ، ولكن مع نوع من الضيق شبيه بضيق انسان يعي انه في وضع مضحك ولا سبيل الى اصلاحه في وقت واحد . على اني لم اكن مستعداً بعد للاعتراف بهزيمتي ، فتمتمت بلهجة تريد ان تكون رجولية وحشية :

ـ ستقبلينني ، ان لم يكن بدافع الحب ، فبالإكراه !

وارتميت عليها .

ولم تقل شيئاً ، ولكنها فتحت باب السيارة فجأة ، فسقطتُ الى الامام على المقعد الفارغ . كانت قد قفزت من السيارة وهربت الى الطريق رغم المطر الذي كان يهطل بغزارة .

وظللت لحظة مشدوها . ثم قلت لنفسي : « انني أبـله » وخرجت بدوري من السيارة .

كان المطر يهطل بغزارة ، وحين وضعت قدمي على الارض ، أحسستني اغطس حتى الكعب في بركة ماء . وهذا ما فاقم غيظي حتى النهاية ، وغرقت في هوة من اليأس . وصرخت غاضبا :

ــ عودي ، يا اميلي ! اطمئني ، فلن أمسك بعد !

وسمعتها تقول في الليل :

ــ إما ان تتصرف بشكل آخر ، او اعود الى البيت مشياً على القدمين .

فقلت بصوت راجف :

ــ كفى ، عودي . انني اعدك بكل ما تريدين .

وكان المطر ما يزال يهطل ، وكان يدخل من ياقة معطفي فيبلل رقبتي ، وكنت أحسه يسيل على جبيني وصدغي . ولم يكن ضوء السيارة ينير الا حيزاً ضيقا من الطريق ، مع خربة رومانية فارغة السقف وشجرة شربين كبيرة كانت قمتها ترتعش في الليل ؛ ولكني حاولت كثيراً ان اعثر على اميلي ، فلم أرها . وناديت مرة اخرى ، حزينا :

ــ اميلي ! اميلي !

وانطفأ صوتي في شكوى . وخرجت اخيراً من الظلمة ، فرأيتها في مرمى مصباح السيارة ، وقالت :

ــ أتعدني بألاّ تلمسني ؟

ــ نعم . أعدك .

فأتت تأخذ مكانها في السيارة وهي تضيف :

ـ اية ولدنات ! هأنذي مبللة ... ان رأسي كله مبلل ... ويجب عليّ صباح الغد ان اذهب الى المزين .

وصعدت ثانية الى السيارة ، وما لبثنا ان انطلقنا . وعطست اميلي مرتين بشكل رنـــان ومسرحي ، لكي تُفهمني انني عرّضتها لالتقاط الزكام . ولكني لم اتوقف عند التحدي ، وكنت اقود السيارة كما لو انني في حلم . حلم مزعج كنت أدعى فيه ريشار وزوجتي تدعى اميلي ، وكنت احبها وهي لا تحبني ، بل كانت على العكس تحتقرني .

الفصل الحادي عشر

استيقظت صباح اليوم التالي محطماً حزيناً ، يستولي عليّ مسبقاً نفورٌ عميق مما كان ينتظرني ذلك اليوم والايام التالية ، مهما كانت الظروف . وكانت اميلي ما تزال نائمة في غرفة النوم ، وكنت انا متمدداً على ديوان غرفة الاستقبال اتقلب طويلاً في الظلّ ، مستعيداً ببطء ومشقّة امتلاك الواقع الذي كان النوم قد أنساني ايّاه .

ما الذي كان ينبغي لي ان أفعله ؟ وراجعت : كان عليّ ان اقرر هل اقبل ام ارفض سناريو « الاوديسة » ؛ وان اعرف سبب احتقار اميلي ؛ وان التمس الوسيلة لاكتسابها من جديد .

لقد قلت اني كنت أحسّني محطماً ، مرهقاً ، نافد القوى ؛ وهذه الطريقة المنهجية في تلخيص قضايا وجودي الحيوية الثلاث لم تكن في واقعها — كما لاحظت بسرعة — الا وهماً كنت اريد ان انسبه الى نفسي بامتلاك قوة وتبصر كنت بعيداً عن امتلاكها . ان جنرالاً او رجلاً سياسياً او رجل اعمال يجهدون بالطريقة نفسها لمعانقة القضايا التي ينبغي ان يحلّوها بأن يواجهوها كحاجات محسوسة ، جامدة ، سهلة الانقياد . ولكنّي لم اكن رجلاً من هذا الطراز ؛ وكنت واثقاً من ان هذه الطاقة وهذا التبصر اللذين كنت أجهد لابتعاثهما فيّ سأفتقدهما تماماً حين يجب

عليّ ان انتقل من الفكر الى العمل .

اني لم أكن اجهل نقصي ؛ لم أكن مخدوعاً ، وانا نائم على ظهري، مغمض العينين ، بما كان يحدث في داخلي : فأنا لا أكاد اريد تكوين جواب على اسئلتي الثلاثة ، حتى يغادر خيالي ميدان الواقع ليرتمي في سماء الميول الفارغة . واذن ، فقد كنت في الخيال أراني أنشيء سناريو الاوديسة ، كما لو ان شيئاً لم يكن ؛ وكان ينتهي بي الأمر الى تفاهم مع اميلي ، واكتشف ان حكاية الاحتقار هذه كلها التي هي مريعةٌ في الظاهر ، كانت قد وُلدت في الواقع من سوء تفاهم طفولي ؛ وكنت في نهاية المطاف اتصالح مع زوجتي . وبالاجمال . لم اكن اواجـــه الا النهايات السعيدة التي كنت أصبو اليها ، ولكن كان ينفتح بين هـــذه النهايات وبين وضعي الحاليّ هوّة لم يكن بوسعي ان اردمها الا بأشياء ليس لها اي طابع من الصلابة والانسجام . فلئن كنت أصبو الى حلّ الوضع وفق رغباتي الاثيرة ، فقد كنت اجهل اطلاقاً كيف السبيل الى بلوغ ذلك .

لقد كنت في غفوة بلا شك ، وقد استغرقت ثانية في النوم تماماً بعد فترة من الزمن . وفجأة استيقظت منتفضاً فرأيت اميلي في الروب ديشامبر ، جالسة عند اسفل الديوان . وكانت الغرفة ما تزال في الظلّ، والمصاريع مغلقة ، ولكن مصباحاً كان مضاءً على طاولة السرير الصغيرة. كانت اميلي قد دخلت ، فأضاءت المصباح وجلست عند قدميّ من غير ان اشعر بذلك .

واذ رأيتها في وضع عائلي مألوف كان يذكرني بيقظات اخرى تعود الى ازمان سعيدة ، خطر لي وهمٌ غامض ، فتمتمت وانا انهض :

— اميلي ، هلي تحبينني ؟

فتريّثت قبل ان تجيب ، ثم قالت :

— اسمع ، يجب ان احدثك ...

فهبط عليّ بردٌ شديد ، وكنت على وشك ان اقول لها اني لا اريد ان اتكلم عن شيء ، واني كنت راغباً ان أترك وشأني بأمان وان اعود الى النوم . وبدلاً من ذلك سألتها :

— عمّ تريدين ان تحدثيني ؟

— عنّا نحن .

فأجبت وانا أحاول ان املك القلق الذي كان يتسرب اليّ .

— ولكن ليس ثمة بعدُ ما يُقال ... انك لا تحبينني بعد .. انك تحتقرينني .. هذا كل شيء ...

فقالت بهدوء :

— كنت اريد ان اقول لك انني عائدة اليوم بالذات الى بيت امي . وقد حرصت عـلى ان أخبرك قبل ان اخابرها ... وها انت الآن تعرف هذا !

والواقع اني لم اكن قد تنبأت بهذا الخبر الذي كان مع ذلك منطقياً بعد ما حدث مساء الأمس . ولكن فكرة امكانية ان تتركني اميلي ، لم تكن قد خطرت لذهني اطلاقاً ، مهما بدا ذلك غريباً . كنت اعتقد انها كانت قد بلغت حدّ القسوة والوحشية معي ، وانها لا تستطيع ان تتجاوزه. ولكنها تتجاوز الآن ذلك الحدّ على نحو غير منتظر ألبتة . وتمتمت ، وانا لا اكاد افهم .

— تريدين ان تتركيني ؟

— نعم .

فلم أجد ما أجيب به ؛ ثم دفعني الالم الحادّ الذي كان يخترقني الى الى ان اعمل . فقفزت عن الديوان وتوجهت وانا في منامتي الى النافذة، كما لو اني كنت اريد ان ادفع المصاريع وأدخل النور ، ولكني توقفت وانا ألتفت وصحت بصوت مرتفع :

— ولكنك لا تستطيعين ان تذهبي هكذا ، انني لا اريد ذلك !

فقالت بصوت متعقل :

ــ لا تتصرف كالأطفال .. ان فراقنا هو الشيء الوحيد الذي يبقى امامنا ... ليس بيننا بعد من شيء ، على الاقل فيما يخصني ... وهــذا أفضل لنا كلينا .

لا ادري ما الذي فعلته بعد كلمات اميلي هذه ، او انني على الاصح لا اذكر الا بضع عبارات ، وبضع حركات . كان لا بدّ لي من أن أفعل واقول اشياء لم أكن أعيها قط ، كما لو اني كنت فريسة نوع قوي من الهذيان . وأظنّ اني مشيت بخطى واسعة في الصالة ، وانا مرتد مناميّ ، منفوش الشعر ، واخذت ابتهل تارة الى اميلي الا تتركني ، واشرح لها طوراً وضعي ، واحاور نفسي تارة ثالثة كما لو اني كنت وحيــداً : كان سناريو الاوديسة ، والشقة ، والاقساط التي ينبغي ان تُدفع ، ومطامحي المسرحية المضحى بها ، وحبي لاميلي ، ومناقشاتي مع باتيستا ورينغولد ، وجميع مظاهر حياتي واشخاصها تمتزج على شفتيّ في فيض من الكلمات المتنافرة ، عــلى غرار قطع زجاجية ملونة داخل صندوق للفرجة تهزّه يدٌ غاضبة. ولكني في الوقت نفسه كنت احس ان صندوق الفرجة هــذا لم يكن الا شيئاً مسكيناً مضحكاً ، مجرد قطع زجاجية ملوّنة ، مجمّعة بلا نظام ولا غاية ، وان هذا الصندوق قــد تحطم ، وكانت قطع الزجاج ملقاة على الارض شظايا تحت ناظريّ . وكنت احس في الوقت نفسه شعوراً واضحاً بالاستسلام والتخلي ورعباً من هذا الاستسلام ، ولكني لم اكن اتجاوز ذلك ، وانا مرهق ، ممتنع عن التفكير وحتّى عن التنفس . وكان كياني كله يتمرد بعنف على فكرة الفراق وفكرة الوحدة التي ستليه . ولكن رغم صدق هذا التمرد ، لم أكن أجد كلمة واحدة جديرة بأن تثني اميلي . وبين الفينة ، كانت غيمة التبرم والذعر التي تحيط بي تتبدد ، فكنت ارى اميلي جالسة على الديوان ، في المكان نفسه ، وهي تردد في سكون :

– ولكن فكر قليلاً يا ريشارد ... ان هذا هو الشيء الوحيد الذي نستطيع ان نفعله ...

– لا اريد . . لا اريد ...

– ولماذا ترفض ؟ كنت منطقياً ...

ولا ادري ما الذي أجبت به ، ولكني ظللت أذرع القاعة ، وفجأة أمسكت شعري بكلتا يديّ . وكنت احسني ، وانا في تلك الحالة ، عاجزاً عن اقناع اميلي ، بل حتّى عن مجرد التعبير عن رأيي . واستطعت بجهد ان اتمالك نفسي ، وان اعود لأجلس على الديوان ، وأن أسأل ، ورأسي بين يديّ :

– ومتى تذهبين ؟

– اليوم بالذات .

ونهضت آنذاك وخرجت من الغرفة دون ان تلوي . وهذا الذهاب الذي لم اكن كذلك أتوقعه ، شأن كل ما قالت وفعلت حتّى الآن ، خلّفني مشدوهاً . وحين نظرت فيما حولي ، داخلني شعورٌ غريب ، مُثلجٌ بدقته . كان الانتزاع قد أُنجز ، وكانت وحدتي قد بدأت .

كانت الغرفة هي نفسها التي كانت قبل بضع دقائق ، حين كانت اميلي جالسة على الديوان ، ولكن كل شيء كان مع ذلك مختلفاً ، كما لو ان بُعداً قد نقص . كان الهجر في الهواء ، في مظاهر الاشياء ، في كل مكان ؛ ومن عجبٍ انه لم يكن يصدر عني نحو كل ما كان يحيط بي ، بل كان يبدو صادراً من الاشياء نحوي . وهذا كله ، كنت افكر به اقل مما كنت اشعر به في غموض ، في اعماق حساسيتي المعتكرة ، المتألمة ، المشدوهة . ثم لاحظت اني كنت ابكي ، لأني بعد أن احسست تأكلاً عند زاوية شفتي ورفعت اصبعي اليهـا ، وجدت خدي مبللاً . وارسلت تنهدة عميقة ، واخذت ابكي باستسلام وبدموع غزيرة . وعند ذلك خرجت من الغرفة .

وفي غرفة النوم ، عَبْر نور بدا باهراً بعد عتمة الصالة ، فلم تحتمله عيناي المعتكرتان بالدمع ، لمحت اميلي جالسة على السرير المدعوك وهي تتلفن لأمها . وقد لفت نظري تعبير التبرّم والخيبة على وجهها . وجلست بالقرب منها ، ومضيت في البكاء ، ووجهي بين يديّ . لماذا كنت ابكي على هذا النحو ؟ انني لم اكن اميّز السبب جيداً ؛ ربما لم اكن ابكي كارثة حياتي وحدها ، بل بسبب ألم أشد غموضاً لم يكن له شأن بأميلي ولا بارادتها في ان تتركني . وكانت في هــذه الاثناء تتابع مخابرتها ؛ ولا بدّ ان امها كانت منطلقة في خطاب طويل ومعقد ، فقد كنت ارى عبر دموعي تعبيراً شارداً ، مستاءً ، مريراً ، يمر على وجهها ، سريعاً ومعتماً كظل غيمة على مناظر الطبيعة . وقالت اخيراً :

ـ حسناً ، حسناً ... لقد فهمت ... فلا نتحدث بعدُ بهذا ...

فقاطعتها امها في الجهة الاخرى من الخط . ولكن اميلي لم تملك هذه المرة الصبر على الاصغاء حتى النهاية ، فقالت فجأة :

ـ لقد سبق ان قلت لي ذلك ... حسناً ... لقد فهمت ... الى اللقاء.

ولا بد ان الام قد اضافت شيئاً ما ، ولكن فيما ظل صوتها يُصدي في الجهاز ، رددت اميلي بجفاء :

ـ الى اللقاء .

وعلقت السماعة . ثم نهضت ، وعيناها نحوي ، من غير ان تنظر اليّ مع ذلك ، كما لو انها في حلم . واذ ذاك تناولت يدها بتلقائية وتمتمت :

ـ لا تذهبي ... ارجوك ... لا تذهبي !

ان الاطفال والنساء اجمالاً والنفوس الضعيفة والطفولية يعلقون عــلى الدموع قيمة حاسمة من الاقناع العاطفي . وقد كنت في تلك اللحظة ، وانا ابكي في ألم صادق ، أغذي أملاً غامضاً بأن ارقق اميلي بدموعي، شأن الطفل او المرأة او الكائن الضعيف . ولئن كان هذا الوهم يعزبني

قليلاً ، فقد كان يمنحني في الوقت نفسه انطباعاً ما من الرياء ، كما لو اني كنت ابكي لغاية ، وكما لو ان دموعي كانت نوعاً من «الشانتاج» تجاه اميلي . وفجأة ، خجلت من نفسي ، ومن غير ان انتظر جواب زوجتي ، نهضت وعدت الى الصالون . ولم تلبث اميلي ان لحقت بي . وكان قد أتيح لي ان استرد نفسي وان امسح دموعي وان ألقي روب ديشامبر فوق منامتي . وكنت اشعل سيكارة لم تكن لي رغبة في تدخينها، وانا جالس في اريكة ، فقالت لي وهي داخلة :

— اطمئن ، ولا تخف ... فلن اذهب .

فنظرت اليها ، وكانت خافضة العينين ، وتبدو كأنها تفكر ، ولكني كنت ارى زاويتي شفتيها ترتعشان ، ويديها تقلبان طرف ثوبها في حركة تنم عن الاضطراب والشرود . وتابعت في لهجة كانت تتفاقم تدريجياً :

— ان امي لا تريدني ... وقد قالت لي انها قد أجرّت غرفتي لطالب ، وكان لديها طالبان ، مما يرفع العدد الى ثلاثة ، والبيت ملآن ... والحق انها لا تحمل قراري على محمل الجد ... وتطلب مني ان افكر ... فأنا اذن لا ادري اين اذهب : وانا مضطرة ان ابقى معك !

واصابتني هذه العبارة القاسية في صدقها اصابة عميقة ، واعتقد اني ارتعشت ، على اني لم استطع الامتناع عن الاحتجاج :

— ولكن لماذا تحدثينني بهذه اللهجة ؟ مضطرة ان ابقى معك ... ماذا عملت لك اذن ؟ لماذا تحقدين عليّ ؟

وكان دورها الآن في البكاء ، على غير رغبة منها في الظهور بهذا المظهر ، وهي تخفي عينيها بيدها . وهزت رأسها وقالت :

— انك لم تكن تريد ان اذهب ... فأنا اذن باقية ... ينبغي ان تكون مسروراً !

وغادرت اريكتي ، وجئت اجلس قريباً منها على الديوان،واخذتها بين ذراعي بالرغم من حركتها الغريزية في التراجع والمقاومة . وقلت :

— طبعاً اريدك ان تبقي ، ولكن ليس على هذا النحو : مضطرة وقسراً ... ما الذي فعلته لك يا اميلي حتى تحدثيني بهذه اللهجة ؟

— اوه ! اذا شئت ، فاني سأذهب ... سأجد غرفة استأجرها ... ولن يكون عليك ان تساعدني طويلاً ... سأعود الى مهنة الضرب على الآلة ... وما ان اجد عملاً ، حتى أكفّ عن طلب اي شيء منك .

فصحت : — ولكن لا ، اريد ان تبقي ، ولكن بلا قسر ، يا اميلي، بلا قسر ...

فأجابت وهي تبكي :

— لست انت الذي تقسرني ، انها الحياة .

ومرة اخرى ، فيما كنت آخذها بين ذراعي ، أغراني الموقف ان أسألها لماذا كفّت عن حبي ، ولماذا كانت تحتقرني : وما الذي حدث، وماذا فعلت لها . ولكني كنت قد استرددت طمأنينتي ، ربما بدافع من معارضة دموعها وتيهها . وقلت لنفسي ان اللحظة لم تكن مناسبةً لأسألها، وان اسئلتي لن تؤدي الى شيء ، وان من الافضل لبلوغ الحقيقة اللجوء الى وسائل اكثر اقناعاً . وانتظرت قليلاً ، فيما كانت ماضيةً في بكائها الصامت ، صارفةً وجهها عني . ثم قلت بهدوء :

— هيّا لنوقف كل نقاش ، وكل شرح لا يؤدي الا الى ايذائنا كلينا ... انني لا اريد ان اعرف عنك شيئاً بعد ، لهذه الفترة على الاقل .. فاستمعي اليّ : لقد قبلت في النهاية ان اقوم بكتابة سناريو الاوديسة ... ولكن باتيستا يريد ان نقوم بذلك في خليج نابولي حيث ستؤخذ معظم المناظر الخارجية ، ولهذا قررنا ان نذهب الى كابري ... واقسم لك انني لن ازعجك هنــاك ... وكيف استطيع ذلك حقاً ؟ سيكون عليّ ان اعمل طوال النهار مع المخرج ، ولن اراك الا ساعة

الطعام ... انّ كابري مكان رائع .. وعما قريب سيحل موسم السباحة: وسوف ترتاحين وتسبحين في البحر وتتنزهين ... وسوف تفكرين ، وعلى غير عجل ، ستقررين في الهدوء المسلك الذي ستسلكينه ... ان املك ، بعد كل حساب ليست على خطأ ، فيجب على المرء الا يتصرف الا بعد التفكير الناضج .. ثم بعد شهرين او ثلاثة ، تبلغينني قرارك ، وعند ذاك ، عند ذاك فقط سنتناقش فيه .

وكانت ما تزال صارفةً وجهها عني ، كما لتتجنب رؤيتي . ولكنها سألتني بصوت قد عاد اليه الاطمئنان تقريباً :

— ومتى سنذهب ؟

— فوراً ... اقصد في غضون عشرة ايام ... بمجرد ان يعود المخرج من باريس .

وكنت اتساءل الآن، وانا أضمها اليّ فاشعر باستدارة نهديها وطراوتهما، عما اذا كان بامكاني ان اجازف بتقبيلها . وفي الواقع ، لم تكن تشارك اطلاقاً في ضمّي ، وانما كانت تكتفي بتقبلها . غير اني كنت اتصور ان هذا الجمود لم يكن لامبالياً تماماً ، وربما كان يقنّع جاذبية ما خفية. ثم سمعتها تسأل بلهجة مستسلمة اكثر منها متمردة :

— اين نسكن في كابري ؟ في الفندق ؟

وأجبت بفرح لاعتقادي بأني كنت أسرّها :

— لا ، ليس في الفندق ، ان الفندق مضجر جداً .. فعندي افضل من ذلك...ان باتيستا يقدّم لنا مقصورته ... وستكون تحت تصرفنا ما دام عملنا في السناريو قائماً .

ولم اكد انتهي من الكلام حتى ادركت ، كما حدث منذ ايام حين قبلت دعوة باتيستا بأسرع مما ينبغي ، ان اميلي لم تكن ، لسببٍ من الاسباب ، موافقة على هذا المشروع . وبالفعل ، فانها سرعان ما تخلّصت من ضمّي ، وتراجعت الى الجانب الآخر من الديوان ، ورددت :

مقصورة باتيستا ؟.. وهل قبلت ذلك ؟

فقلت مدافعاً :

ـ كنت اعتقد ان هذا يسرّك...فالمقصورة اجمل وامتع من الفندق!

ـ لقد قبلت اذن ؟

ـ نعم ، وكنت أظنّ اني حسناً أفعل ...

ـ وسنسكن مع المخرج ؟

ـ لا ، فان رينغولد سينزل في الفندق .

ـ وباتيستا ، هل سيأتي ؟

ـ باتيستا ؟

ورددت هذه الكلمة وانا مندهش قليلاً لهذا السؤال :

ـ اعتقد انه سيأتي من حين لآخر .. فيقضي يوماً او يومين .. في عطلة الاسبوع .. ليرى اين وصلنا في عملنا ...

وصمتت هذه المرة ، ثم اخرجت منديلها من جيب الروب ديشامبر وتمخطت . وفي هذه الحركة ، انشقّ ثوبها حتّى قامتها ، كاشفاً عن بطنها وساقيها . وكانت قد شبكت ساقيها ، كما بدافع من حشمة ، ولكن بطنها الابيض الفنّي كان يفيض قليلاً عـلى فخذيها المعضلين في غزارة بريئة كانت تبدو اكثر تعبيراً من اي رفض . واذ كنت أنظر اليها ، فيما كان يبدو انها تهب نفسها على غير وعي منها ، استولت عليّ شهوة عنيفة ذات تلقائية لا شبيه لها ، اثملتني قليلاً بأمل امكان امتلاكها . وسرعان ما فهمت ، واحسرتاه ، أني لن افعل شيئاً ، رغم شهوتي ؛ واكتفيت بأن انظر اليها ، خلسة تقريباً ، كما لو اني كنت خجلاً من نظراتي . وكنت اقول لنفسي : هكذا اذن ، هذا ما وصلت اليه : ان انظر خلسة الى عُري زوجتي ، مع سحر الثمرة المحرمة ، كطفل يتلصص عبر احدى الفتحات على ما يجري داخل حمّام !

وفي حركة غاضبة ، سحبت الروب ديشامبر على الساقين المكشوفتين.

ولم يبد على اميلي انها لاحظت حركتي ، ولكنها قالت بصوت أستعاد هدوءه ، وهي تعيد منديلها الى جيبها :

ــ اوافق على ان اذهب الى كابري .. ولكن بشرط .

فصحت فجأة ، وقد نفد صبري :

ــ لا تتحدثي عن الشروط ... اننا سنذهب ، هذا متفق عليه ، ولكني لا اريد ان اعرف شيئاً ... والآن ، اذهبي ، اذهبي ...

ولا بد انه كان في صوتي نوع من الغضب المجنون ، لأنها نهضت فجأة ، وهي شبه مذعورة ، وغادرت القاعة على عجل .

الفصل الثاني عشر

ثم كان يوم السفر الى كابري . وكان باتيستا قد قرر ان يصحبنا الى الجزيرة ، ليعرفنا على البيت ، كما كان يقول لنا . وحين هبطنا الى الشارع ، وجدنا خلف سيارتي الصغيرة سيارة المنتج الضخمة الحمراء . وكنا في الايام الاولى من حزيران ، ولكن الطقس كان ما يزال متقلباً وغائماً ، وكانت الريح تزفر . وكان باتيستا واقفاً قرب سيارته ، وهو يرتدي سترة جلدية وبنطالاً من نسيج الصوف الخفيف ، وكان يتحدث الى رينغولد الذي كان يلبس ثياباً خفيفة مناسبة ، كالالمان الذين يعتبرون ايطاليا بلاد الشمس ، وكان يرتدي بذلة من النسيج المخطط مع قبعة بيضاء .

وخرجنا انا واميلي من البيت ، يتبعنا البواب والخادمة اللـذان كانا يحملان حقائبنا ؛ وما لبث رفيقانا أن أقبلا علينا ؛ وبعـد التحيات المألوفة ، سأل باتيستا :

— كيف نذهب ؟

ومن غير ان ينتظر جواباً ، قال :

— أقترح ان تأتي السيدة معي في سيارتي ، ورينغولد في سيارتك يا مولتيني ... وهذا ما سيتيح لكما ان تتحدثا عن الفيلم في اثناء الطريق .

وأضاف بلهجة رصينة وهو يبتسم :

— اليوم يبدأ العمل الحقيقي .. فأنا اريد ان يكـون السناريو بين يديّ في غضون شهرين .

ونظرت الى اميلي بصورة آلية تقريباً ، فلاحظت على وجهها هذا النوع من تحلل الملامح الذي كنت قد لاحظته مرات سابقة والذي كان يعني لديها تململاً واستياء . ولكني لم أعلّق عـلى ذلك أهمية ، كما لم أربط بين تعبير سحنتها وبين الاقتراح الذي قدمه باتيستا ، وهو اقتراح معقول بالفعل .

وقلت وانا اجهد في ان ابدو مرحاً ، كما يبـدو ان ظروف هذه الرحلة الى شاطيء البحر تقتضي :

— حسناً .. حسناً .. ان اميلي ستذهب معك ، ورينغولد معي ... ولكني لا أعِد ان اتكلم عن السناريو ..

وتدخلت اميلي تقول :

— انني اخشى السرعة ... وانت يا سيدي تقـود بسرعة كبيرة سيارتك هذه !

ولكن باتيستا اخذها من ذراعها باندفاع وهو يصرخ :

— ولكن لا مجال للخوف معي ... ثم ممّ تخافين ؟ انني حريص على روحي انا ايضاً !

وكان يجرّها الى السيارة فيما هو يتكلم . ورأيت اميـلي تنظر اليّ نظرة متسائلة ، خائفة ، وتساءلت الا ينبغي ان أحتفظ بهـا معي ؟ ولكني فكرت بان من الممكن ان يُجرح باتيستا من جراء ذلك ؛ لقد كان مهووساً بالسيارات ، وكان والحق يقال يقودها قيادة مدهشة ، فكان ان صمتُّ . واعترضت اميلي مرة أخرى ، في خجل :

— كنت افضل ان اذهب في سيارة زوجي ..

فاحتج باتيستا ، وهو يمزح :

– زوجك ؟ ما هو هذا الزوج ؟. ولكنك طـوال النهار مع زوجك ... هيا ، تعالي ، والا فسوف أغضب !

وكانا قد وصلا في تلك الاثناء قرب السيارة ، وكان باتيستا يفتح الباب ، فأخذت اميلي مكانها ، بينما استدار باتيستا ليصعد من الجانب الآخر . وكنت انظر اليهما ، حالمـاً ، وارتعشت لصوت رينغولد وهو يسألني :

– هل نحن مستعدان ؟

فانتفضت ، وصعدت بدوري ، وأدرت محرك السيارة .

وسمعت خلفنا هدير محرك سيارة باتيستا التي كانت تُقلـع ، ثم تجاوزنا وابتعد بسرعة في الشارع المنحدر الضيق . واتيح لي ان ارى لحظةً من الزجاج الخلفي اميلي وباتيستا جالسين احدهما قرب الآخر ؛ ثم اختفت السيارة عند المنعطف .

كان باتيستا قد اوصانا بان نتحدث عن السناريو في اثناء الطريق . وكانت توصية نافلة . ذلك انّا كنا قد اجتزنا المدينة على طولها بالسرعة المعتدلة التي كانت سيارتي تتيحها لي ، وكنت افضي الى طريق « فورميو » حين بدأ رينغولد الذي كان قد التزم الصمت حتى ذلك الحين ، يقول :

– قل لي بصراحة ، يا مولتيني ، لقد كنت تبـدو ذلك اليوم ، ونحن عند باتيستا ، خائفاً من ان تشارك في فيلم « ضخم » ..

فأجبت بشرود :

– وما زلت على خوفي نفسه ، بسبب الجو الذي يرين في الستديوهات الايطالية .

فقال بلهجة اصبحت فجأة قاسية ومتسلطة :

– ليس امامك ما تخافه .. فسوف نعمـل فيلماً بسيكولوجياً ، وبسيكولوجياً فقط .. كما سبق ان قلت لك .. فانا لم اعتد ، يا عزيزي مولتيني ، ان انطوي لرغبات المنتجين .. بل انا افعل ما اريد .. فانا ،

لدى اخذ المشاهد ، المعلّم وليس احدٌ سواي .. والا امتنعت عن اخراج الفيلم .. هذا شيء بسيط !

وكان شيئاً بسيطاً جداً بالفعل ، وانا اقول ذلك بلهجة مرحة ، لأن هذا التأكيد بالسيادة كان يجعلني أؤمل اتفاقاً ممكناً مع رينغولد لأقوم بعمل أقل اضجاراً من المعتاد . واستطرد رينغولد ، بعد فترة صمت :

— اود الآن لو اعرض لك بعض افكاري .. واظن انك قادر على قيادة السيارة والاصغاء اليّ في وقت واحد ؟

فقلت : — طبعاً !

ولكني في اللحظة التي كنت استدير فيها نحو رينغولد ، انبثقت عربة يجرها جاموسان من طريق معترضة ، فكان لا بدّ من ان اتوقف توقفاً عنيفاً جداً ، فاذا بالسيارة تنحرف الى جانب ، وترسم تعرجاً مفاجئاً ، وتحيد في مشقة عن شجرة كانت توشك ان تصطدم بها ، ولكني اوقفتها في الاوان . واخذ رينغولد يضحك :

— عجباً ! ما كنت اتوقع ذلك قط !

فقلت مغتاظاً بعض الشيء :

— لا تهتم لهذا انني لم اكن استطيع قط ان ارى هذين الجاموسين .. ولكنك تستطيع ان تتكلم ، فأنا مصغ اليك .

ولم يتوقف رينغولد لحظة ، بل انشأ يقول :

— اسمع يا مولتيني . لقد قبلت ان اذهب الى كابري .. ونحن بالفعل سنأخذ صور الفيلم الخارجية في خليج نابولي ، ولكن ذلك لن يكون الا الديكور ؛ اما بالنسبة للباقي ، فقد كان بوسعنا ان نبقى في روما .. وبالفعل ، فان درامة يوليسوس ليست درامة بحري او مكتشف او منفي ، بل هي درامة انسان ... ان اسطورة يوليسوس تصور قصة نموذج انساني معين .

فصرحت كيفما اتفق لي :

– ان جميع الاساطير اليونانية ليست الا تصوير الدرامات الانسانية بلا مكان ولا زمان ، الدرامات الخالدة ..

– صحيح جداً .. ان الاساطير اليونانية ، بعبـارة اخرى ، هي رموز للحياة الانسانية .. والآن ، ماذا ينبغي لنا ، نحن المحدثين ، ان نفعل لنبعث تلك الاساطير الموغلة في القدم والظلام ؟ يجب علينا ، قبل كل شيء ، ان نجد المعنى الذي يمكن ان تحمله لنا ، نحن بشر اليوم ، ثم ان نعمّق هذا المعنى ونفسره ونمثّل له .. ولكن بطريقة حيـة ، شخصية ، من غير ان ندع امهات الكتب التي استخرجها الادب اليوناني من هذه الاساطير ، تسحقنا ؛ لنأخذ مثـلاً : انت تعرف بلا شك مسرحية اونيل « الحداد يناسب الكترا » التي أخرجوا منها فيلماً ؟

– نعم ، أعرفها .

– كان اونيل قد فهم هو ايضاً هـذه الحقيقة البسيطة ظاهراً بانه يجب تفسير الاساطير القديمة بطريقة حديثة ، ومنها « الاوريستي » .. على اني لا احب « الحداد يناسب الكترا » ، وهل تعرف لماذا ؟ لأن اونيل قد خاف من اسخيل .. فقد فكر بان اسطورة اورست يمكن ان تفسر بعلم النفس التحليلي .. ولكنه لخوفه من الموضوع ، نقل الاسطورة نقلاً مبالغاً في حرفيته .. كتلميذ مجتهد يكتب موضوعه على دفتر من ورق مسطّر .. وبوسع المرء ان يرى الأسطر ، يا مولتيني ..

وسمعت رينغولد يضحك لفكرته ، مسروراً من نقده لاونيل .

وكنا نعبر آنذاك أرياف روما ، غير بعيد عن البحر ، بين روابٍ منخفضة مذهبة بالقمح الناضج ، مع بعض الاشجار الكثيفة هنا وهناك . ولا بدّ ان باتيستا قد سبقنا كثيراً ، لان الطريق ، على مدى النظر ، كانت خالية في الخطوط المستقيمة وعند المنعطفات . لا بدّ انه في تلك اللحظة قد سبقنا بخمسمئة كيلومتر ، هو الذي يسير بسرعة اكثر من مئة في الساعة .

وسمعت صوت رينغولد يتابع :

— ما دام اونيل قد فهم هذه الحقيقة بان الاساطير يجب ان تفسّر تفسيراً حديثاً وفق مكتشفات علم النفس الاخيرة ، فانه ما كان ينبغي له ان يحترم اكثر مما ينبغي الحجة ، بل ان يديرها ويقلبها ، ويبقرها ، ويجددها .. وهو لم يفعل ذلك في « الحداد يناسب الكترا » ولهذا جاءت مسرحيته باردة ومضجرة .. انها تأليف مدرسي .

— لقد بدت لي جميلة بما فيه الكفاية .

فلم يلاحظ رينغولد مقاطعتي اياه ، ومضى يقول :

— اننا ستفعل بالاوديسة ما لم يرد او ما لم يعرف اونيل ان يفعله بالاوريستي : ان نفتحها كما يُفتح جسمٌ بشري على طاولة التشريح ، فنفحص حركيّتها الداخلية ، ونفكك اجزاءها ثم نعيد تركيبها وفق المتطلبات العصرية ..

وكنت اتساءل ما هي غاية رينغولد من هذا ، وقلت كيفما اتفق لي :

— ان حركية الاوديسة معروفة : انها المفارقة بين حنين المنزل والاسرة والوطن ، وبين العقبات الكثيرة التي تحول دون العودة السريعة الى مسقط الرأس وسقف البيت .. ان كل اسير حرب ، كل منفي محتجز لاي سبب بعيداً عن بلاده ، بعد انتهاء الحرب ، هو على الارجح يوليسوس صغير على طريقته ..

فضحك رينغولد ضحكة تشبه بقبقة دجاجة :

— كنت انتظرك هنا .. المنفي ، الاسير .. ولكن لا ، يا مولتيني ، لا شيء من هذا .. انك تتوقف عند المظاهر ، عند الوقائع .. فاذا رؤي فيلم « الاوديسة » من هذه الزاوية ، فهو يتعرض لخطر ألاّ يكون الا فيلماً « ضخماً » للمغامرات ، كما يريده باتيستا .. ولكن باتيستا مخرج ، ومن الطبيعي ان يفكر على هذا النحو .. في حين انك

انت ، يا مولتيني ، مثقف .. انك ذكي يا مولتيني ، فاستعمل عقلك ، حاول ان تشغله ..

فقلت وانا متزعج بعض الشيء :

— هذا ما أفعله ، بل انا لا أفعل شيئاً آخر .

— لا ، انك لا تستخدم ذكاءك . فابحث جيداً ، وانظر عن كثب ، ولاحظ اول الامر شيئاً : ان قصة يوليسوس هي قصة علاقاته بزوجته .

فلم انبس هذه المرة بكلمة . وتابع رينغولد :

— ما الذي يلفت ذهننا اكثر شيء في الاوديسة ؟ انه بطء عودة يوليسوس ، قضاؤه عشرة اعوام لكي يعود الى بيته .. وخلال هذه السنوات العشر ، بالرغم من حبه المعلن لبينيلوب ، يخونها في الواقع ، كلما سنحت له الفرصة .. ويقـول لنا هوميروس ان بينيلوب كانت الفكرة الوحيدة ليوليسوس ، ورؤيتها من جديد كانت رغبته الوحيدة .. ولكن ، هل يجب علينا ان نصدقه ، يا مولتيني ؟

فقلت بلهجة لا تخلو من سخرية :

— اذا لم نصدق هوميروس ، فانا لا ارى حقاً مـن نستطيع ان نصدق !

— نصدق انفسنا ، نحن البشر العصريين ، الذين نستطيع ان نرى عبر الاساطير . اسمع : لقد توصلت ، بعد ان قرأت الاوديسة مراراً وتكراراً ، الى التفكير بان يوليسوس في الواقع ، ربما من غير ان يدرك ذلك ، لم يكن حريصاً على العودة الى بيته ، لم يكن يريد ان يلقى بينيلوب من جديد .. هذا هو استنتاجي الخاص ، يا مولتيني ..

وظللت على صمتي . وتشجع رينغولد بذلك ، فاستطرد يقول :

— ان يوليسوس هو في الواقع رجل يخشى ان يعود الى قرب زوجته ، وسنرى فيما بعد لماذا ، ولأنه يعاني هذا الخوف ، فهو يلتمس في نصف وعيه ان يخلق لنفسه عقبات حتى لا يعـود .. وليست روح المغامرة الشهيرة عنده الا رغبة لا وعية بابطاء عودته ، موزعاً نفسه في مغامرات

تقطعه وتصرفه بالفعل عن طريقه . وليس « شاريد » و « سكيلا » ولا « كاليبسو » و « الفياسيون » ولا « بوليفيم » و « سيرسيه » ، ولا الآلهة هم الذين يعارضون عودة يوليسوس : وانما هو نصف وعيه الذي يخلق له اعذاراً صالحة ليبقى هنا عاماً ، وهناك عامين ، وهلم جرا ..

هكذا : الى هذا التفسير الفرويدي كلاسيكياً كان رينغولد يريد ان يصل . وكنت مندهشاً فقط الا اكون قد فكرت بذلك من قبل ؛ لقد كان رينغولد ألمانياً ؛ وكان قد بدأ في برلين في موجة فرويد الاولى ، وكان قد مر في الولايات المتحدة حيث كان علم النفس التحليلي شائعاً ؛ فكان من الطبيعي ان يعمل على تطبيق مناهجه على الانسان الخالي من العقد خلواً تاماً : يوليسوس .

وقلت بجفاء :

— هذا بارع .. ولكني لا ارى بعد كيف يكون الامر ..

— لحظة ، يا مولتيني ، لحظة .. ان من الطبيعي اذن ، على ضوء تفسيري — وهو التفسير الوحيد الصحيح ، بعد الاكتشافات الاخيرة لعلم النفس الحديث — الا تكون الاوديسة الا القصة الصميمية لعدم التلاؤم الزوجي . اذا صح التعبير .. وقضية عدم التلاؤم هذا قد ناقشها يوليسوس وتعمقها كثيراً ، ولم يستطع ان يقهرها ويتغلب عليها الا بعد عشرة اعوام من الصراع ضد نفسه ، بقبوله الوضع الذي سببها. وبعبارة اخرى، فان يوليسوس ، طوال عشرة اعوام ، ظل يخلق لنفسه جميع المماطلات الممكنة، ويخترع جميع الاعذار حتى لا يعود الى منزله الزوجي ؛ بل هو يفكر اكثر من مرة ان يربط حياته بحياة امرأة اخرى .. ولكنه يتوصل اخيراً الى ان يمتلك نفسه ، ويعود .. والحال ان عودة يوليسوس هذه تعادل قبولاً للوضع الذي سبب ذهابه والذي كان يدعوه دائماً الى تأخير عودته ..

فسألته وانا مشدوه حقاً هذه المرة :

— اي وضع ؟ الم يذهب يوليسوس بكل بساطة ليشارك في حرب طروادة ؟

فردد رينغولد في نفاد صبر :

– مظاهر .. مظاهر .. ولكنني سأتكلم عن الوضع في « ايتاك » قبل ذهاب يوليسوس الى الحرب ، وعن كل شيء آخر ، حين اشرح لك الاسباب التي جعلت يوليسوس لا يعود الى ايتاك ويخشى استعادة الحياة الزوجية .. على اني أودّ ان الاحظ ملاحظة هامة : ان « الاوديسة » ليست مغامرة تمتد عبر الحيّز الجغرافي ، كما كان هوميروس يودّ ان يثبت لنا .. انها على العكس المأساة الداخلية ليوليسوس ، وجميع الظروف هي رموز نصف الوعي لدى يوليسوس .. انك طبعاً تعرف فرويد ، يا مولتيني ..

– نعم ، قليلاً .

– حسناً ! ان فرويد هو الذي سيكون رائدنا عبر نفسية يوليسوس ، لا « بيرار » بخرائطه الجغرافية وعلمه اللغوي الذي لا يشرح شيئاً .. اننا سنكتشف بدلاً من البحر الابيض المتوسط ، نفس يوليسوس ، او بالاحرى نصف وعيه ..

وقلت بحيوية ربما كان مبالغاً فيها ، اذ كنت منزعجاً بعض الشيء :

– واذن ، فقد كان غير مجد ان نقيم في كابري لنصنع درامة « صالونية » . لقد كان بوسعنا ان نعمل في غرفة مفروشة ، او في حيّ حديث من احياء روما .

ورأيت رينغولد يقذفني بنظرة مندهشة ومجروحة في الوقت نفسه ، ثم ينفجر بضحكة مستاءة ، كما لو انه كان يفضّل ان يحوّل الى المزاح نقاشاً لا يبشّر بالخير . وقد قال :

– الافضل ان نستأنف هذا النقاش في كابري ، في الهدوء . والحق انك لا تستطيع ، يا مولتيني ، ان تقود السيارة وان تناقشني في الاوديسة معاً .. فقُدْ السيارة اذن ، اما انا فسأتأمل هذا المنظر الرائع .

ولم اجرؤ على معارضته ؛ وقُدت السيارة صامتاً طوال ساعة تقريباً . واجتزنا ارض المستنقعات القديمة ، وعن يميننا القنال البطيء ، الكسول ، وعن يسارنا السهل الاخضر الذي اخصبه الريّ . وهذه « سيسترنا » .. ثم « تيراسينا » . وبعد ان اجتزنا هذه المدينة ، بدأت الطريق تحاذي البحر ، وكانت في الجهة المقابلة سلسلة من الجبال الصغيرة الصخرية المحترّقة بالشمس . ولم يكن البحر هادئاً ؛ وقد كان يبدو ، فيما وراء التلال الرملية ، الصفراء والسمراء ، ذا لون أخضر يحدس المرء انه صادرٌ عن رمال الاعماق التي كانت عاصفة شديدة قد حركتها . وكانت امواج كبيرة ترتفع في رخاوة وتأتي لتغمر الشاطيء الضيق بمياهها البيضاء المزبدة . اما في عرض البحر فقد كانت المياه معتكرة بشكل واحد ، وكان لونها الاخضر يتغير الى ازرق شبه بنفسجي كانت الرياح تُرسل اليه أكاليل من الزبد بيضاء . اما السماء ، فكانت تكشف الفوضى المتحركة المتغيرة نفسها : غيوم بيضاء تركض في كل اتجاه ، وفرجات لازوردية واسعة يكنسها ضوء مشعّ مُعمٍ ؛ وطيور بحر مرفرفة ، تنقضّ على الامواج ، وتحلق كما لو انها كانت تسعى بطيرانها الى مساعدة دوامات الريح وهبّاتها . وقد كنت اقود سيارتي ، وعيناي محدّدتان على هذا الديكور البحري ، وفجأة ، كما لأجيب على الندم الذي اوحى لي به نظر رينغولد المندهش المجروح حين وصفت تفسيره ليوليسوس بأنــه « درامة صالونية » ، قلت لنفسي ، اني بعد كل حساب ، كنت على خطأ . وسوف يكون من اليسير ، امام هذا البحر ذي الالوان الحية ، وتحت هذه السماء المشعة ، بحذاء هذا الشاطيء القاحــل ، ان اتصور سفن يوليسوس تتهادى فوق الامواج وتتجه نحو اراضٍ ما تزال عذراء ، يجهلها البحر الابيض المتوسط . وانما اراد هوميروس ان يصف بحـراً كهذا ، وسماء وشاطئاً مماثلين ، مع اشخاص مصنوعين على صورة هذه الطبيعة التي كانوا يملكون منها البساطة العريقة والايقاع المحبوب . كان

كل شيء هنا ، ولكن هذا وحده . وها أن رينغولد يريد ان يصنع من هـذا العالم الملوّن المضيء الذي تنعشه الريح ، وتنيره الشمس ، وتعمره كائنات دقيقة جريئة ، نوعاً مـن التجويف الاحشائي المشوّه المتقع ، لا شمس فيه ولا هواء : نصف وعي يوليسوس . ان الاوديسة على هذا النحو ، لن تكون بعدُ المغامرةَ المدهشة لاكتشاف البحر الابيض المتوسط ، الذي كان في إبّان طفولة البشرية ، بل ستكون الدرامة الداخلية لإنسان معاصر هو فريسة تناقضات عُصابية .

واستنتاجاً من هذه التأملات ، قلت لنفسي انه لم يكن ممكناً لي ، في معنى من المعاني ، أن أقع على سناريو أسوأ من هذا : فقد كان ينضاف الى نزعة السينما المألوفة في تغيير ما ليس بحاجة للتغيير الى ما هو أسوأ ، غموضُ علم النفس التحليلي الآلي التجريدي ، حين يُطبق على اثر فني محسوس وحر ، كالاوديسة .

وكنا في تلك اللحظة نمرّ على مقربة من البحر ؛ وعلى حافة الطريق ، كانت ثمة أغصان دوال ضخمة مزروعة في الرمل تقريباً ، ثم زقاق ضيق من الحصى سوّدته نفايات البحر ، وكانت امواج كبيرة نادرة تنهار عليه بين الفينة والفينة بالزبد المتموّج . واوقفت السيارة فجأة ، وقلت بلهجة موجزة :

— انني بحاجة الى ازالة خدر ساقيّ .

وخرجنا من السيارة ، فسلكت زقاقاً صغيراً يؤدي ، عبر الدوالي ، الى الشاطيء ..

وقلت شارحاً لرينغولد :

— ها هي ثمانية اشهر وانا اعيش مسجوناً ، ولم أر البحر منـذ الصيف الماضي ، فلنذهب لحظة الى حافة الماء .

فتبعني في صمت ؛ أتراه كان ما يزال حانقاً ، وهو يعبس فيّ ؟ وكان الزقاق يتعرج على طول خمسين متراً عبر الدوالي ويحتضر عـلى رمال

الشاطيء . وها أن صخب الامواج التي تتراكب وتتحطم في فوضى ، يحل الآن محل هدير المحرّك الآلي . ومشيت لحظة ، وانا اغامر بالسير تارة على الرمل المبتلّ اللمّاع ، وانسحب تارة اخرى وفق تقدّم الامواج او انسحابها . وتوقفت اخيراً على رابية ، وظللت ساكناً وقتاً طويلاً ، وعيناي ضائعتان في الافق . وكنت أحسّ اني كنت قد ازعجت رينغولد ، وانه كان عليّ ان استأنف الحديث ، وانه كان ينتظر ان انفّذ ذلك . وبالرغم من انه كان يزعجني جداً ان اقطع تأمّلي النشوان، قررت ان اتكلم :

– المعذرة ، يا رينغولد ، ربما كنت قد اسأت التعبير منذ حين ، ولكني أصارحك بأن تفسيرك لم يقنعني تماماً ... وانا مستعدّ ان ابيّن لك السبب ، اذا شئت .

وسرعان ما اجاب في تواضع :

– تكلم ... تكلم ... إن النقاش جزء من عملنا ، أليس كذلك ؟

فاستطردت من غير ان انظر اليه :

– انني لا اناقش بأنه يمكن للاوديسة ان يكون لها المعنى الذي تشير اليه .. ولكني اقول إن المزايـــا المميّزة للأشعار الهوميروسية ، وللفن الكلاسيكي بالاجمال ، هي انها تغطّي جميع المفاهيم التي يمكن ان تبرز لاذهاننا الحديثة ، في شكل أصفه بأنه عميق ...

واضفت في عصبية مفاجئة وغير قابلة للتفسير :

– اقصد ان جمال الاوديسة يكمن في هذا الايمان بالواقع كما هو ، كما يبدو لنا موضوعياً ... في هذا الشكل الذي لا يسمح بتحليله ، والذي هو ما هو : فإما ان يؤخذ او يُترك ...

وتابعت اقول من غير ان انظر الى رينغولد ، وعيناي متجهتان نحو البحر :

– إن عالم هوميروس، بعبارة اخرى هو عالم واقعي . وقد كان هوميروس

ينتمي الى حضارة نمت وفقاً للطبيعة ، لا ضدّها ؛ من اجل هذا كان يؤمن بحقيقة العالم المحسوس ؛ وكان يراه حقاً كما تخيّله ... واذن ، فأنا أعتقد ان علينا ان نأخذه كما هو ، بأن نؤمن به حرفياً ، كما آمن به هوميروس ، من غير ان نبحث فيه عن معنى خفيّ .

وصمتّ ، لا لأنني هدأت ، بل على العكس لانني اغتظت كثيراً لمحاولتي التفسيرية ، كما لو انني بذلت جهداً لاجدياً . وبالفعل ، فلم يتأخر جواب رينغولد ، فقال وهو يطلق ضحكة انتصار هذه المرة :

ـ تعلّق بالظاهر .. تعلّق بالظاهر ... يا عزيزي مولتيني ! انك كجميع اللاتينيين ترى الاشياء من الخارج ، ولا تدرك ان بامكاننا ان نراها من الداخل .. ومع ذلك فلا ضير هناك .. فانا حريص على الاستبطان ، انك ايجابي : من اجل هذا بالذات اخترتك ... ان طبيعتك ستوازن طبيعتي ... وسترى ان تعاوننا سيسير على خير ما يرام!

وكنت اوشك ان اردّ عليه ، واعتقد ان ردّي كان سيزعجه مرة اخرى ، لاني كنت احسّني من جديد مغتاظاً بعناده وبذهنه المحدود ، حين ارتفع من خلفنا صوتٌ نعرفه جيداً يقول على حين غرّة :

ـ رينغولد ، مولتيني ، ماذا تفعلان ؟ انكما تتبردان على شاطيء البحر ؟

فالتفت ، ورأيت في ضوء الصباح الباهر طيفي باتيستا واميلي على احدى الروابي المرتفعة .

وهبط باتيستا نحونا بسرعة وهو يلوّح بيده على سبيل التحية . وكانت اميلي تتبعه بشكل أبطأ ، وعيناها في الارض . وكان كل شيء لدى باتيستا ينمّ عن حيوية وثقة اشد بروزاً من المألوف ، في حين أن موقف اميلي كان يبدو وكأنه يعبّر عن المزاج المعتكر والاضطراب ونوع من الإكراه .

وناديت باتيستا ، وانا دهش :

– كنا نظنكما متقدّمين علينا كثيراً ... وربما حتّى « فورميا » او أبعد منها ...

فأجاب باتيستا في لامبالاة :

– لقد سلكنا اطول الطرق .. وقد أردت ان أُطلع زوجتك على احد املاكي في جوار روما حيث ابني مقصورة لي ... ثم وجدنا طريقين مسدودين ...

والتفت الى رينغولد ، واستطرد :

– هل كل شيء على ما يرام ، يا رينغولد ؟ هل تحدثتما عن الاوديسة ؟

فأجاب رينغولد بالاسلوب البرقي نفسه ، من تحت حافة قبعته البيضاء:

– كل شيء جيد .

وكان واضحاً ان وصول باتيستا كان يزعجه ؛ وقد كان يوثر المضيّ في النقاش معي .

– حسناً ... هذا ممتاز ...

ثم أخذنا باتيستا بودّ من ذراعينا وجرّنا نحو اميلي التي كانت قد توقّفت غير بعيد ، على الشاطيء ، وقال في تأدب بدا لي غير محتمل:

– واذن ، يا سيدتي الجميلة ، عليك ان تقرري : هل نتناول الغداء في نابولي ام في فورميا ، اختاري ...

فأجابت اميلي ، كما لو انها أُخذت على غرّة :

– قرروا ذلك فيما بينكم ... ان الامر بالنسبة لي سواء .

– ولكن لا ! أن السيدات هن اللواتي يقرّرن !

– إذن لنتناول الغداء في نابولي ، فأنا الآن لست جائعة .

– اتفقنا : في نابولي ... حساء السمك بالطماطم ... والاوركسترا التي تعزف « اوسولوميو » !

مما لا شك فيه ان باتيستا كان منطلق المزاج . وسأل رينغولد :

– في اية ساعة تتجه الباخرة الى كابري ؟

– في الساعة الثانية والنصف . فمن المستحسن أن نذهب .

واتجه باتيستا نحو الطريق ، من غير ان ينتظر بعد . فتبعه رينغولد وهو يمشي الى جانبه . اما اميلي ، فانهـــا بعكس ذلك ، لم تتحرك ، وبدت وهي تتأمل البحر ، كما لو انها تريد ان تترك رفيقينا يسبقاننا ولكني ما كدت أدركها حتى تناولت ذراعي وقالت لي بصوت خافت:

– اريد ان اذهب الآن في سيارتك ... فحاول الا تخالفني .

فأدهشتني لهجتها العجلى ، وقلت :

– ولكن ، ماذا حدث ؟

– لا شيء ، سوى ان باتيستا يقود سيارته بأسرع مما ينبغي !

وسلكنا الممرّ في صمت . واذ بلغنا الطريق امام السيارتين الواقفتين، اتجهت اميلي بخطوة عازمة نحو سيارتي . وصاح باتيستا :

– ايه ! الا تأتي السيدة مولتيني معي ؟

والتفتّ : كان باتيستا واقفاً قرب باب سيارته المفتوح ، عـــلى الطريق التي تغمرها الشمس . اما رينغولد ، وكان ما يزال بين السيارتين، وهو في حيرة ،فكان ينظر الينا على التوالي . فقالت اميلي في هدوء من غير ان ترفع صوتها :

– انا ذاهبة مع زوجي هذه المرة ... وسنلتقي في نابولي ...

وكنت أظن ان باتيستا لن يلحّ . ولكنه ، بعكس ذلك ، أسرع الينا يقول :

– ولكن ، يا سيدتي ، ستبقين طوال شهرين مع زوجك في كابري...

ثم أضاف بصوت منخفض ، حتى لا يسمعه المخرج :

– وانا .. قد ضجرت في روما من صحبة رينغولد ؛ واؤكد لكما انه لا يسلّي ! وليس لدى زوجك بالتأكيد ايّ اعتراض على ان تأتي معي ، أليس كذلك ، يا مولتيني ؟

ولم يسعني الا ان اجيب ، على مشقة مع ذلك :
— على الاطلاق ... ولكن اميلي تقول لي انك تسوق بسرعة تتجاوز الحدّ المعقول !
فقال باتيستا بلهجة عاجلة ومازحة ، في وقت واحد :
— سأسير كالبزّاقة ... ولكني أرجوكما الا تدعـاني وحدي مع رينغولد ...
وأضاف هامساً :
— ليتكما تعرفان كم هو مضجر ! انه لا يتكلم الا في السينما ...
ولا أدري لأي دافع خضعت . ربما فكرت بأن عذراً تافهاً كهذا لم يكن يبرّر إغضاب باتيستا . فقلت ، حتى من غير ان افكر :
— هيا ، يا اميلي .. انك تريدين طبعاً ان تسرّي باتيستا .. والواقع انه على حقّ .. فان المرء لا يستطيع مع رينغولد ان يتكلم الا عن السينما!
فأكد باتيستا ذلك راضياً :
— هذا صحيح .
ثم أخذ اميلي من اعلى ذراعها ، فيما تحت الإبط ، وهو يقول :
— هيّا يـا سيدتي الجميلة ، لا تكوني خبيثة .. إنني أعِدُك ان أسير ببطء !
ورمتني اميلي بنظرة لم اعرف لحظتذاك كيف أصفها ، ثم أجابتني بهدوء :
— ما دمت راغباً في ذلك ... هيّا ، في الطريق !
وتركت لباتيستا ان يقودها من ذراعها ، كما لو انه كان يخشى ان تفرّ . وظللت متردداً امـام سيارتي وانا ارى باتيستا واميلي يبتعدان . وكانت تمشي الى قربه ، وهو ربعٌ أقصر منها ، بخطوة لامبالية ومشية عابسة كان يبدو انها تكشف مع ذلك شهوانية كثيفة وغريبة . لقد بدت لي فجأة جميلة جداً ؛ لا على انهـا « السيدة الجميلة » البورجوازية

التي كان يوحي بها باتيستا بصوته المعدنيّ النافد الصبر ، بل على انها جميلة جمالاً صادراً من اعماق العصور ، ومنسجماً مع البحر المتلألىء والسماء المشعّة التي كانت قامتها الطويلة تقف دونها . وقد كان لهـذا الجمال تعبير مقهور قلق لم اكن أعرف إلامَ أعزوه . وفيما كنت اتأملها عبرت ذهني فكرة مفاجئة : « كم انت سخيف ! ربما كانت تريد ان تبقى معك وحدها ، ربما كانت راغبة في التحدث اليك ، في ان توضّح موقفها مرة والى الابد ، في ان تسرّ اليك بشجونها ... ربما كانت تريد ان تقول لك إنها تحبك ... وها أنت تجبرها على ان تذهب مع باتيستا ! »

وأحسست بحسرة مريرة ورفعت ذراعي كما لأناديها . ولكن الاوان كان قد فات ، اذ انها قد صعدت الى سيارة باتيستا . وكان هذا قد اتخذ مكانه بدوره ، وكان رينغولد يتجه نحوي . واستقللنا كلانا سيارتي. وفي اللحظة ذاتها ، تجاوزتنا سيارة باتيستا ، وصغرت تحت انظارنا ثم اختفت في البعيد .

ولا شك ان رينغولد قد لاحظ تعكر مزاجي العنيف ، ذلك انه بدلاً من ان يستأنف حديثه عن الاوديسة ، كما كنت أخشى ، خفض قبعته على عينيه ، وتجمّع فوق مقعده ، وما لبث ان اغفى . وهكذا قُدت في سكون ، دافعاً سرعة سيارتي المسكينة الى الحد الاقصى ؛ وكـان تعكر مزاجي ، من جراء ذلك ، يزداد ويتفاقم . وكانت الطريق قـد ابتعدت عن البحر ، وكانت تجتاز آنذاك ريفاً باذخاً تذهّبه الشمس . ولو كنت في وضع آخر لوقعت تحت سحر تلك الاشجار الكثيفة التي كانت احياناً تشكل فوق رأسي قبّة من الورق المخضوضر ، واشجار الزيتون تلك الرمادية المنتشرة على مدى النظر على الروابي الحمر ، وتلك الادغال من شجر البرتقال ذات الاوراق البرّاقة والمعتمة التي كان يشعّ خلالها ذهب الاثمار ، وتلك المزارع القديمة المسودّة بالسنين التي كان يحرسها كومتان او ثلاث من التبن الاشقر !

ولكني لم اكن ارى شيئاً ، كنت اقود السيارة فيزداد حنقي مع مرور الزمن . ولم اكن ألتمس تحديداً للسبب الذي كان يتجاوز بكل تأكيد مجرّد الندم لأني لم الحّ على الاحتفاظ باميلي قربي . والحق اني لــو اردت ان احلّل نفسي ، لما كان ذهني المعتكر بالعصبية قادراً على ذلك. إن مزاجي المستاء الذي كان اشبه بتشنّج عصبي لا يُقاوم ، ثم يخفّ تدريجياً وينقطع مخلّفاً المريض في الانحطاط والألم ، بلغ أوجه فيما كنا نجتاز الحقول والغابات والسهول والجبال ، ثم خفّ وتلاشى نهائياً عند وصولنا الى نابولي . وكنا نهبط بسرعة من الروابي نحو البحر ، بين أشجار الصنوبر والمانوليا ، ونحو الخليج الازرق ، وكنت احسني مسترخياً واهناً ، أشبه برجل مصاب بالصرع حطّمه روحاً وجسداً تشنّج عنيف لا يحتمل المقاومة .

الفصل الثالث عشر

كانت مقصورة باتيستا ، كما علمنا لدى وصولنا الى كابري ، بعيدة عن وسط التجمع ، في زاوية خالية من زوايا الشاطىء ، مقابل شبه جزيرة « سورانتا » . وبعد ان رافقنا رينغولد الى الفندق ، سلكنا ، باتيستا واميلي وانا ، الطريق الضيق الذي يؤدي بنا الى المقصورة .

وكان طريقنا يتبع اولاً زقاق النزهة المظللة الـــذي يستدير حول الجزيرة . وكان المغيب قريباً ، وكان اشخاص قليلون يمرون تحت ظل أشجار الغار المزهرة ، فوق الارض المبلطة ، بين جدران الحدائق الكثيرة. وهنا وهناك ، بين اشجار الصنوبر والخرنوب ، كان يُلمح البحر البعيد في ازرقاق قاسٍ كانت تضربه الاشعاعات المتلألئة الباردة للشمس الغاربة.

وكنت امشي خلف باتيستا واميلي ، وانا اتوقف بين الفينة والفينة لأتأمل جمال الطبيعة . وللمرة الاولى منذ وقت طويل كنت احسني سعيداً، او على الاقل هادئاً مرتاح النفس ، وهذا ما ادهشني . وعبرنا درب النزهة بطوله ، ثم دلفنا الى ممر اضيق . وفجأة ، برزت لنا عند احد المنعطفات صخور « الفارغليوني » العالية ، وسرني ان اسمع اميلي ترسل صيحة انشداه واعجاب . وكانت تلك هي المرة الاولى التي تقصد فيها كابري ، ولم تكن حتى ذلك الحين قد فتحت فمها . وكانت الصخور

الكبيرة الحمراء تسحر النظر بغرابتها وشبهها ، وهي على سطح البحر ، برُجُم ساقطة من السماء على مرآة . ورويت لأميلي ، وانا مبهور بهذا المنظر ، ان المرء يجد على صخور « الفارغليوني » نوعاً من الحرذون غير موجود في اي مكان آخر : حرذون ازرق اللون لشدة ما عاش بين لازورد السماء وزرقة البحر . وقد اصغت لي باهتمام كما لو انها نسيت لمدة لحظة شعورها العدائي نحوي . ولم يسعني انا الا ان اداعب املاً جديداً بالمصالحة . وفي ذهني ، كان هذا الحرذون الازرق الذي كنت اصفه قابعاً في شقوق الصخور ، يصبح رمزاً لما يمكن ان نكونه نحن انفسنا اذا كنا سنبقى طويلاً في هـــذه الجزيرة : ان روحنا ستتلبس اللازورد ، في هدوء هذا المكوث البحري ، بعد ان تكون قد اغتسلت رويداً رويداً من سواد افكارنا المدنية الحزينة ، فتشع بلازورد داخلي ، على صورة هذه الحراذين ، وعلى صورة البحر والسماء وكل ما هو نورٌ وصفاء وفرح .

ومضى الممر ، فيما بعد الفاراغليوني ، متعرجاً بمحاذاة المنحدرات الجرداء الخالية من السكان والحدائق . وبدا لنا اخيراً ، في ركن منعزل ، بناء طويل منخفض يمدّ سطيحته الكبيرة فوق مياه البحر : مقصورة باتيستا .

لم يكن البيت واسعاً : فانه بالاضافة الى غرفة الجلوس التي كانت منفتحة على السطيحة ، لم يكن ثمة الا ثلاث غرف اخرى. وكان باتيستا يتقدمنا ، وهو يقوم بدوره كمالك ، فشرح لنا ببعض المباهاة انه لم يسبق له قط ان عاش في هذه المقصورة التي كان يمتلكها منذ عام تقريباً، والتي تخلى له عنها احد مدينيه كجزء من دينه . واخبرنا ان كل شيء كان ملحوظاً بالنسبة لوصولنا : فهناك زهور في آنية الصالون ، والبلاط عاد يلمع من جديد فكانت تنبعث منه رائحة شمع قوية ، وحين اقتربنا من المطبخ ، كانت هناك امرأة الحارس منشغلة في الفرن ، وهي تعدّ

لنا العشاء . وكان يبدو على باتيستا انّه مهتمّ بأن يرينا كل تسهيلات المقصورة ، وقد اراد ان نزورها بكل تفاصيلها ، ودفع لطفه الى حد فتح الخزائن ، وهو يسأل اميلي ان كان ثمة مشاجب كافية . ثم عدنا الى الصالون . وتحججت اميلي بأنهـا كانت تريد ان تغير ثيابها ، وخرجت . وودت ان أحذو حذوها ، ولكن باتيستا منعني من ذلك وهو يجلس في أريكة ويطلب مني ان افعل مثله . واشعل سيجارة ، وقال لي بشكل غير منتظر ، وبلا مقدمات :

– قل لي ، يا مولتيني ، ما هو رأيك برينغولد ؟

فأجبت وقد فوجئت بعض الشيء :

– لا ادري ... انني لا اعرفه معرفة كافية لاصدار حكم عليه ... ولكنّ شعوري هو انه انسان رصين جداً ... واعتبره مخرجاً ممتازاً ...

وفكر باتيسنا لحظة ، ثم قال :

– اسمع يا مولتيني ، انا ايضاً اعرفه قليلاً ، ولكني اعرف ماذا يفكر وماذا يريد ... انه قبل كل شيء الماني ! ونحن ، كلانا ، على العكس ايطاليان : وهذان عالمان ، مفهومان للحياة ، حساسيّتان !

فلم اقل شيئاً ؛ كان باتيستا ، على عادته ، يتناول الامور من بعيد : خارج كل مسألة مادية ، وكنت انتظر لأرى ما هي غايته . واستطرد يقول :

– ولئن اردت ان اضعك انت ، الايطالي ، بجانب رينغولد ، فذلك لأني أحسّه مختلفـاً عنا كل الاختلاف ... ان لي ملء الثقة بك ، يا مولتيني ، وقبل ان اذهب ، لانّ عليّ من سوء الحظ ان اذهب بأسرع ما استطيع ، فاني حريص على ان اقدم لك بعض التوصيات .

فقلت ببرودة :

–انني مصغ اليك .

– لقد لاحظت رينغولد في اثناء مناقشتنا للفيلم : فأما ان يعطيني

الحق ، او ان يصمت ... ولكني قد جربت البشر اكثر مما ينبغي لكي اؤمن بمثل هذا الوضع ؛ انكم ، انتم المثقفين يا مولتيني ، انكم جميعاً ، بلا استثناء ، تفكرون بأن المنتجين ليسوا الا رجال اعمال ، ولا شيء غير ذلك ... لا تعطيني تكذيباً لذلك ، يا مولتيني ، فهذا هو رأيك ، وهو كذلك رأي رينغولد .. والحال ان هذا صحيح الى حدّ مـا .. وربما كان رينغولد يفكر بانامتي بسلوكه السلبي ، ولكن عينيّ مفتوحتان على سعتهما ، يا مولتيني ، على سعتهما !

فقلت بلهجة جافة :

– هل يعني هذا اجمالاً انك غير واثق برينغولد ؟

– انا واثق وغير واثق ... انني اثق به كتكتيكي ، كرجل مهنة .. ولكني لا اثق به كألماني ينتمي الى عالم مختلف عن عالمنا ..

ووضع باتيستا سيجارته على المنفضة ونظر في عينيّ ، ثم تابع :

– ليكن مفهوماً يا مولتيني اني اريد فيلماً قريباً الى ابعد حد ممكن من اوديسة هوميروس . أية فكرة قادت هوميروس في الاوديسة ؟ لقد اراد ان يروي مغامرات تملك على القارىء دائماً انفاسه ، قصة ، لنقل مسرحية ... هذا ما اراد هوميروس ان يصنعه .. وانا اريد ان تظلاّ امينين على هذا المفهوم .. ان هوميروس يصوّر لنا في الاوديسة عمالقة وعواصف وسحرة وشياطين ، وأنا اريد ان تطورا لنا عمالقة وعواصف وسحرة وشياطين ...

فقلت له وانا شبه مشدوه :

– ولكننا سنريك ذلك ...

فردد باتيستا بحماسة مفاجئة :

– سنريك ذلك ... سنريك ذلك ... ربمـا كنتما تعتبرانني أبله ، يا مولتيني ، ولكني لست بالأبله ...

وكان قد رفع صوته ، وجعل يحدجني بنظرة يتطاير منها الشرر .

وقد ادهشني نفاد الصبر هذا المفاجىء ، وادهشتني اكثر من ذلك حيوية باتيستا الذي كان قد قاد سيارته طوال النهار ، وعبر الطريق من نابولي الى كابري ، وكان ما يزال راغباً في مناقشة نوايا رينغولد ، بدلاً من ان يرتاح كما كنت افعل لو كنت مكانه . وقلت برخاوة :

– ما الذي يجعلك تفكر بأنني ... اعتبرك أبله ؟

– موقفكما انت ورينغولد .

– أفصح .

وتناول باتيستا سيجارته ، وقد عاوده بعض الهدوء ، ثم أضاف :

– انك تذكر اليوم الذي لقيت فيه رينغولد للمرة الاولى في مكتبي... لقد قلت لي يومذاك ، انك لا تشعر بأنك قادر على ان تعمل فيلماً « مسرحياً » ، أليس كذلك ؟

– نعم ، يبدو لي ذلك .

– وماذا قال لك رينغولد ليردّ لك اطمئنانك ؟

– لا اذكر هذا جيداً .

– انني سأرطب لك ذاكرتك ... لقد قال لك رينغولد انه ينبغي الا تعذب نفسك ، لانه كان ينوي القيام بفيلم بسيكولوجي ، فيلم عن الحياة الزوجية ليوليسوس وبنيلوب ، أليس كذلك ؟

فزادت دهشتي : لقد كان باتيستا ، تحت قناعه الوحشي ذاك ، أرقّ مما كنت اظنّ ، وأجبت :

– نعم ، اظن انه قال لي شيئاً من هذا القبيل ...

– حسناً ، ما دام السناريو لم يبدأ بعد ، ولم يُفعل شيء بعد ، فمن المستحسن ان احذرك بكل جدّية . ان الاوديسة في رأيي هي شيء آخر غير الصعوبات الزوجية ليوليسوس وبينيلوب .

وصمتّ ، ثم استطرد باتيستا بعد توقف قصير :

– حين اريد ان اعمل فيلماً عن الحياة الحميمة بين زوج وزوجته ،

آخذ رواية عصرية ، وانا لا أترك روما ، بل آخذ الفيلم بين غرف النوم والاستقبال ، ولا اذهب لأزعج هوميروس والاوديسة ... هل ادركت قصدي ، يا مولتيني ؟

— نعم ، نعم ، فهمت .

— ان العلاقات بين الزوج والزوجة لا تهمني ، لو تعلم، يا مولتيني ! والاوديسة ، في نظري ، هي قصة مغامرات يوليسوس خلال رحلة العودة الى ايتاك ، والفيلم الذي اريده هو فيلم مغامرات يوليسوس ... اقول لك ذلك بوضوح حتى لا يبقى ثمة اي شك ممكن ؛ انني اريد فيلماً مسرحياً ، مسرحياً ، هل تسمع ، يا مولتيني ؟

فقلت متزعجاً بعض الشيء :

— حسناً ، ستحصل على فيلم مسرحي .

ورمى باتيستا سيكارته وتابع بلهجة عادية :

— ان لي حساباً ، في آخر المطاف ... فأنا الذي يدفع .. وافهم يا مولتيني اني حدثتك على هذا النحو لاتجنب كل التباس . انك ستبدأ العمل صباح الغد ، وقد اردت ان انبهك في الوقت المناسب ، لمصلحتك الخاصة . ان لي ثقة بك ، واريدك ان تكون ترجماني بالقرب من رينغولد . يجب ان تذكره ، كلما وجدت ذلك ضرورياً ، بأن الناس اذا كانوا قد احبوا الاوديسة ولا يزالون يحبونها ، فذلك بسبب الشاعرية التي تتضمنها ... وانا حريص على ان تنقل هذه الشاعرية كلها الى فيلمي ، كلها ، كما هي ...

وفهمت ان باتيستا قد استرد هدوءه كلياً ، فهو في الواقع لم يكن يتحدث بعد عن الفيلم المسرحي الذي كان يطلبه منا ، بل عن الشاعرية. واذن ، فقد عدنا ، بعد جولة قصيرة في اقبية النجاح المالي ، الى مناطق الفن والفكر . وقلت ببسمة مغتصبة :

— لا يساورك اي خوف يا باتيستا... ستحصل على شاعرية هوميروس

كلها ... على الاقل الشاعرية التي نستطيع ان نعثر عليها عنده .

ـ حسناً ... حسنا ... لا نتكلم بعد بهذا .

ونهض باتيستا وهو يتمطى ، ونظر الى ساعته في معصمه ، واعلن فجأة انه ذاهب ليستعد للعشاء ثم خرج .

وظللت وحدي . وكنت قبل ذلك بلحظة افكر انـا ايضاً في ان انسحب الى غرفتي لأعدّ نفسي قبل العشاء . ولكن النقاش الذي قام بيننا كان قد أهاجني وشردني ؛ ورحت اذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، بآلية . كانت كلمات باتيستا قد جعلتني أحسّ ، للمرة الاولى، بصعوبة هذا العمل الذي كنت قـد قبلته بشيء من الخفة ، اذ لم أر فيه الا الحسنات المادية ؛ وكان يخيل لي الآن اني استشعر مسبقاً التعب والضجر اللذين لا يمكن الا ان احس بهما حـين ينتهي السيناريو . وفكرت : « لماذا هذا كله ؟ لماذا ألزم نفسي بهذا العمل المزعج ، وبالمناقشات التي لا مفر منها بيني وبين باتيستا ، من غير ان اتحدث عن المناقشات التي ستقوم بيني وبين رينغولد،والتسريات التي ستنشأ عن ذلك بالضرورة؛ والمرارة التي سأحسها حين اضع توقيعي في اسفل عمل مصطنع ومأجور... لماذا هذا كله ؟ »

واذن ، فهذه الاقامة في كابري التي كانت قد بدت لي مليئة بالسحر حين كنت أتأمل صخور الفاراغليوني من أعلى الممر ، كانت تبدو لي الآن وهي مطبوعة بضجر مهمة عاقّة مشكوك فيها : هي مهمة التوفيق بين متطلباتي ككاتب شريف ومتطلبات المنتج المختلفة كل الاختلاف . ومرة اخرى ، وبشكل واضح كل الوضوح ، كنت احس بأن باتيستا كان المستخدِم ، وكنت انا المستخدَم ، وان الخادم يستطيع ان يفعل كل شيء ، باستثناء عصيان معلمه ، وان الدهاء والتبجيل اللذين يحاول بهما ان يتجنب سلطة سيده هما اشد اذلالاً من الطاعة الكاملة ، واني اذ اوقع عقدي بالاجمال ، اكون قد بعت روحي لشيطان اكثر تطلباً من

جميع الشياطين . وكان باتيستا قد اومأ الى ذلك في اندفاع من صراحة واخلاص حين قال : « انا الذي أدفع ! » ولم أكن بالتأكيد في حاجة الى مثل هذا الاخلاص لأقول لنفسي : « وانا الذي يُدفع له ! » لقد كانت هذه العبارة ترنّ في اذني كلما فكرت بالسناريو . وفجأة، اوحت لي هذه الافكار شعوراً بالاختناق ، وراودتني الرغبة في ان اتنفس هواء مختلفاً عن الذي كان يتنفسه باتيستا .

وقصدت الباب — النافذة ، ففتحته ، وخرجت الى السطيحة .

الفصل الرابع عشر

كان الليل هابطاً ، وكانت السطيحة مضاءة بالضوء اللامباشر الذي كان القمر غير الظاهر يرسله في السماء كثيفاً . ومن السطيحة ، كان سلّم صغير يؤدي الى الطريق الذي يحيط بالجزيرة . وترددت لحظة في هبوط هذا السلم لأذهب في نزهة ، ولكن الوقت كان متأخراً ، وكان الطريق مظلماً . وعزمت على ان ابقى على السطيحة ، فارتفقت الحاجز واشعلت سيجارة .

وفوقي ، كانت صخور الجزيرة ترسم أشكالها السوداء الحادة على السماء المتلألئة . وكان الصمت عميقاً ، فلم اكن اسمع اذ ارهف اذني الا وشوشة الموج الذي يتصاعد من الشاطيء ويذهب فيرتمي بين الفينة والفينة على صخور الحصباء ، ثم ينسحب . والحق ان ذلك قد لا يكون الا وهماً ، ولم يكن ثمة الا تنفس البحر الهاديء الذي كان ينفتح ويتمدد وفق المدّ والجزر . وكان الهواء جامداً ، من غير نسمة ريح ، وكان بوسعي وانا ارفع عينيّ نحو الافق ان المح في البعيد ، على القارّة ، الضوء الصغير الابيض لمنارة كامبانيلا التي كانت تدور بلا كلل ، مضاءة تارة ، منطفئة تارة اخرى ، وكان هذا الضوء الذي لا يكاد يُرى في الليل الهائل هو العلامة الوحيدة للحياة المحسوسة .

وسرعان ما هدّأني هذا الليل الهادىء الى هذا الحدّ ، ولكني كنت أشدّ تبصّراً من ان يغيب عني ان جميع ألوان الجمال في العالم لم تكن تستطيع ان توقف مجرى همومي ومشاغلي الا فترة قصيرة . والواقع ان فكري ، بعد ان بقيت مدة طويلة في الظلام ، جامداً والعقل مني فارغ ، عاد بالرغم عنه الى فكرته الطاغية ، فكرة اميلي ؛ وربما استوحيت حديثي باتيستا ورينغولد وهذا المشهد الموحي من فصول الملحمة الهوميروسية ، لأجمع جمعاً غامضاً فكرة اميلي الى فكرته سناريو الاوديسة .

وانبثقت في ذهني فجأة ، لا ادري من اين ، ذكرى مقطع من آخر نشيد في الاوديسة يصف فيه يوليسوس ، ليثبت هويته ، سرير الزواج . واذ ذاك تعرف بينيلوب زوجها ، فيمتقع لونها ويغمى عليها نصف إغماء ، وترتمي اخيراً على عنقه وهي تبكي وتقول له هذه الكلمات التي كنت احفظها عن ظهر قلب لشدة ما قرأتهـا ورددتها بيني وبين نفسي :

آه ! لا تغضب مني يا يوليسوس .
انت الذي ظهرت دائماً وفي جميع الظروف
أعقل الناس . إن الآلهة قد حكمت
علينا بالشقاء ، وهي لم تُرد ابداً
ان نستطيع جنباً الى جنب ان نتمتع
بسنواتنا الخضراء المزهرة
وان يرى احدنا ، مع الزمن ، رويداً رويداً
شعر الآخر يبيضّ

ومن سوء الحظ اني لم اكن اعرف اليونانية ، ولكني كنت احدس ان ترجمة « باندمونت » لم تكن امينة ، لانها لم تكن تنقل اي شيء من الجمال الطبيعي للنص الاصلي . على ان هـذه الابيات ، حتى في تعبيرها المفخّم ، كانت تروق لي كثيراً بسبب العاطفة التي تشفّ عنها .

وكان قد حدث لي وانا اقرأها ان قارنتها بأبيات بترارك في القصيدة المعروفة التي تبدأ هكذا :

لقد أرانا الحبّ مرفأ هادئاً

وتنتهي بالثلاثية :

ولا شك في انها كانت ستجيبني
وهي تتنهد بعض الكلام المقدس
بوجهينا المتغيرين كشعرها وشعري

ان ما استوقفني آنذاك ، لدى هوميروس وبترارك ، هـو الشعور بحبّ ثابت غير قابل للهـدم ، حب لا يستطيع شيء ان يزعزعه او يضعفه ، حتى ولا الزمن . لماذا كانت تلك الأشعار تعاود ذاكرتي في تلك اللحظة بالذات ؟ وادركت ان هذه الذكرى قد استيقظت لدى التفكير بعلاقاتي مع اميلي ، تلك العلاقات المختلفة كل الاختلاف عن التي كانت تشدّ يوليسوس وبينيلوب ، وبيترارك ولور ، عن العلاقات التي بدأ تزعزعها ، لا بعد وحدة طويلة دامت عشرات السنين ، بل بعد بضعة اشهر ، والتي لم تكن تستطيع ان تسمح لنا بالركـون الى المنظور المعزّي بحياة تنتهي ببقاء الحب لدى اثنين ، كما كانا عاشقين منذ اليوم الاول ، بالرغم من « تغيّر وجوهنا وشعرنا » . غير اني كنت قد تمنيت كثيراً ان تبرّر حياتنا الزوجية أملَ مستقبلٍ مماثل ، وكنت اظلّ تائهاً مذعوراً امام الانفصام الذي لم اكن افهمه والذي كان يحول دون تحقّق حلمي . لماذا ؟ وكما لو اني كنت التمس جواباً على سؤالي في هذه المقصورة التي كانت زوجتي موجودة فيهـا ، أوليت البحر ظهري لانظر الى النوافذ .

وكان بامكاني ان ارى ، من زاوية السطيحة التي كنت جالساً فيها، ما كان يجري في الصالة ، من غير ان أُرى . واذ رفعت نظري ،

رأيت ان باتيستا واميلي كانا كلاهما في غرفة الجلوس . وكانت اميلي التي ترتدي الثوب الاسود العاري الظهر نفسه الذي كانت ترتديه يوم لقائنا الاول بباتيستا ، واقفة قرب بار صغير متحرك ، وكان باتيستا منحنياً فوق البار يُعدّ مشروباً كحولياً في قدح كبير من البلور . وادهشني ان اجد لدى اميلي تعبيراً غير طبيعي ، هو مزيج من اللامبالاة والانزعاج ، وكان ينمّ عن الضيق والاغراء . كانت واقفة بانتظار ان يمدّ لها باتيستا قدحاً ، وكانت تنظر فيما حولها نظرة مترددة كنت اكتشف فيها آثار قلق معتكر . وبعد ان انهى باتيستا مزيجه ، ملأ قدحين في عناية واستقام ليقدم لاميلي احدهما . واصيبت هي برعشة ، كما لو انها كانت تستيقظ من شرود عميق ، وقدمت يدها . وتوقفت عيناي عليها ، منتصبة امام باتيستا ، متراجعة قليلاً الى الوراء ، ويدها مرفوعة تحمل قدحها ، والاخرى معتمدة على ظهر اريكة ؛ ولم استطع الامتناع عن التفكير بأنها كانت تبدو وكأنها تهب نفسها بكل جسمها ، مادّة نهديها وبطنها تحت القماش اللماع الذي كان يقولب اجزاء جسمها . على ان شيئاً من هذه الاعطية لم يكن يبدو على وجهها الذي كان على العكس يحتفظ بتعبيره الملتبس . واخيراً ، قالت شيئاً ما وهي تدير رأسها نحو داخل الصالة حيث كانت بضع ارائك مصفوفة قرب المدخنة ، ثم اتجهت نحو تلك الناحية في تحفظ ، حتى لا تدلق كأسها . واذ ذاك حصل ما كنت اتوقعه في اعماقي :

فقد لحق بها باتيستا الى وسط القاعة ، فأحاط قامتها بذراعه ، وادنى وجهه من وجهها . وسرعان ما احتجّت ، بلا قسوة ، ولكن بحيوية مبتهلة ، وربما كانت متدلّلة ، وهي تومىء بعينيها الى القدح الذي كان بين اصابعها .

وأخذ باتيستا يضحك ، وهز رأسه ثم جذبها جذبة مفاجئة ، حتى

ان المشروب انقلب كما كانت تخشى . وفكرت : « سيقبّلها الآن في فمها » ... ولكني لم اكن احسب حساب شخصية باتيستا ووحشيته . وبالفعل ، فانه لم يقبّل اميلي ، بل قبض على ثوبها من العنق ، عند الكتف ، فلوى القماش بعنف غريب قاس ، وجذبها كاشفاً الكتف العارية . وعند ذلك مال رأس باتيستا ليطبع على الكتف شفتيه . وظلت هي مستقيمة جامدة ، كما لو انهـا كانت تنتظر في صبر ان تنتهي حركة الرجل . ولكن أتيح لي ان ارى ان وجهها وعينيها كانت تحتفظ آنذاك بتعبيرها المتململ المضطرب . ثم نظرت ناحية النافذة ، وشعرت بأن عيوننا تلتقي ؛ وقامت بحركة غاضبة ، وامسكت بيدها بروتيل ثوبها المنزوع ، وغادرت القاعة على عجل . وبدوري دلفت في العتمة .

احسست فوق كل شيء بالاضطراب والذهول ، باعتبار ان ما رأيته بدا لى متناقضاً تناقضاً فاضحاً مع ما كنت اعرفه وما ظننته حتى ذلك الحين . إن اميلي التي لم تكن تحبني بعـد ، وكانت حسب عبارا تها بالذات تحتقرني ، كانت تخونني اذن مع باتيستا . لقد انقلب الوضع اذن ما بيننا : فبينما كنت متهماً بغموض ، اوشك ان اصبح متهِماً ؛ بعد ان رأيتُني محتقراً بلا داعٍ ، اصبح يمكنني الآن ان أحتقر بحق . واصبح سر مسلك اميلي تجاهي يتلخص كله بواحدة مـن الدسائس الغرامية الاشد شيوعاً . ولعل تلقائية هذه الافكار المنطقية الموجزة التي أملتها الانانية اكثر من اي شيء آخر ، منعتني في التو من الشعور بأي إحساس لاكتشافي خيانة اميلي (او ما بدا لي انـه خيانة) ولكني اذ كنت اقترب مترنحاً من حاجز السطيحة ، غص قلبي بألم مفاجيء ، فتأكدت من ان ما كنت قد رأيته لا يمكن ان يكون الحقيقة . إن اميلي استسلمت طبعاً لقبلة باتيستا ، ولكن هذا لا يعني اني لم اكن انا ايضاً آثماً ، ولم اكن املك من جراء ذلك الحق بان احتقرها بدوري . بل لقد كان

يبدو لي ، من غير ان استطيع تفسير ذلك ، انها بالرغم من تلك القبلة كانت تحتفظ بذلك الحق تجاهي . كنت في الحقيقة على خطأ : انها لم تكن خائنة ، او ان خياناتها على الاقل لم تكن الا ظاهرية ، وكانت الحقيقة المتعلقة بمسلكها بحاجة بعدُ الى جلاء ، من غير الاهتمام بالمظاهر .

وتذكرت انها كانت قد اظهرت تجاه باتيستا نفوراً شديداً لم اكن افهم تفسيراً له ؛ وفي ذلك الصباح بالذات كانت قد رجتني مرتين ألاّ أدعها تسافر وحدها مع المنتج . فكيف كان يمكن لمثل هذا الموقف ان ينسجم مع تلك القبلة ؟ إن مما لا شك فيه انه لم يكن لذلك الحادث من سوابق ؛ وعلى الارجح كان باتيستا قـد عرف ان ينتهز الفرصة الملائمة التي لم تتح له من قبل هذا المساء . واذن ، فان شيئاً لم يضع ؛ كان ما يزال بامكاني ان اعرف لماذا سمحت له اميلي بان يقبلها ، ولماذا خصوصاً كنت احسّ في غموض بـأن شيئاً ما بيننا لم يتغير ، بالرغم من هذه القبلة ، وانها كانت تحتفظ كالسابق بحقها في ان تحرمني من حبها وان تحتقرني .

قد يقال ان اللحظة لم تكن مناسبة قط لمثل هـذه الافكار ، وان حركتي الاولى والفريدة كان ينبغي ان تكون اقتحامي الصالة لكي افاجيء العاشقين ؛ ولكني كنت قد اعتدت منذ وقت اطول ممـا ينبغي على التفكير بسلوك اميلي تجاهي بحيث لم يكن ممكناً ان الجأ الى مثل ذلك الانفجار المفاجيء الساذج . ثم إن ما كان يشغلني من جهة اخرى كان إلقاء الضوء على خلافنا الصميمي اكثر من تخطئة اميلي . فلئن برزتُ فجأة في الصالة ، فاني كنت احرم نفسي نهائياً امكانية معرفة الحقيقة وامكانية اكتساب اميلي من جديد . كان يجب عليّ ، بعكس ذلك ، ان اتصرف بكل الحكمة والاحتراس اللذين كانت تتطلبها ظروف دقيقة وخفية المعنى .

واوقفتني فكرة اخرى امام عتبة غرفة الجلوس ، وهي فكرة اكثر انانية : كنت املك الآن سبباً وجيهاً للتخلي عن كتابة سناريو الاوديسة ، وترك ذلك العمل الذي لم يكن يروق لي والعودة الى مسرحي العزيز . وكانت هذه الفكرة تملك ميزةً انها تخدمنا نحن الثلاثة ، انا وباتيستا واميلي . فالواقع ان تلك القبلة كانت تسجل ذروة الالتباس الذي كانت حياتي تتخبط فيه ، سواء من حيث الحياة الزوجية او المهنـــة . وقد كانت لدي اخيراً امكانية توضيح هذا الالتباس مرة والى الابد . ولكن كان ينبغي لي ان اتصرف بلا عجلة ، ومن غير ان اثير فضيحة ، وبصبر .

كل ذلك خطر بذهني سريعاً ، مشوّشاً كدوّامة ريح تقتحم غرفة فُتحت نافذتها على حين غرّة ، وهي تحمل ورقاً وغباراً وتفايات من كل نوع . وكما تستّرد الغرفة صمتها وهدوءها ما ان تغلـــق النافذة ، كذلك فرغ ذهني وصمت دفعة واحدة ووجدتني ، متلاشياً ، عيناي ضائعتان في الليل ، لا حسّ عندي ولا افكار . وفي ذلك الخـــدر الروحي توجهت ، من غير ان أحسّ تقريباً الى الباب — النافذة ففتحته ودخلت غرفة الجلوس . كم من الوقت كنت قد بقيت على السطيحة بعد ان فاجأت باتيستا واميلي ؟ اطول مما كنت اظن بلا شك ، لاني وجدتهما كليهما جالسين الى المائدة وقد بلغا منتصف الطعام . ولاحظت ان اميلي كانت قد نزعت الثوب الذي كان باتيستا قد مزقه وارتدت الثوب الذي كانت تلبسه في اثناء الرحلة . ولا ادري لماذا اثار هذا التفصيل اضطراباً عميقاً لديّ ، كما لو انه تأكيد بليغ وقاس لخيانتها .

وقال باتيستا في جذل :

— كنا نظن انك قد ذهبت تأخذ حماماً ... فأيـــن كنت بحق الشيطان ؟

فأجبت بصوت خافت :

ـ كنت هنا ، في الخارج .

ورأيت اميلي ترفع عينيها نحوي ، فتنظر اليّ لحظـــة ، ثم تخفض عينيها ، فجاءني اليقين بانها كانت قد رأتني على السطيحة ، فيما كنت أرصدهما ، وانها لم تكن تجهل اني كنت أعرف انها قد رأتني .

الفصل الخامس عشر

في اثناء العشاء ، ظلت اميلي صامتة ، بـلا ادنى ارتباك ظاهر ، وهذا ما ادهشني ، لاني كنت اعتقد انها لا بدّ ان تكون مضطربة ، وكنت قد ظننتها حتى ذلك الحين غير قادرة على اخفاء ما يعتلج في داخلها . اما باتيستا فلم يكن على العكس ، ليخفي مزاجه المرح المنتصر ، ولم يكفّ عن التحدث فيما هو يأكل بشهية كبيرة ويشرب ، ربما اكثر من المعقول . وعمّ تحدث ذلك المساء ؟ عن كثير من الاشياء ، ولكن خصوصاً عن نفسه ، مباشرة او غير مباشرة . كانت « الأنا » تعود عودة هجومية على شفتيه بكثرة اثارت غيظي ؛ ولم اكن اقل انزعاجاً من طريقته في اللجوء الى ادنى الحجج والاعذار ليعود بلا انقطاع الى شخصه الخاص . وكنت ارى جيداً ان هـذا التلذُّذ نحو نفسه كان معزواً الى رغبة رجولية في ان يمجّد نفسه بعيني اميـلي وربما في ان يخفضني اكثر مما كان معزواً الى الغرور ؛ كان مقتنعاً بأنه قد انتصر على اميلي فكان يتلذذ تلذذاً طبيعياً في ان يتطاوس ، مزيناً نفسه باكثر الريش التماعاً تجاه المرأة المهزومة . والحق انه ينبغي الاعتراف بان باتيستا لم يكن ابله ، وانه فيما هو ينشر غروره الرجولي ، كان يظـل ثابت القدمين على الارض وكان يقول اغلب الاحيان اشياء هامة . مثال ذلك

حين روى لنا ، في نهاية العشاء ، رحلته الاخيرة الى الولايات المتحدة وزيارته لاستوديوهات هوليوود بلهجة جذابة ، ولكن كذلك بوثوق في الحكم كبير . ولكن لهجته هنا ايضاً بدت لي غير محتملة ؛ وكنت أتصور ، بشيء من السذاجة ، ان هذه اللهجة لا بد ان تبدو كذلك لاميلي التي كنت أصرّ على ان انسب اليها العواطف نفسها تجاهه ، بالرغم مما كنت اعرفه وما رأيته .

ولكني كنت مخطئاً مرة اخرى . ان اميلي لم تكن تنفر من باتيستا، بل على العكس ؛ ففيما كان يتكلم ، حسبتُني اكثر من مرة افاجيء في عينيها نظرة إن لم تكن مسحورة ، فهي على الاقل مهتمة بصورة جدية ، وهي في بعض اللحظات ، محمّلة بتقدير معجب . وقد كانت تلك النظرة بالنسبة لي اشد ازعاجاً واكثر مرارة من غرور باتيستا المتباهي ؛ وقد ذكّرتني بنظرة اخرى لم اكن استطيع ان اذكر اين ومتى كنت قد لاحظتها : كانت تقريباً النظرة نفسها التي رأيتها في عيني المخرج « بازيتي » يوم تناولت الغداء في منزله . كان بازيتي المتقع التافه يتحدث وزوجته تتأمله بعينين نشوانتين كان يبين فيهما الحب والخضوع والاعجاب والاخلاص . وبالطبع ، لم تكن اميلي قد وصلت الى هذا الحد مع باتيستا ، ولكن كان يخيّل اليّ اني بدأت اكتشف في نظرتها ظل المشاعر التي كانت السيدة بازيتي تغذّيها نحو زوجها . كان باتيستا على حق في ان يتباهى ، فقد كانت اميلي نصف مسحورة ، ولن تلبث طويلاً حتى تصبح مسحورة تماماً ، بشكل لا يُفسر

وعند هذه الفكرة ، اخترق قلبي ألمٌ حاد ، اقوى من ذلك الذي كنت قد عانيته حين رأيته يقبلها . ولا بد ان وجهي قد أظلم ، ولا شك في ان باتيستا قد لاحظ هذا التغيُّر لانه ، بعد ان قذفني بنظرة متفحصة، سألني قائلاً :

— ماذا رأيت يا مولتيني ؟ الست مسروراً بان تكون في كابري ؟

هل هناك ما لا يروق لك ؟
— لماذا ؟
فأجاب وهو يصب الخمر :
— لانك ... تبدو حزيناً ، ذا مزاج معتكر ...
وهكذا كان يهاجم ، عارفاً جيداً ان هذه افضل طريقة للدفاع عن نفسه . وقد أجبت بسرعة فاجأتني :
— لقد جاءني هذا المزاج وانا انظر الى البحر من على السطيحة .
فرفع حاجبيه متسائلاً ، ونظر اليّ من غير ان يريم :
— آه ! صحيح ؟ ولماذا ؟
ونظرت الى اميلي : هي ايضاً لم تكن مضطربة . لابد انهما كليهما واثقان من نفسيهما وثوقاً لا يصدّق . ومع ذلك ، فان اميلي كانت قد رأتني بلا شك ، وقد ابلغت ذلك الى باتيستا بالتأكيد . وقبل ان اتمكن من التفكير ، انبثقت من في هذه الكلمات :
— باتيستا ، هل يمكنني ان اتحدث اليك بكل صراحة ؟
وأعجبت به ان يظل على هدوئه :
— بكل صراحة ؟ ولكن طبعاً ! ان على المرء ان يكون صريحاً دائماً !
قلت وانا انظر الى البحر :
— لقد تخيلت ذات لحظة انني هنا اعمل لحسابي الخاص ... وأنا طموح ، كما تعلم ، الى الكتابة للمسرح ... واذن ، فقد كنت اعتقد اني في الزاوية المثالية التي تتيح لي ان اكرّس نفسي لعملي : جمال ، وصمت ، وصميمية مع زوجتي ، وليس ثمة من همّ ... ثم تذكرت ان عليّ في هذا الاطار الجميل الموحي — واعذرني ، فقد طلبت مني ان اكون صريحاً ... تذكرت ان عليّ ، بالعكس ، ان اقضي وقتي في كتابة سناريو سيكون بالتأكيد شيئاً جيداً ، ولكنه في حقيقة الامر

لا شأن له بي ... انني سأعطي افضل ما عنـــدي الى رينغولد الذي سيستعمله بالشكل الـــذي يريده ، ثم ابقى في نهاية المطاف وفي يدي شك ... مع العلم باني اكون قد اضعت ثلاثة اشهر او اربعة من وقت اعتبره اثمن وقت في حياتي واكثره طاقة على الخلق ... انا اعرف ان هناك اشياء لا تُقال ، لا لك ولا لأي منتج آخر ... ولكنك اردت ان اكون صريحاً ... انك تعرف الآن لماذا انا سيء المزاج .

لماذا تراني قد نطقت بهذه الكلمات بدلاً من تلك التي كانت تحرق لساني والتي كانت تخص باتيستا وزوجتي ؟ لم استطع ان افسر ذلك ؛ ربما كان بسبب من وهن اعصابي التي كانت متوترة اكثر مما ينبغي ؛ وربما لانني كنت اعتقد انني اعبّر هكذا بطريقة غير مباشرة عن يأسي تجاه خيانة اميلي التي كنت احسها مرتبطة ارتباطاً خفياً بطبيعة عملي ، هذا العمل المرتزق الذي كان يجعلني تابعاً كـل التبعية . ولكن باتيستا واميلي اللذين لم يتأثرا بمقدمتي المهـــددة ، لم يُظهرا اي عزاء امام اعتراف الضعف البائس الذي تبع ذلك . وقد اجابني باتيستا في جدّ :

— ولكني واثق يا مولتيني انك ستكتب لنا سناريو جميلاً جداً !

لقد كنت اسلك بالتأكيد درباً سيئاً ، ولم يكن لي بعدُ الا ان اتابعه حتى النهاية ، ولذلك استطردت مغتاظاً :

— انني كاتب مسرح ، يا باتيستا ، لا سيناري محـــترف .. فمهما بلغ هذا السناريو من الجمال والكمال ، فانه لن يكون بالنسبة لي ، واسمح لي ان اصارحك بذلك ، الا عملاً مصنوعاً لغاية ربح المال وحدها ... والحال ان من هو في السابعة والعشرين يملك عادة مثلاً أعلى ... ومثلي الأعلى هو ان اكتب للمسرح ... فلماذا لا استطيع ملاحقته ؟ لأن عالم اليوم مصنوع على نحو لا يمكّن أحداً من اختيار الدرب الذي يرغبه ، بل عليه بعكس ذلك أن يفعل ما يريده الآخرون ... لماذا يحتل المال مثل هذا المكان في ما نفعله ، وفي ما نحن عليه ، وفي مـــا نريد ان

نصبحه ، في مهنتنا ، وافضل امانينا وحتى في علاقاتنا بالذين نحبهم ؟

ولاحظت اني كنت منفعلاً ، وان عينيّ ، من شدة حماستي ، كانتا قد امتلأتا بالدموع . وشعرت مـــن ذلك بالخجل ، واحتقرت داخلياً روحي العاطفية التي كانت تدفعني الى القيام بمثل هذه الاعترافات امام الرجل الذي كان ، لدقائق خلت ، قد حاول بنجاح ان يغوي زوجتي . ولكن ذلك لم يكن كافياً لجعل باتيستا يضطرب ، فقال :

– اتعرف يا باتيستا اني اذ اسمعك تتحدث على هذا النحو ، انما احسب اني اسمع نفسي حين كنت في مثل سنّك ؟

فتمتمت مشدوهاً :

– أصحيح هذا ؟

فتابع باتيستا وهو يصب لنفسه خمراً :

– نعم ... لقد كنت فقيراً جداً ، وكانت لي انا ايضاً مُثُل عليا ، كما تقول ... فما كانت هذه المثـــل ؟ انني لا استطيع الآن ان اقولها لك .. ولكن كانت لي مثل .. او بالاحرى لم يكن لي هذا المثال او ذاك ، بل كان لي المثال الاعلى بحرف « م » كبيرة ... ثم التقيت رجلاً انا مدين له بالكثير ، إن لم يكن لشيء ، فلأنه عـــلى الأقل علمني اموراً كثيرة ...

وتوقف باتيستا بهدوء وجلال ، فتذكرت ، على مضض مني تقريباً ، ان الرجل الذي كان يعنيه بلا شك منتجٌ مـــن منتجي الافلام كان منسياً في هذه اللحظة ، ولكنه كان مشهوراً في العهـــد الاول للسينما الايطالية ، وكان باتيستا قد بدأ تحت رعايته مهنته الناجحة ؛ رجل كان يقال انه لم يكن لديه ما يُعجب ، رغم كل شيء ، الا طاقته على جمع المال . وتابع باتيستا :

– وقد ألقيت على هذا الرجل الخطاب نفسه الذي ألقيتَه عليّ هذا المساء ... اتعرف ما كان جوابه ؟ ما دام المرء لا يعرف تمامـــاً ماذا

يريد ، فمن الافضل ان ينسى المثل الأعلى ، ان يتركه جانباً .. ثم إن عليه ، بمجرد ان يضع قدمه على ارض صلبة ، ان يُخرج ذلك المثل من جديد ... إن الورقة الاولى من فئة الالف التي يكسبها : هذا هو المثل .. وفيما بعد ، ينمو ويتطور ، فيصبح بالنسبة لنا ستوديو ومسرحاً وافلاماً ، يصبح عملنا اليومي بالاجمال ... هـــذا ما قاله لي ... وقد تبعت نصيحته ووجدتني من ذلك في خير ... وانت يا مولتيني تملك امتيازاً كبيراً هو انك تعرف ما هـــو مثلك : كتابة مسرحيات ... حسناً ! سوف تكتب مسرحيات ...

فلم استطع الامتناع عن الترديد ، وانا حائر وفي الوقت نفسه معزّى بعض العزاء :

— اجل ، سأكتب مسرحيات .

وألحّ باتيستا :

— نعم ، ستكتب اذا كنت تريد ذلك حقاً ، حتّى ولو عملت من اجل كسب المال ، حتّى ولو كتبت سناريوهات لحساب « افلام النصر » .. أتريد ان تعرف سر النجاح ، يا مولتيني ؟

— ما هو ؟

— ان يتبع المرء الصف في الحياة ، كما يتبع الصف امام نافذة قطع التذاكر في المحطة ... إن دورنا يصل دائماً اذا كنا نملك صبراً ، واذا لم نغير صفنا ... ان دورنا يأتي لان موظف التـــذاكر يعطي كلاً تذكرته ... ولكل حسب استحقاقه طبعاً ... ومن يستطيع ان يذهب بعيداً سينال تذكرة الى استراليا ، من يدري ... اما الآخرون الأقل طموحاً ، فيأخذون تذكرة لرحلة اقصر ، الى كابري مثلاً ..

واخذ يضحك مسروراً باشارته المبهمة الى رحلتنا واضاف :

— انني اتمنى لك ان تتلقى تذكرة لمكان بعيد ... اميركا ؟ هل تحب ذلك ؟

نظرت الى باتيستا الذي كان يبسم لي بحنان ابوي ، ثم أدرت عينيّ الى اميلي التي كانت تبسم ايضاً بسمة سريعة ولكنها لم تكن اقل صراحة. وادركت مرة اخرى ان باتيستا كان قد عرف في يوم واحد ان يحوّل النفور الذي كانت تكنّه له الى شعور من الود تقريباً . وهنا عاودني الحزن الذي كان قد ارهقني حين حسبتني ارى في نظرة زوجتي تعبير السيدة بازيتي . قلت « الحزن » ولم اقل « الغيرة » ... والواقع انني كنت متعباً من جراء السفر الى ابعد حد ، وكذلك من جراء جميع حوادث اليوم ، وكان الارهاق يمتزج بجميع عواطفي ، فيحولها الى كآبة عاجزة حزينة .

وانتهى الطعام بشكل غير متوقع . فبعد ان كانت اميلي قد اصغت بلذة الى باتيستا ، بدت وكأنها تتذكرني فجأة ، او بالاحرى تتذكر وجودي ، وذلك على نحو أكّد قلقي . فقد كنت اقول بغموض :

— ان بامكاننا ان ننتقل الى السطيحة .. فلا بد ان القمر قد بزغ ..

فاذا هي تجيب بجفاء :

— ليست لدي رغبة في الخروج .. انني ذاهبة للنوم .. فأنا متعبة .

ونهضت من غير ان تنتظر فاستأذنت وخرجت . ولم يبد على باتيستا انه فوجيء بهذا الذهاب المباغت ، بل خيّل اليّ انه كان مسروراً به، كما لو انه كان يرى فيه علامة اضطراب عرف كيف يزرعه في روح اميلي . اما انا ، فكنت احس ضيقي يتفاقم . وبالرغم من انني كنت احسّني نافد القوى ، وكنت اقول إن من الافضل تأجيل كل شرح الى الغد ، لم املك الجرأة على ان اتمالك نفسي فحييت باتيستا بدوري ، بحجة انني كنت ناعساً ، وخرجت من الصالة .

الفصل السادس عشر

كان بين غرفتي وغرفة اميلي باب اتصال . وقد طرقت هذا الباب، دون انتظار ، فقالت لي اميلي ان ادخل .

كانت جالسة على السرير ، جامدة ، في وضع تفكيري . ولكنها اذ رأتني سارعت تسألني بلهجة متعبة حانقة :

– ماذا تريد مني أيضاً ؟

فأجبت في برودة ، لأني كنت أحسني الآن على غاية الهدوء والصفاء:

– لا شيء ... سوى ان اتمنى لك ليلة سعيدة ...

– قل بالاحرى إنك تريد ان تعرف رأيي بالحديث الذي جرى هذا المساء بينك وبين باتيستا ... حسناً ! ان كنت تريد ان تعرف رأيي ، فسأقوله لك : إن ذلك الحديث كان مضحكاً وفي غير محلّه تماماً !

وتناولت كرسياً فجلست عليه ، وسألتها :

– لماذا ؟

فقالت وهي ترفع صوتها :

– انني لا أفهمك ... حقاً لا أفهمك ... كنت تبدو حريصاً جداً على كتابة ذلك السناريو ، ثم تذهب فتقول للمنتج إن المال وحده يهمك في الامر ، وان هذا العمل لا يروق لك ، وان مثلك الاعلى هو ان

تكتب للمسرح ... اتراك لا تدرك انه اذا اعطاك ، هذا المساء ، الحق في ما ذهبت اليه بدافع التأدّب ، فسوف يفكر غداً ويحترز جيداً ان يطلب خدمتك في مرة اخرى ؟ أمن الممكن ألاّ تستطيع فهم أمر بسيط كهذا ؟

هكذا كانت تأخذ الهجوم . وعلى اني فهمت انها تفعل ذلك لتخفي هموماً اخرى اشد خطورة ، فلم استطع الامتناع عن الاحساس بأن في صوتها صراحة حقيقية ، حتى ولو كانت مُذلّةً لي وجارحة . وكنت قد وعدت نفسي ان اظلّ هادئاً . ولكني اشتعلت امام هـذه اللهجة الاحتقارية بالرغم مني ، فصحت :

— ولكنها الحقيقة ! ان هذا العمل لا يروق لي ، وهو لم يرق لي قط .. وليس وارداً ان اقوم به ...

— اوه ! بل من المؤكد انك ستقوم به !

يقيناً انها لم يسبق لها قط ان أرتني مثل هذا الاحتقار . وقد كززت على أسناني وقلت بلهجة قوية وانا اتمالك نفسي :

— لعلّي لن اقوم به ! كنت هذا الصباح ما ازال انوي القيام به، ولكن بعد ما حدث اليوم ، فمن المرجّح اني سأبلّغ باتيستا ، غداً على أبعد تقدير ، اني عدلت عن كتابة هذا السيناريو ...

وكنت قد تقصّدت ان انطق بهذه العبارة العرّافية ، مع إحساس صميمي بالانتقام . لقد سبق لأميلي ان عذّبتني كثيراً ... وقد اتى دوري في إيلامها بالايماء الى ما كنت قد رأيته عبر النافذة ، من غير ان اتكلم عن هذا مباشرة وفي وضوح ودقة . وقد نظرت اليّ بإحداد وسألتني بصوت هادىء :

— ما الذي حدث ؟

— أشياء كثيرة !

— وما هي ؟

كانت تلحّ ؛ لكأنها كانت تريد ان أتهمها ، وأن آخذ عليها خيانتها لي . ولكني ظللت على تهرّبي :

– اشياء متصلة بالفيلم ... امور بيني وبين باتيستا ... وهي لا تعنيك .

– ولماذا لا تريد ان تقولها لي ؟

– لأنها لا تهمّك اذا قلتها لك ...

– بلى ... والحق انك لن تملك الشجاعة للتخلّي عن كتابة هـذا السناريو .

ولم أفهم اذا كانت تعبّر في هذه الجملة عن احتقارها او عن املها، فسألتها بتحفّظ :

– لماذا تعتقدين ذلك ؟

– لأنني أعرفك ...

وصمتت لحظة ، ثم اضافت :

– إن الامر يجري هكذا دائماً بالنسبة لسناريوهاتك ... لقد سمعتك مراراً تؤكد انك لم تكن تريد ان تقوم بهذا العمل او ذاك ثم تنتهي الى القيام به .. إن الصعوبات تُذلَّل دائماً في مثل هذه الامور .

– نعم ، ولكن الصعوبة هذه المرة لا تكمن في السناريو ...

– اين ، إذن ؟

– في نفسي بالذات .

– ماذا تقصد ؟

ووددت ان اصيح في وجهها :

– لقد قبّلك باتيستا ..

ولكني تمنّعت ؛ فاننا في مناقشاتنا الصميمية لم نذهب قط الى قلب الحقيقة،ولم نلجأ إلاّ الى الاشارات والايماءات ... إن اموراً كثيرة كان ينبغي ان تقال قبل الحقيقة العارية !

وملت عليها وقلت بجدّ :

– اميلي ، انت تعرفين ما افكر به .. وقد قلته ونحن على المائدة: انني تعبتُ من ان اعمل للآخرين ، وأودّ اخيراً لو اعمل لحسابي الخاص.

– ومَنْ يمنعك ؟

فقلت في تفخيم :

– أنت !

وإذ رأيتها تأتي بحركة احتجاج ، قلت :

– لا انت بصورة مباشرة ، بل حضورك في حياتي ... إن حياتنا المشتركة هي مع الأسف ما هي ... فلا نتحدث عنها ... ولكنك زوجتي ، وقد قلت لك مراراً انني لا أقبل هذه الاعمال الا من اجلك .. ولولاك لما ألزمت نفسي بها ... إنك بالاجمال تعرفين ذلك تماماً ، وغير مُجْدٍ أن أردّده : إن علينا ديوناً كثيرة ، ويجب ان نواجه استحقاق عدة سندات من ثمن الشقة ، وحتى السيارة نفسها لم نف كل ثمنها بعد ... من اجل هذا اكتب السناريوهات ... على اني اليوم اريد ان اقدّم لك اقتراحاً ...

– ما هو ؟

وكنت أحسبني هادئاً جداً ، عاقلاً جداً ، ولكن انزعاجاً دقيقاً كان ينبئني في الوقت نفسه بأن هذا الاعتدال الظاهري كان مزيفاً ، بل كان اكثر من ذلك لامعقولاً . لقد رأيت اميلي ، بعد كل حساب ، بين ذراعي باتيستا ، وهذا وحده ما ينبغي ان يكون له اهمية في نظري. على اني تابعت كلامي :

– هذا ما أقترحه عليك : ان تقرّري انت نفسك ان كان ينبغي ان اكتب هذا السناريو ام لا ... وانا أعدك ، اذا اتخذت قراراً سلبياً ، ان ابلّغ باتيستا صباحاً هذا الامر ، وسنغادر كابري في اول باخرة ...

فلم ترفع رأسها ، كما لو انها كانت مستغرقة في افكارها ، وقالت اخيراً :

ـ كم انت خبيث !

ـ لماذا ؟

ـ لأنك اذا ندمت على ذلك فيما بعد ، كان بامكانك دائماً ان تلقي تبعة ذلك عليّ !

ـ لن اقول شيئاً من هذا ... لانني انا الذي أرجوك ان تقرّري .

وكان واضحاً انها كانت تفكر بالجواب الذي ستعطيني اياه . وفهمت ان هذا الجواب سيكون بصراحة توكيداً لعاطفتها ، اياً كانت هـذه العاطفة ، تجاهي . فاذا شجعتني على القيام بالسيناريو فهذا يعني انهـا تحتقرني الى حدّ الحكم بأنه لا شيء يعارض المضيّ في عملي ؛ اما اذا كان جوابها على عكس ذلك سلبياً ، فهذا يعني انهـا ما تزال تحتفظ ببقية من احترام لي ، ولا تريد ان تراني أعمل تحت ادارة عشيقها . وهكذا كان كل شيء يعود الى السؤال نفسه : هل كانت تحتقرني ، ولماذا ؟ وعزمت اخيراً فقالت :

ـ هذه قرارات لا يترك المرء للآخرين اتخاذها !

ـ ولكني اطلب منك ان تقرّري .

فقالت بنوع من الجلالة :

ـ هل تراك ستذكر انك ألححت ؟

ـ نعم ، لن انسى ذلك .

ـ اذا كان الامر كذلك ، فأنا اعتقد انك قد التزمت، ولا تستطيع الآن العودة عن كلمتك .. والحق انك قلت لي انت نفسك اكثر مـن مـرة : إن باتيستا يمكن ان يستاء من ذلك ويكفّ عن تكليفك بأي شيء آخر ... ولهذا اعتقد أن من الضروري لك ان تنفّذ الامر .

هكذا كانت تنصحني بألاّ أقـوم بأي صخب ؛ لقد كانت ، كما

توقعت ، تحتقرني نهائياً وبغير نقض . وألححت :
— أتعتقدين ذلك حقاً ؟
— بكل تأكيد !

ولم اكن ادري ماذا اقول بعد ، على اني حذرتها بلهجة قاسية :
— حسناً ، ولكن لا تأتي لتقولي لي فيما بعد انك أعطيتني هذه النصيحة لأنك كنت قد حزرت رغبتي الخفية ... كما حدث يوم كان عليّ ان أوقع عقدي ... ليكن واضحاً بيننا اني ، شخصياً ، لا رغبة لي اطلاقاً بكتابة هذا السيناريو ...

قالت وقد نهضت لتتجه نحو الخزانة :
— اف ! انك تتعبني ! لقد اعطيتك رأيي ... وستفعل ما يبدو لك!

كانت قد عادت الى لهجة الاحتقار : إن افتراضاتي تتأكد . وفجأة أحسستني مغموراً بذلك الالم نفسه الذي كنت قد شعرت به في روما حين صارحتني للمرة الاولى بنفورها . وصحت:
— اميلي ، ما سبب هذا كله ؟ لماذا نحن منتصبان هكذا احدنا في وجه الآخر ؟

وكانت قد فتحت احد مصراعي الخزانة وأخذت تنظر في المرآة . وقالت في شرود :
— ماذا تريد ؟ انها الحياة ...

وبقيت صامتاً ، مصعوقاً ، جامداً . لم يسبق لأميلي قط ان حدثتني على هذا النحو ، بهذه اللامبالاة المطلقة ، وهذه اللهجة الاصطلاحية . ولكني كنت أعلم انه ما زال بامكاني ان اعود سيد الموقف بأن اقول لها إني رأيتها بين ذراعي باتيستا ، وهذا ما لم تكن تجهله ؛ وأني إذ طلبت اليها ان تقرر بدلاً مني قبول السيناريو ، انما اردت ان امتحنها — وكانت هذه هي الحقيقة — وان كل شيء بالاجمال يتلخص بالمشكلة نفسها : حياتنا الصميمية المشتركة . ولم تواتني تلك الشجاعة ، او انني

بالاحرى لم املك القـــوة على ذلك ؛ وكنت أحسني متعباً حتى اعماق نفسي ، من غير امكانية التمالك . ولم أستطع الا ان اقول في حياء تقريباً:

— وما الذي ستفعلينه طوال الوقت في كابري ، بينما اكون في عملي؟

— لا شيء خاصاً ... سوف أتنزّه ، وأستحمّ ، وأذهب بشرتي في الشمس ... ما يفعله الجميع هنا ...

— وحدك ؟

— نعم ، وحدي .

— أتراك لن تضجري وحدك ؟

— اطلاقاً ... إن هناك اشياء كثيرة افكر فيها .

— هل تفكرين بي احياناً ؟

— طبعاً افكر ايضاً بك ...

— وبم تفكرين ؟

وكنت قد نهضت واقتربت من اميلي فتناولت يدها .

— لقد تحدثنا بهذا الموضوع مرات عديدة ...

وكانت تصمد لضغط يدي ، من غير ان تسحب يدها مع ذلك .

— الا تزالين تفكرين بي ، على النحو نفسه ؟

فتراجعت هذه المرة وقالت فجأة :

— اسمع ، من الافضل ان تذهب فتنام .. إن هناك اشياء لا تروق لك ، وانا أفهم ذلك .. ومن جهة اخرى ، لا استطيع الا ان اردّدها لك ... فأية حاجة بك الى التحدث عنها مرة اخرى ؟

— لنتحدث عنها مع ذلك ...

— ولكن لماذا ؟ سأكون مضطرة الى ان اقول لك ما سبق ان قلته مرات كثيرة .. وانا لم اغيّر رأيي لأنني في كابري ، بل على العكس...

— على العكس ؟ ماذا تقصدين ؟

فشرحت في شيء من الارتباك :

ــ أقصد اني لم أغير رأيي ... هذا كل ما في الامر .

ــ انك بالاجمال ما تزالين تحسّين نحوي بالشعور نفسه ، أليس ذلك صحيحاً ؟

فصاحت بصوت بدا فجأة انه يوشك ان يتحطم :

ــ ولكن لماذا تعذّبني هكذا ؟ أتظنّ انه يلذّني ان اقـول بعض الاشياء ؟ انها تؤذيني اكثر مما تؤذيك !

وانفعلت للالم الذي كنت احسّه في صوتها . وتناولت يدها من جديد وانا اقول :

ــ اما انا ، فلا افكر الاّ بالخير تجاهك ، وسأظل هكذا دائماً ...

وأضفت لتفهم اني كنت أصفح عنها :

ــ مهما حدث ...

فلم تجب ، ولكنها ادارت عينيها ، وكان يبدو انها تنتظر . ولكني في الوقت نفسه أحسست انها كانت تسعى لتحرير يدها ، خفية ، بحركة عدائية عنيدة . واذ ذاك تركتها على التوّ ، متمنياً لهـا ليلة سعيدة ، وعدت الى غرفتي . وما لبثت ان سمعت المفتاح يدور في القفل ، فأحسست بغصّة في قلبي .

الفصل السابع عشر

استيقظت صباح اليوم التالي في ساعة مبكرة ، ومن غير ان اسعى لمعرفة اين كان باتيستا واميلي ، خرجت ، او بالاحرى ، هربت من البيت . فبعد ان نمت واسترحت ، كانت أحداث الليلة الفائتة ، ولاسيما سلوكي ، تبدو لي في ضوء غير مستحب ، كأنها كانت سلسلة من الاعمال اللامعقولة اللامجدية ؛ وكنت اريد الآن ان افكر في الهدوء بما كان ينبغي ان افعل من غير ان اورّط حرية عملي بقرار عاجل لا سبيل الى اصلاحه .

وإذن ، فقد غادرت المنزل ، وسلكت الدرب الذي كنت قد عبرته الليلة الفائتة ، واتجهت الى الفندق الذي كان رينغولد مقيماً فيه . وسألت عن المخرج ، فأجابوني بأنه كان في الحديقة ؛ وتوجهت اليها فلمحت في نهاية احد الممرات حاجز سطيحة جميلة يلتهمها النور المشعّ من البحر والسماء الصافية ؛ وكانت بضع كراسي وطاولة صغيرة موضوعة مواجهة ، ولدى وصولي نهض رينغولد يحييني بيده . وكان يرتدي لباس ضابط البحرية ، بقبعة زرقـاء ذات مرساة مذهبة ، وسترة زرقاء وبنطال أبيض . وكان على الطاولة بقايا طعام خفيف وقرطاس مع كل وسائل الكتابة .

كان رينغولد يبدو ذا مزاج ممتاز :

ـ ما تقول ، يا مولتيني ، بهذه الصبيحة ؟

ـ اقول انها رائعة .

وأضاف وهو يأخذني من ذراعي ويقترب معي من الحاجز :

ـ وما قولك يا مولتيني بأن نترك عملنا نائماً لنستقلّ قارباً ونجذّف بهدوء على البحر ، حول الجزيرة ؟

فأجبت بلا اقتناع ، وانا افكر بأن نزهة كهذه بصحبة رينغولد ستفقد حظاً كبيراً من سحرها :

ـ بلى ، هذا أفضل ، من بعض النواحي .

فصاح منتصراً :

ـ لقد قلتها يا مولتيني ، من بعض النواحي ... ولكن من اية ناحية؟ ليس من الناحية التي نفهم بها الحياة...إن الحياة في نظرنا هي الواجب،أليس كذلك ؟ الواجب قبل كل شيء ، إذن ، الى العمل ، يا مولتيني !

وكان يهمّ بأن يعود للجلوس امام الطاولة الصغيرة، ومال عليّ ونظر في عينيّ واضاف بلهجة جليلة :

ـ إجلس تجاهي .. سنكتفي هذا الصباح بالتحدث ... إن لدي اشياء كثيرة اقولها لك ...

وجلست ، وأخفض رينغولد طرف قبعته على عينيه،واستطرد يقول:

ـ انت تذكر ، يا مولتيني ، انني شرحت لك ، في اثناء رحلتنا من روما الى نابولي ، طريقتي في فهم « الاوديسة ».. وقد انقطع هذا الشرح بوصول بانيستا ؛ ثم تمت بقية الرحلة ، ولم استطع في النهاية ان أنجز توسيع فكرتي ... أتذكر ؟

ـ طبعاً ...

ـ وتذكر ايضاً انني كنت قد اعطيتك مفتاح « الاوديسة » : إن يوليسوس ينفق عشرة اعوام في العودة الى بيته ، لأنه في الواقع ، لم

يكن راغباً ، في اعماقه اللاواعية ، ان يعود !

ـ تماماً ...

ـ سأقول لك الآن لماذا لا يريد يوليسوس ، في رأيي ، ان يعود الى بيته ...

وتلبث رينغولد لحظات ليؤكد اهمية كشفه ، واستطرد يقول وهو يحدق فيّ بنظرة متسلطة ، فقطب الحاجبين :

ـ إن لاوعي يوليسوس يدفعه لعدم العودة لأن حياته الزوجية مع بينيلوب ليست سعيدة ... هذا هو السبب يا مولتيني .. وتلك الصعوبات ترجع الى ما قبل سفر يوليسوس للحرب . واذا كان يوليسوس قد ذهب الى الحرب ، فلأنه لم يكن مرتاحاً في بيته ، وهو لم يكن مرتاحاً لأن علاقاته بزوجته كانت سيئة ...

وصمت رينغولد لحظة ، ولكنه لم يفقد هيئة الدوغماتية المتسلطة ؛ وانتهزت هذا التوقف لأدير كرسيي حتى لا تكون الشمس في عينيّ . ثم اضاف :

ـ لو كانت حياة يوليسوس الزوجية سعيدة لما ذهب الى الحرب .. فليس يوليسوس متظاهراً بالشجاعة ولا محباً للقتال .. انه رجل حكيم نافذ البصيرة ... ولو كان سعيداً مع بينيلوب لاكتفى بارسال بعثة بقيادة احد رجاله الثقات ، وذلك ليُظهر فقط تضامنه مع مينيلاس . والحال انه قد ذهب ؛ فهو ينتهز فرصة هذه الحرب ليذهب ، فراراً من زوجته .

ـ هذا منطقي تماماً .

ـ تقصد انه بسيكولوجي ، يا مولتيني ..

هكذا صحّح رينغولد جوابي .. وقد لاحظ بلا شك لهجتي الساخرة ، واضاف :

ـ بسيكولوجي تماماً .. ولا تنسَ ان كل شيء يتوقف على علم النفس .. فبلا علم النفس ، ليس هناك من طبائع ، وبلا طبائع ، ليس

هناك من تاريخ . فما هي بسيكولوجية يوليسوس وبينيلوب ؟ إسمع جيداً: إن بينيلوب هي المرأة التقليدية لليونان القديمة ، الاقطاعية والارستقراطية: انها ذات فضيلة ونبل وغطرسة ، وهي دينية ، وربة منزل ، وام صالحة وزوجة صالحة . اما يوليسوس فيعبّر ، على العكس ، عن سمات اليونان المتقدمة في الحضارة ، يونان السفسطائيين والفلاسفة: انه رجل بلا احكام مسبقة ، وهو عند اللزوم بلا وساوس ، دقيق ، ذكيّ ، لا ديني ، شكّاك ، بل هو احياناً وقح ...

واعترضت :

— يخيّل اليّ انك ترسم ليوليسوس شخصية سوداء ، فالواقع انه في الاوديسة ...

فقاطعني رينغولد بنفاد صبر :

— ليس لنا ان ننشغل بالأوديسة ... اقصد اننا نفسّر الاوديسة ونعلّق عليها ... ولا تنسَ اننا نعمل فيلماً يا مولتيني .. لقد سبق للاوديسة ان كُتبت ، اما الفيلم فلم يُعمل بعد ...

والتزمت الصمت . واستطرد :

— إن سبب مصاعب يوليسوس وبينيلوب يجب ان يُلتمس في اختلاف طبائعهما ... فقبل حرب طروادة كان من سوء حظ يوليسوس انه لم يرق لبينيلوب ... فماذا فعل ؟ هنا يتدخّل « الراغبون » ... وتنبئنا الاوديسة ان الذين يرغبون في يد بينيلوب كانوا يعيشون ، منتظرين ، في منزل بينيلوب الخاص ، وعلى حساب يوليسوس ... ويجب قلب الموقف ..

ونظرت اليه فاغر الفم ، فسألني رينغولد :

— الا تفهم ؟ سأشرح لك : إن « الراغبين » — ومن الانسب لنا، بلا شك ، ان نخفض عددهم الى واحد فقط ، انطينوبس ، مثلاً — كانوا يحبّون بينيلوب قبل حرب طروادة ، وكانوا لذلك يغرقونها بالهدايا، على مألوف عادة اليونانيين . وقد كان بودّ بينيلوب ، المرأة المترفعة ،

القاسية ، على الطراز القديم ، ان ترفض هذه الهبات ؛ وكانت تحرص خصوصاً على ان يطرد زوجها هؤلاء « الراغبين » ولكن لسبب ما زلنا نجهله ، وسنجده في سهولة، كان يوليسوس يخشى ان لا يروق « الراغبين». وهو ، كرجل حسّ سليم ، لا يعلق كبير أهمية على الغزل الذي يمارسه منافسوه ، لأنه يعرف ان زوجته امينة ؛ كذلك فهو لا يعزو اية اهمية للهدايا التي لم يكن ، في صميمه ، لامبالياً بهـا . اذكر يا مؤلتيني ان جميع اليونانيين كـانوا متعطشين للهدايا . إن يوليسوس طبعاً لا ينصح بينيلوب ابداً ان تستسلم لرغبات « الراغبين » فيها ، ولكنه يحثّها على ألاّ تثبطهم ، لان ذلك ، كما يبدو له ، لا يستحق هذا ... إن يوليسوس يريد ان يعيش في سلام ، وهو يحتقر الفضيحة .. اما بينيلوب التي كانت تتوقّع كل شيء من زوجها الا هذا الجمود ، فقد ساءها ذلك ، ولم تصدّق أذنيها .. وهي تحتجّ وتثور ... ولكن يوليسوس لا يفقد برودته، وينصح بيبيلوب مجدداً ان تقبل الهدايا التي تقدَّم اليها ، وان تظهر بمظهر اللطف .. فهذا في نهاية المطاف لا يمكن ان يكلّفها شيئاً كبيراً !... وتتبع بينيلوب في آخر الامر نصيحة زوجها ... ولكنها في الوقت نفسه تكنّ له احتقاراً عميقاً ؛ انها تشعر بأنها قد كفّت عن ان تحبه ، وتقول له ذلك ... واذ ذاك يلاحظ يوليسوس ، ولكن بعد فوات الاوان ، انه بسبب احتراسه المبالغ فيه ، قـد فقد حبّ بينيلوب . ويجهد في إصلاح خطئه ، واستعادة زوجته ، ولكن عبثاً ... وأصبحت حياته في « ايتاك » جحيماً .. واخيراً ، ينتهز فرصة حرب طروادة ، وهـو يائس ، فيغادر منزله . وبعد سبع سنوات ، وضعت الحرب اوزارها، فاستقل يوليسوس البحر للعودة الى « ايتاك » ... ولكنه يعلم ان مَنْ ينتظره في منزله انما هي امرأة لا تحبه بعد ، بل هي تحتقره ... لذلك كانت جميع الحجج صالحة ، في لاوعيه ، لتأجيل هذه العودة المقلقة والمخيفة . على انه لا بد من العودة في نهاية المطاف . ولكن يحـدث

ليوليسوس لدى العودة الى المنزل ما حدث « للفارس » في اسطورة « التنين » ... هل فهمت ما أقصد اليه ، يا مولتيني ؟ لقد فرضت الاميرة على « الفارس » ان يقتل التنين ، واعطته الاميرة قلبها . وهكذا وجدت بينيلوب يوليسوس ، وبعد ان برهنت له عن امانتها ، أفهمته ان هذه الامانة ليست مستوحاة من الحب ، وانما من الكرامة وحدها . وهي لن تستطيع ان تحبّ زوجها مـــن جديد الا بشرط : هو ان يقتل « الراغبين » ... ونحن نعلم ان يوليسوس لا يملك شيئاً من صفات الرجل الدموي الحقود ، وهـــو يؤثر ان يُبعد « الراغبين » باللطف والحسنى ، مستعملاً الاقناع ... على انه يعزم . ذلك انه يعرف في الواقع ان احترام بينيلوب،ومن ثم حبها،يتوقفان على قتل « الراغبين » . وهكذا يقتل الراغبين . واذ ذاك ، فقط ، تكف بنيلوب عن احتقاره وتبادله حبه . ويستعيد يوليسوس وبنيلوب سعادتهما بعد تلك الاعـــوام الطويلة من الفراق ، ويحتفلان بعرسهما الحقيقي ، عرس الدم . هـــل فهمت يا مولتيني ؟ لنلخّص الموضوع : النقطة الاولى : بينيلوب تحتقر زوجها لأنه لم يتصرف كرجـــل وكزوج وكملك تجاه ازعاجات « الراغبين » . ثانياً : هذا الاحتقار يسبب ذهاب يوليسوس الى حرب طروادة . ثالثاً : يعرف يوليسوس انه سيجد في منزله امرأة تحتقره ، فيؤخّر عودته ما أمكنه ، بلا وعي . رابعاً : وليستعيد احترام بينيلوب وحبها ، يقتل يوليسوس « الراغبين » ... وهكذا ... هل فهمت يـا مولتيني ؟

فأجبت أن نعم . وهذا كله لم يكن بالفعل صعباً على الفهم . ولكن النفور الذي كنت أحسه منذ البدء لتفسير علم النفس التحليلي الذي اورده رينغولد ، كان يولد فيّ من جديد اقوى من اي وقت مضى ، وكان يبعث لديّ التململ والحلم . وفي ذلك الحين كان رينغولد يواصل حديثه وهو يضفي عليه مزيداً من الأهمية :

ـ أتعرف ما الذي اعطاني مفتاح الموقف كله ؟ انــه تأمُّل بسيط بمقتل « الراغبين » الذي روته الاوديسة . لقد لاحظت ان هذا القتل الوحشي الذي لا هوادة فيه يناقض مناقضة مطلقة طبع يوليسوس كــما قُدّم لنا حتى ذلك الحين : داهية ، حكيم ، بعيد النظر ... وقلت في نفسي : لقد كان بوسع يوليسوس ان يطرد « الراغبين » ، من غـير تعقيدات ؛ كان ذلك بوسعه ، فهو في بلده ، وهو الملك ... وكان يكفيه ان يجبر الناس على الاعتراف به ... واذا لم يفعل ذلك ، فلأن لديه أسباباً وجيهة ... إن يوليسوس يريد ان يبرهن طبعاً انه ليس فقط داهية ، حكيماً ، بعيد النظر ، ولكنه كذلك ، عند الضرورة ، عنيف كأجاكس ، غضوب كأشيل ، قاس كأغاممنون . ولمن يريد ان يثبت ذلك ؟ لبينيلوب دون ما شك !

لم أقل شيئاً . كانت محاكمة رينغولد الفكرية متماسكة ومنسجمة مع نزعته الى تحويل الاوديسة الى تعاقب بسيكولوجي متسلسل . ولكن هذه النزعة بالذات كانت توقظ لديّ نفوراً عميقاً كما لو أن القضية تدنيس او انتهاك حرمــة . إن كل شيء لدى هوميروس بسيط ، نقيّ ، نبيل ، ساذج ، حتى دهاء يوليسوس الذي تتضمنه ، بشكل شعري ، حدود تفوّقه الفكري . امــا في تفسير رينغولد ، فان كل شيء ، بالعكس، منخفض الى مستوى درامة عصرية اخلاقية مزعوم أنها بسيكولوجية.
وقد انتهى رينغولد الى القول ، وهو راض كل الرضى عن نظريته :

ـ انت ترى يا مولتيني ان الفيلم قد أنجز ، في جميع تفاصيله .. ولا يبقى لنا الا ان نكتبه !

وقاطعته بما يشبه العنف :

ـ إسمع يا رينغولد ، إن تفسيرك لا يروق لي إطلاقاً !

فاتسعت عيناه، وبدا لي وقد فوجيء بجرأتي اكثر منه بمخالفتي اياه :

ـ انه لا يروق لك يا عزيزي مولتيني ؟ ولماذا ؟

فقلت في جهد ، ولكن في ثقة كانت تنمو ما كنت اتكلّم :

ــ ان تفسيرك لا يروق لي لأنه يشكل تزييفاً كاملاً لطبع يوليسوس الأصلي . ان الاوديسة تصوّر يوليسوس رجــلاً ذكياً بارعاً ، ولكنه دائماً في حدود الشرف والكرامة ... فهو لا ينِي قط يظهر بمظهر البطل ، اي المحارب العظيم ، والملك ، والزوج الكامل ... اما تفسيرك فاسمح لي يا عزيزي رينغولد ان اقول لك انه ، على العكس ، يوشك ان يظهره كانسان بلا كرامة ولا شرف ولا معرفة للحياة ... هــذا بصرف النظر عن انك تبتعد عن روح الاوديسة اكثر مما ينبغي .

وفيما كنت اتكلم ، كنت ارى بسمة رينغولد العريضة تتقلص ، وتمحى ، وتزول . وقال بمرارة وهو يبرز في كلامه اللهجة الجرمانية التي كان ينجح اجمالاً في اخفائها :

ــ اسمح لي ، يا عزيزي مولتيني ، ان اقول لك انك ، كالعادة ، لم تفهم شيئاً !

فرددت ، منزعجاً ، بلهجة ساخرة :

ــ كالعادة !

فأجاب رينغولد :

ــ نعم ، كالعادة ، وسأقول لك السبب فوراً : هل تسمعني جيداً، يا مولتيني ؟

ــ انني اصغي اليك ، كن على ثقة من ذلك .

ــ انا لا اريد ، كما تشير ، ان اجعل من يوليسوس رجــلاً بــلا كرامة ولا شرف ولا معرفة بالحياة ... بل اريد بكل بساطة ان امثّل الرجل كما يبدو حقاً في الاوديسة . من هــو يوليسوس الاوديسة ؟ مــاذا يمثّل ؟ انــه يمثل بكــل بساطة الانسان المتمدن ، انــه يجسد الحضارة ... ومــن جميع الابطــال الآخرين الذين هــم كائنات بدائية ، يعتبر يوليسوس الوحيد المتحضر ... واين تكمن حضارة يوليسوس ؟ انها تتلخص في ان يكون المرء بــلا افكار

مسبقة ، وان يعتمد دائماً على العقل ، في جميع الظروف ، حتى في مسائل معرفة الحياة والكرامة والشرف ... كما تقول ... وان يظهر ذكيـــاً ، موضوعياً ، علمياً تقريباً ، كما اقول .. ان للحضارة طبعاً مساوئها ، فهي مثلاً تنسى بسهولة اهمية القضايا التي توصف بأنها قضايا الشرف ، بالنسبة للاشخاص البدائيين . اما بينيلوب، فليست هي امرأة متحضرة ، انها امرأة حسب التقاليد ، هي لا تفهم المحاكمة العقلية ، وانما تفهم الغريزة والدم والكبرياء . انتبه جيداً يا مولتيني ، وحاول ان تفهمني :ان الحضارة يمكن ان تبدو ، وهي تبدو غالباً في عيون الكائنات البدائية ، فساداً ولااخلاقية وانتفاء للمبادىء ووقاحة ... كان هذا هو مثلاً مأخذ هتلر ، وهو رجل متحضر بالتأكيد ، على الحضارة ... لقد كان هو ايضاً يتحدث كثيراً عن الشرف ... ولكننا نعرف اليوم مَن كان هتلر ، وما كانت قيمة شرفه ... وبالاجمال ، فان بينيلوب ، في الاوديسة ، تمثل البربرية ، ويوليسوس الحضارة ... وهل تعلم ، يا مولتيني ، اني في حين كنت اعتبرك متحضراً كيوليسوس ، أراك تتكلم كبينيلوب ، تلك البربرية ؟!

نطق رينغولد بهذه الكلمات الاخيرة في بسمة عريضة ، وكان واضحاً انه مسرور بالعثور على هذه اللقية اذ شبّهني ببينيلوب . ولكن هــذا التشبيه ازعجني اكثر مما كنت أتصور . بل لقد أحسستني امتقع من شدة الغضب ، وقلت بصوت معتكر :

– اذا كنت تعتبر برهاناً على الحضارة ان يحمل رجلٌ الشمعة لمن يغوي زوجته ، فانني يا عزيزي مولتيني افخر بأن اكون بربرياً !

وأدهشني ان رينغولد لم يغضب هذه المرة ، بل قال وهو يرفع يـــده :

– لحظة ... انك هذا الصباح تفكر على نحو رديء يا مولتيني ، مثل بينيلوب تماماً .. واذن ، فهذا ما سوف نفعله : اذهب فخذ حماماً

في البحر ، وفكّر ... ثم تعود للقائي صباح الغـد لتقول لي نتيجة تأملاتك ... هل انت موافق ؟

فأجبت منزعجاً :

– حسناً ! ولكن ليس من المرجّح اطلاقاً ان اغير رأيي !

فكرر رينغولد وهو ينهض ويمد لي يده :

– فكّر !...

فنهضت بدوري . واضاف رينغولد بهدوء :

– انني متأكد انك غداً ستعطيني الحق ...

فأجبت :

– لا اظنّ ذلك .

ومضيت .

الفصل الثامن عشر

لم يكن حديثنا قد استمر اكثر من ساعة . فكان امامي اذن النهار بطوله لكي « افكر » ، كما قال لي رينغولد ، حتى اقرر هل اقبل تفسيره ام ارفضه . واعترف اني ما كدت اغادر الفندق حتى اتجه فكري ، لا الى رينغولد ، بل الى طرد ذكراه من ذهني لاتمتع بالنهار الجميل على هواي . ثم انني كنت اجد في افكار المخرج شيئاً يتجاوز عملي كسيناري ، شيئاً لم اكن اعرف بعد ان احدده ، ولكن رد فعلي المتطرف كان قد كشفه لي بغموض . كان لا مناص ، في نهاية المطاف من التفكير حقاً . وتذكرت اني ، قبل ساعة ، اذ خرجت للقاء رينغولد ، كنت قد لمحت تحت المقصورة خليجاً صغيراً متوحداً ؛ فعزمت ان اقصده ، اعتقاداً مني اني سأجد الراحة للتفكير وفق نصيحة المخرج ، والا سأكتفي بأن استحم فيه بكل بساطة .

وسرت على الرصيف الذي يحيط بالجزيرة . وكان الوقت ما يزال باكراً في الصباح ، وكان الطريق المظلل خالياً تقريباً ، الا من صبي يوقظ الصمت بوقع قدميه العاريتين على القرميد ، وفتاتين متعانقتين ، تثرثران بصوت منخفض ؛ وسيدتين او ثلاث من العجائز يتزهن كلابهن .

واذ بلغت نهاية الطريق ، سكت الممر الذي يتعرج في الجزء الاكثر توحداً ووعورةً من الجزيرة . وسرت قليلاً ، ثم توقفت امام مفترق : كان ثمة ممر اضيق يفضي الى سطيحة صغيرة معلقة في الفضاء . ودلفت الى هذا الممر ، وحين بلغت السطيحة نظرت فيما تحتي . كان البحر على انخفاض مئة متر يخفق ويتلألأ تحت الشمس ، مغيراً لونه وفق انفاس الريح ، فهنا زرقة مصفرّة ، وهناك بنفسجية ، وهناك زمردية . ومن هذا البحر الصامت ، كانت صخور الجزيرة المقنفذة تبدو وكأنها تصعد من الهاوية اليّ ، كسهام ذات رؤوس عارية متلألئة بالضوء .

وفجأة غمرني ، من غير ان ادري السبب ، نوعٌ من الهوس ، فأحسست ان الحياة ثقيلة على كتفي ، وأني موشك في هذه اللحظة ان اقوم بقفزة في المدى الضوئي ، فأموت ميتةً تكاد تكون جديرة بأفضل جزء من نفسي . أجل ، انني مستعد ان اقتل نفسي لأبلغ في الموت ذلك النقاء الذي افتقدته في الحياة .

كان اغراء الانتحار هذا صادقاً ، وكانت حياتي بلا شك معرضة للخطر مدة لحظة . ثم فكرت في اميلي ، كما لو كان ذلك بدافع الغريزة ، وبالطريقة التي ستستقبل بها نبأ موتي . وقلت في نفسي فجأة: « انك تود ان تموت ، لا ضجراً من الحياة ، بل من اجل اميلي » وخففت هذه الفكرة من حدة هوسي اذ عرّته من اي سمة مجرّدة . وتساءلت : « بسبب اميلي ، ام من أجلها ؟ ان التمييز هام جداً ...» ولم يلبث الجواب ان جاء : « من اجل اميلي ، لكي استرد احترامها، ولو بعد الوفاة ... لكي اخلّف لديها ندماً انها قد احتقرتني ظلماً . »

وما كدت اكوّن هذه الفكرة ، كما في لعبة الاطفال تلك حيث يجب اعادة تكوين صورة بواسطة كمية من القطع الصغيرة المتناثرة ، حتى اكتملت لوحة وضعي الحالي بهذه الفكرة الاخرى : « لئن كان ردّ فعلك عنيفاً الى هذا الحد على افكار رينغولد ، فلأنه وهو يشرح علاقات

يوليسوس وبينيلوب قد اومأ بطرف خفيّ ، على ما خيّل اليك ، وبلا نيّة من جانبه ، الى العلاقات القائمة بينك وبين اميـلي . وحين كان رينغولد يتكلم عن احتقار بينيلوب ليوليسوس ، فكرت باحتقار اميلي لك ... ولقد بدت لك الحقيقة غير محتملة ، وقد احتججت ، اجمالاً ، على الحقيقة ... »

ولكن اللوحة لم تكن قد اكتملت بعدُ تماماً ؛ فقد جاءت افكار اخرى تتمّها ، نهائياً هذه المرة . « لقد اردت ان تموت لأنك لا تلعب لعبة صريحة مـع نفسك ... فلكي تستّرد احترام اميلي ، لست بحاجة اطلاقاً الى ان تقتل نفسك ... يكفي شيء اقل من هذا كثيراً .. لقد دلك رينغولد على ما ينبغي ان تفعل : ان يوليسوس ، من اجـل ان يفوز بحب بينيلوب ، استأصل « الراغبين » ... وعليك ، نظرياً ، ان تقتل باتيستا ... ولكن العالم الذي نعيش فيه هو اقل عنفاً واطلاقاً من عالم الاوديسة ... ويكفيك ان تتخلى عن السناريو الذي كان المفروض ان تكتبه ، وان تقطع كل علاقة بباتيستا ، وان تعود غداً صباحاً الى روما ... لقد نصحتك اميلي الا تتخلى عن السناريو لأنها ،على الارجح، تريد ان تحتقرك وترغب في ان يعطيها مسلكك الحق ... فـلا تهتم بآرائها ... ان عليك ، بالعكس ، ان تتصرف كما تصرف يوليسوس، وفق نظرية رينغولد . »

قُضي الأمر اذن : كنت قد درست وضعي دراسة عميقة ، بـلا هوادة ، وبأكبر حظ من الاخلاص . ولم اكن بحاجة الآن الى التفكير كما طلب مني رينغولد ، لم يكن لي بعد الا ان اعـود ادراجي وان اذهب الى المخرج فأبلغه قراري الذي لا مردّ له هذه المرة . ولكني قلت لنفسي ، برد فعل من الاحتراس ، انه لا ينبغي لي ان اتصرف بخفة وطيش ، وان اعطي الانطباع عن عملية معاندة ، لأن كل حساب اصبح الآن نافلة . فاني سأقصد رينغولد بعد الظهر ، بكل هدوء ،

فأبلغه قراري . وبمثل هذا الهدوء ، حين اعود الى المقصورة ، سأرجو اميلي ان تُعدّ الحقائب . اما باتيستا ، فلم اكن اعتقد من الضروري التحدث اليه . ففي الصباح ، عند ذهابنا ، سأبعث اليه برسالة مقتضبة جداً ، عازياً قراري المفاجىء الى عدم الانسجام بين افكاري وافكار رينغولد ، وهذا ما كان ، في حقيقته ، صحيحاً . وقد كان باتيستا ذكياً ، فهو اذن سيفهم ، ولن اراه بعد ذلك ابداً .

كنت مستغرقا في افكاري، فعُدت ادراجي من غير ان احس بذلك، وكنت قد سلكت الطريق آلياً حتى الى مـا تحت مقصورة باتيستا ؛ وهبطت بسرعة ممراً وعراً ورملياً نحو الخليج الصغير الوحيد الذي كنت قد لاحظته ذلك الصباح بالذات . فبلغته وانا ألهث قليلاً ، ولكي استرد انفاسي ، توقفت لحظة عند صخرة انظر فيما حولي . وكانت الرملة الصغيرة محشورة بين كتل كثيفة من الصخور التي كانت قد انفصلت عن الرابية وتدحرجت حتى الاسفل ؛ وكان رأسان متعرجان يُغلقان الرملة من كل جهة ، منتصبين فوق مـاء خضراء شفافة كانت أشعة الشمس تخترقها حتى انها لتضيء الحصبة البيضاء في الاعماق . ثم لمحت صخرة سوداء ، متآكلة منخوبة ، غارقة حتى نصفها في الرمل والماء، فأخذتني الرغبة في ان اذهب فأتمدد في ظلها لاحتمي من الشمس المحرقة. واذ كنت استدير حولها ، رأيت اميلي متمددة على الحصى ، عارية تماماً.

والحقيقة اني لم اتعرفها على الفور لأن وجهها كان مغطى بقبعة كبيرة من القش ؛ بل لقد كانت حركتي الاولى ان انسحب وانا اظنني تجاه مجهولة . ولكن حين استقر نظري على الذراع التي كانت قد بسطتها على الارض وانتقل الى اليد ، تعرفت في سبابتها الخاتم ذا الحجر اللبني المذهب المزدوج المُذهب الذي كنت قد اهديته الى اميلي منذ فترة ، بمناسبة عيد ميلادها.

كنت خلف اميلي التي كانت عارية ، كما ذكرت ، وكانت ثيابها موضوعة الى جانبها مشكلة كومة صغيرة من الاقمشة الملونة ، صغيرة جداً

حتى انه كان يبدو مستحيلاً ان تُلبِسَ هذا الجسم الكبير . وبالفعل ، فان اول ما لفت نظري في عُرْيِ اميلي ، لم يكن هذا التفصيل او ذاك،وانما المجموع ، فكرة الكِبَر والقوة التي كان هذا الجسم يوحيها. كنت اعرف جيداً ان اميلي لم تكن ذات قامة اطول من قامة معظم النساء ، ولكن عُريها في تلك اللحظة كان يبدو لي هائلاً ، كما لو ان البحر والسماء كانا في تلك اللحظة يعيرانها عظمتها . وفي ذلك الوضع المتمدد ، كان النهدان يفقدان من بروزهما وانتفاخهما المعضل ، ولكن حجمها كان يبدو لعينيّ اكــبر من الحجم الطبيعي ، وكذلك الدائرة الوردية لحلمتيها ؛ وكـان أكــبر من الطبيعي ايضاً ذانك الحصران اللذان كانــا يتمددان على الرمل في تفتح شهواني قويّ ، وكذلك البطن الذي كان يبدو وهو يتلقى في دائرته اللحمية كل أشعة الشمس ، ومثل ذلك كان الساقان اللتان كانتا اكثر انخفاضاً من باقي الجسم ، بسبب انحدار الارض ، فكانتا تبدوان مشدودتين بثقلها الخاص، وتظهران اطول من الطبيعي . وتساءلت من اين كان يأتي هذا الاحساس بالكبر والقوة ، العميق المقلق ؟ وادركت انه كان صادراً عن شهوتي التي استيقظت بوحشية . شهوة روحية اكثر منها جسدية — بالرغم من تلقائيتها وزخمها — في ان اتحد بها ، لا بجسدها ، بل عبْر جسدها.كنت حقاً متعطشاً لها ، ولم يكن ارواء هذا العطش يتوقف عليّ ، بل عليها وحدها ، على موافقتها تجيء قبل شهوتي . ومن اسف اني كنت أحس ان هذه الموافقة ، كانت تمنعها هي عني ، بالرغم من انها كانت ، بوهم من اوهام الرؤية ، تبدو في عُريها وهي تمنحني نفسها .

ولكني لم أكن استطيع ان ابقى الى ما لا نهاية وانا أتأمل هذا الجسم المحرم . وقمت بخطوة الى الامام ، وناديت في الصمت ، بوضوح :

— اميلي !

فندّت عنها حركة سريعة في وقتين : فقد ألقت اولاً قبعتها عنها ،

ومدت يدها لتتناول قميصها عن كومة الملابس لتغطي به نفسها ؛ ثم جلست وأدارت رأسها لتنظر خلفها . ولكني حين أضفت قائلاً :

ـ هذا انا ، ريشارد !

رأتني وتركت قميصها يسقط . وفكرت بأنها قد خافت ان تجد نفسها امام غريب ، ولكنها اذ رأت اني انا القادم ، حكمت بأنه من غير المجدي ان تغطي نفسها ، كما لو كان الامر يتعلق بشخص غير موجود . وانا اورد هذه الفكرة ، اللامعقولة في حقيقتها ، لأصور حالتي النفسية في تلك اللحظة . ولم تخطر بذهني فكرةُ أنها اذا لم تكن تُحس الحاجة الى اخفاء جسمها ، فلأني كنت زوجها ، ولم اكن غريباً . لقد كنت من شدة الاقتناع بأني غير موجود بالنسبة اليها ، على الأقل من الوجهة الغرامية ، بحيث فسَّرت حركتها الملتبسة على انها دليل آخر على عدم وجودي . وقلت بصوت منخفض :

ـ لقد مرت خمس دقائق على الاقل وانا انظر اليك .. وهل تعرفين انه يخيل الي اني اراك للمرة الاولى ؟

فلم تجبني بشيء ، ولكنها استدارت اكثر من ذي قبل لتراني على نحو ايسر ، واحكمت على أنفها نظارتها السوداء بحركة فضول آلية . وقلت :

ـ هل ترين مانعاً في ان ابقى هنا ، ام تفضلين ان اذهب ؟

فتأملتني ، ثم اضطجعت من جديد على ظهرها في هدوء وهي تقول لي :

ـ إبق ، ان كان هذا يسرك ... شرط ألاّ تحرمني من شمسي !

لقد كانت تعتبرني اذن كأني غير موجود ، مجرد جسم كثيف يستطيع ان يقف بين اشعة الشمس وجسدها العاري ، هذا الجسد الذي كان المفروض فيه ، على العكس ، ان يُحس نفسه مرتبطاً بجسدي ،

وان يعبّر عن ذلك على نحوٍ ما ، حتى ولو كان الحشمة او الخوف .
وقد حيرني عدم الاكتراث هذا بشكل مؤلم ، فجفّ فمي جفافاً مفاجئاً ، وشعرت بأن وجهي يتخذ بالرغم مني تعبيراً متردداً ، شارداً ، لا مبالياً بشكل مزيف وشاق . وقلت :

— الجو هنا جميل ، وسآخذ انا ايضاً حماماً ..

ولكي اتمالك نفسي ، جلست على بعد خطوات منها ، مسنداً ظهري الى صخرة .

وامتد الصمت بيننا . وكانت امواج وموجات من الضوء المذهب الباهر الرقيق تغمرني ، ولم يسعني الا ان اغمض عينيّ في احساس عميق بالسعادة والهدوء . على اني لم اكن انجح في اقناع نفسي باني كنت هناك لآخذ حمام شمس ، شاعراً باني لن استطيع ان اتذوقه تذوقاً كاملاً الا اذا كانت اميلي تحبني . وقلت وانا افكر بصوت مرتفع :

— إن هذا الركن من العالم يبدو وكأنه مصنوع للعشاق والمحبين ..

فأجابت بصوت تخنقه بعض الشيء قبعة القش التي كانت تغطي وجهها :

— تماماً .

— ولكن ليس لنا نحن اللذين لم يعد احدنا يحب الآخر ..

فلم تجب وظللت محدداً عينيّ بها ، وانا احس من جديد تلك الرغبة التي اثارتني حين لمحتها للمرة الاولى اذ خرجت اليها عبر الصخور .

ان من ميزات المشاعر الكثيفة انها تدفعنا الى العمل بكل تلقائية ، بلا مساعدة من ارادتنا ، وعلى نحو شبه لاواعٍ . لقد وجدتني فجأة ، من غير ان اعرف كيف تمّ ذلك عل ركبتي قرب اميلي المضطجعة الجامدة ، منحنياً بوجهي فوق وجهها . ولا ادري كيف كنت قد نزعت القبعة العريضة التي كانت تغطي ملامحها ، واذ انحنيت لأقبلها ، نظرت

الى فمها كما ينظر المرء الى ثمرة يوشك ان يقضمها . كان لها فم كبير ريّان ؛ وكانت الشفتان المصبوغتان تبدوان جافتين مشققتين ، كما لو ان لهيباً داخلياً ، بصرف النظر عن الشمس ، كان قد جففها . وكنت افكر بان هذا الفم لم يكن قد لمس فمي منذ وقت طويل ، وان مذاق تلك القبلة ، اذا بادلتني اياهــا وهي في احلامها ، سيكون بالنسبة لي اكثر إسكاراً من اقوى المشروبات . واعتقد اني ظللت طوال دقيقة على الأقل اتأمل هذا الفم ، ثم ادنيت شفتيّ بكل هدوء . ولكني لم أقبّلها بعد ، متريثاً في الاحساس بفمي شديد القرب من فمها . وكنت اشعر بالنَفَس الخفيف المادىء الذي كان يخرج من منخريها ، وكذلك بحرارة شفتيها الملتهبتين ، على ما كان يخيل الي . وكنت اتخيل ، فيما وراء هاتين الشفتين ، في داخل الفم ، رطوبة اللعاب شبيهةً بجليد مثلج في اعماق ارض تحرقها الشمس ، مدهشة ومرطبة كهذا الجليـــد . وفيما كنت مسبّقاً اتذوّق هذه الرطوبة ، التقت شفتاي اخيراً بشفتيّ اميلي .

ولم يبد هذا الاتصال مفاجئاً لها ، او موقظاً اياها . وضغطت شفتيّ برقة اول الامر ، ثم بقوة ، واذ ألفيتها جامدة ما تزال ، جازفت بقبلة اعمق . واحسست هذه المرة ، وفق رغبتي ، فمها ينفتح على مهل ، اشبه بصَدفة تنشقُّ مصاريعها على خفق حيوان حي ، غاطس في ماء بحري رطيب . كان فمها ينفتح ، وينفتح ، فتكشف الشفاه عن لثتها ، وكنت اشعر في الوقت نفسه بذراع تحوط عنقي .

ارتعشت ارتعاشاً عنيفاً واستيقظت مما كان بالطبع غفوةً خلقها الصمت وحرارة الشمس . كانت اميلي على بعد خطوات مني ، ما تزال متمددة على الرمال ، ووجهها مختف تماماً بقبعتها القشية . وادركت اني كنت قد حلمت بهذه القبلة ، او أني بالاحرى كنت قد عشتها في تلك الحالة من الحنين الهاذي الذي كان يبدو وهو يُحل دائماً محل الواقع الموئس وهماً فتّاناً . كنت قد قبّلتها وبادلتني قبلتي ، ولكن هذا العناق كان عناق

طيفين بعشتها الشهوة ، منفصلين عن شخصينا الجامدين المتباعدين .

واحتوى نظري اميلي . وقلت لنفسي : « ولنفرض الآن اني احاول حقاً ان اعانقها ؟ » وسرعان ما اجبت نفسي : « انك لن تفعل شيئاً من ذلك ، لشدة ما انت مشلول بالخجل وبالاحساس باحتقارها لك ». وفجأة ناديتها بصوت قوي :

— اميلي !

— ماذا هناك ؟

— لقد غفوت وحلمت بأني كنت اقبلك ...

فلم تقل شيئاً . وراعني هذا الصمت ، فأردت ان اغيّر الموضوع وسألت ، كيفما اتفق لي :

— اين باتيستا ؟

فأجاب صوتها الهادىء من تحت القبعة الكبيرة :

— لا ادري .. وبالمناسبة ، انه في هذا الصباح لن يتناول الفطور معنا .. لقد ذهب يقوم بنزهة في البحر مع رينغولد .

وقبل ان يتاح لي وقت للتفكير ، خرجت هذه الكلمات من شفتيّ :

— اميلي ، لقد رأيتك مساء أمس ، حين كان باتيستا يقبّلك .

— كنت اعرف ذلك .. لقد رأيتك ، انا ايضاً ..

وكان صوتها طبيعياً تماماً ، لا تكاد تضعفه اطراف القبعة .

وذُعرت ان اراها تتلقى تصريحي على هذا النحو ، كما دُهشت بقراري المفاجيء . وفكرت ان صمت البحر والخَدَر الذي خلقته الشمس كانا في الحقيقة قد أذابا ومحوا ، اذا صح التعبير ، خلافنا ، في شعور عام من اللاجدوى واللامبالاة . ومع ذلك ، فقد اضفت في جهد :

— اميلي ، يجب ان نتكلم كلانا ..

— ليس الآن .. انني اريد ان آخذ حمامي الشمسي وان اكون هادئة ..

ـ اذن ، فيما بعد ، بعد الظهر ؟

ـ اتفقنا ، اليوم بعد الظهر .

ونهضت ، ومن غير ان ألقي نظرة خلفي ، عدت اسلك الطريق الذي يفضي الى المقصورة .

الفصل التاسع عشر

لم نتبادل ، على مائدة الغداء ، الا كلمات قليـــلة . وكان الصمت يبدو وهو ينفذ حتى صميم البيت مع النـــور الماجري . وكانت السماء والبحر اللذان يملأان النوافذ الواسعة يباعدان فيما بيننا ، فيما كانا يبهراننا ؛ فكأن هذا اللازورد كله كان يملك كثافة ماء يجري ، وكأننا كنا جالسين في قعر البحر ، مفصولين بالكتلة المائية المشرقة ، عاجزين عن الكلام . ومن جهة اخرى ، كنت مصمماً على ألاّ أواجه التفاهم مع اميلي قبل الساعة التي كنت قد حددتها انا نفسي . إن بامكان المرء ان يفكر بان شخصين يقوم احدهما في وجه الآخر وبينهما مناقشة معلّقة ، لا يفكران بشيء آخر ، في مثل هذه الظروف . ولم يكن ذلك وضعنا بالتأكيد ؛ انني لم اكن افكر بقبلة باتيستا ولا بخلافنا الصميمي ؛ وكنت واثقاً من ان اميلي لم تكن اقل من ذلك بعداً عن هذا . كان ذلك التوقّف الزمني ، وذلك الحذر ، وتلك اللامبالاة تتجدد كلها على نحو ما ، فتنصحني في ذلك الصباح على الشاطيء بارجاء كل مناقشة الى ما بعد .

ونهضت اميلي بعد الغداء ، وقالت انها ذاهبة لتستريح ، وخرجت. وظللت وحدي لحظة من غير ان اتحرك ، وانا انظر عبر النافذة الى خط الافق المشرق ، حيث كانت زرقة البحر القاسية تذوب مـــع لازورد

السماء العميق . وكانت سفينة صغيرة سوداء تتقدم على ذلك الخط كذبابة على خيط ممدود ، وكنت اتابعها بعيني وانا اتخيل ، بطفولة ، ما كان يحدث تلك اللحظة على الشاطيء : بحارة يلمعون النحاس او يغسلون الجسر ، وطباخ ينظف الاواني بين الجسرين ، وضباط ربما كانوا ما يزالون على المائدة ، وميكانيكيون نصف عراة يرمون رزماً من فحم في المحرقة .. كانت سفينة صغيرة جداً ، ليست اكبر من نقطة في عيني ، ولكنها عن كثب شيء عظيم ، مليء بالناس ، محمّل بالمصائر البشرية . وبالمقابل ، كنت افكر بان هؤلاء البحارة ربما كانوا هناك ، وهم ينظرون الى شواطيء كابري ، يحدّقون في النقطة البيضاء الضائعة على الشاطيء ، من غير ان يدركوا ان هذه النقطة كانت المقصورة ، واني كنت فيها مع زوجتي ، وان احدنا لم يكن يحب الآخر ، وان اميلي كانت تحتقرني ، واني لم اكن اعرف كيف استرد احترامها وحبها .

ولاحظت ان النعاس كان يستولي عليّ ، فعزمت في انتفاضة مفاجئة ان انفّذ الجزء الاول من خطتي : إبلاغ رينغولد انني ، بعد تفكير ناضج ، عدلت عن التعاون معه . وخلّفت هذه الفكرة لديّ تأثير دوش بارد . وغادرت المقصورة وقد استيقظت تماماً .

وبعد نصف ساعة ، كنت قد اجتزت بخطوة سريعة الطريق الذي يستدير حول الجزيرة ، فدخلت قاعة الفندق . واعطيتهم اسمي ثم ذهبت اجلس على اريكة . وكان لدي شعور باني انعم بصفاء ذهني كبير ، صفاء عصبي ممزوج بالاهتياج . ولكني كنت أحسني ، عبر العزاء المتزايد الفرِح الذي كنت اشعر به لدى التفكير بما سوف افعله ، سائراً على الطريق السويّ . وبعد بضع دقائق دخل رينغولد القاعة ، واقبل علي بوجه مهموم ومفاجأ في وقت واحد ، مفاجأ بزيارتي في تلك الساعة مع خشية وجود أنباء سيئة . وسألته في تأدب :

ـ ربما كنت نائماً يا رينغولد ، فهل ايقظتك ؟

فقال مؤكداً :

— لا ، لا ، لم اكن نائما ، فأنا لا أقيل ابداً .. ولكن تعال ، يا مولتيني ، لنذهب الى المشرب .

وتبعته الى المشرب الذي كان خالياً في تلك الساعة . وسألني رينغولد، كما لو انه كان يريد ان يؤخر المناقشة التي كان يخشاها ، عما كنت اريد ان اشرب : قهوة ام مشروباً ؟ وكان يعرض علي ذلك بهيئة تشبه هيئة بخيل مقسور على القيام بضيافة سخية . ولكـــني كنت ادرك ان سبب استيائه كان شيئاً آخر ، وانه كان يؤثر ألاّ يراني . ولم ارد ان آخذ شيئاً ، وبعد بضع عبارات تافهة ، باشرت الحديث عن السبب الرئيسي لزيارتي :

— انك مندهش بلا شك ان تراني اعود اليك مبكراً ، في حين اني كنت املك النهار كله للتفكير ، ولكن بدا لي غير مجد ان انتظر حتى الغد .. لقد بحثت القضية بما فيه الكفاية من العمق وأتيت ابلغك نتيجة افكاري ..

— وما هي هذه النتيجة ؟

— انني لا استطيع المشاركة في هذا السناريو ؛ انني بالاجمال اتخلى عن هذا العمل .

ولم يتلقّ رينغولد تصريحي في دهشة ، فقد كان يتوقع ذلك طبعاً . ولكنه بدا مأخوذاً بنوع من الهياج ، واجابني بصوت متغير :

— اسمع ، يا مولتيني ، لقد كنا بحاجة ان نتحدث ، انت وانا ، حديثاً واضحاً .

— يبدو لي اني كنت واضحاً اشد الوضوح .. انني لـــن اكتب سناريو « الاوديسة » .

— ولماذا ، رجاءً ؟

— لانني غير موافق على تفسيرك للموضوع .

فقال بصوت غير متوقع :

– انك اذن متفق مع باتيستا ؟

وغاظني بدوري هذا الهجوم الذي لم اكن اتوقعه . انه لم يسبق لي ان فكرت بان اختلافي مع رينغولد يعني بالضرورة اتفاقي مع باتيستا، وقد قلت في غضب :

– ما شأن باتيستا هنا ؟ انني لا اتبنى وجهة نظره اكثر مما تبنيت وجهة نظرك .. ولكني اصارحك يا رينغولد انني اذا كان لي ان اختار بين الوجهتين ، لفضلت باتيستا عليك .. انني آسف ، ولكني اعتقد ان المرء اما ان يكتب اوديسة هوميروس او لا يكتبها .

– حفلة تنكرية بالتكنيكولور ، مع نساء عاريات ، وكنغ – كونغ ، ورقصات البطن ، وعرض النهود ، ومسوخ مـن الورق المقوّى ، وعارضات ! ..

– انني لم أقل ذلك ، بل قلت اوديسة هوميروس !

وانفجر رينغولد بلهجة اقتناع عميق :

– ولكن اوديسة هوميروس هي اوديستي ، يا مولتيني !

ولا ادري لماذا أحسست دفعة واحدة بالحاجـة الى اثارة غضب رينغولد : لقد كانت بسمته الاحتفالية المزيفـة ، وقسوته الطغيانية الحقيقية ، ونظراته التحليلية القصيرة اموراً لا تُحتمل عنـدي في تلك اللحظة . وقلت في غضب :

– لا ، إن اوديسة هوميروس ليست هي اوديستك ، بل اقول لك اكثر من ذلك ، ما دمت تدفعني الى النهاية ، إن الاوديسة تفتنني ، وما تريد انت ان تصنعه منها ينفرني !

– مولتيني !

قالها رينغولد وهو يبدو هذه المرة مغتاظاً حقاً . فتابعت كلامي وقد انطلقت فيه :

– نعم ، إن « اوديستك تنفّرني ، ارادتك في ان تخفض البطل الهوميروسي لاننا لسنا قادرين عـلى ان نصنعه مرة اخرى كما خلقه هوميروس – إن عملية التشويه هذه تثير اشمئزازي ولن اشارك فيها بأي ثمن !

– مولتيني !... انتظر يا مولتيني !

فقاطعته غاضباً :

– هل قرأت « يوليسوس » لجيمس جويس ؟ اتعرف من هـو جويس ؟

فأجاب رينغولد بلهجة منزعجة الي ابعد حد :

– لقد قرأت كل ما يمت الى الاوديسة .

– لقد فسّر جويس هو ايضاً الاوديسة تفسيراً عصرياً ... وفي هذه الارادة بالتعصير ، اي بالتشويه والخفض والتدنيس ، ذهب أبعد منك بكثير ، يا عزيزي رينغولد : لقد جعل من يوليسوس عكروتاً ، شاذاً جنسياً ، إمعة ، هروبيا ، عاجزاً ، وجعل من بينيلوب مومسا مجربة... وقد أصبح « ايول » محرر جريدة ؛ والهبوط الى الجحيم جنازة رفيق مدمن ، و « سيرسيه » زيارة لماخور ، والعودة الى « ايتاك » العودة « الى البيت » ليلاً عبر شوارع دوبلن ، مع توقف لقضاء حاجة جنسية في زاوية من الزوايا . ولكن جويس تحفّظ على الاقل فلم يذكر البحر الابيض المتوسط ولا البحر ولا الشمس ولا الاراضي البور القديمة ... لقد وضع « يوليسوسه » في الشوارع المتشققة لمدينة شمالية ، في الحانات والمواخير والمخادع والمراحيض ... لا شمس ولا بحر ولا سماء .. ولكن كل شيء هناك عصري ، اي منحطّ ، مشوه ، على قياسنا البائس... اما انت يا رينغولد ، فلا تملك حتى تحفّظ جويس هـذا ، ولهذا ، اكرر لك اني اذا دُعيت للتفضيل بينك وبين باتيستا ، افضل باتيستا...

لقد أردتَ ان تعرف اسباب رفضي العمل بهذا السناريو .. وانت الآن تعرفها .

وتداعيت للسقوط في أريكتي ، غارقاً بالعرق . وكان رينغولد يحدجني قاسيا ، جاداً ، مقطب الحاجبين :

– انت إذن بالاجمال على اتفاق مع باتيستا ؟

– لا ، انا ببساطة على خلاف معك .

فقال رينغولد وهو يرفع صوته فجأة :

– عفواً ، لا على خلاف معي ، ولكن على اتفاق مع باتيستا ...

وأحسست فجأة الدم ينسحب من وجنتي ، ولا بد اني كنت ممتقعا الى حد الموت ، فقلت بلهجة مضطربة :

– ما الذي تقصده ؟

قال رينغولد علي وقال بصوت يفح ، وهذه هي الكلمة المعبّرة ، لأنه يذكّر بأفعى تُحس أنها مهددَّة :

– أقصد ما أقصد ... لقد تناولت الغداء مع باتيستا ، وهو لم يُخفِ عني افكاره ، ولا حقيقة انك تشاطره اياها ... إنك على وفاق معه ، مهما اراد .. وليس الفن هو غايتك يا مولتيني ؛ إن ما يعنيك هو المال.. هذه هي الحقيقة يا مولتيني .. إن شيئا واحداً يهمك : ان تقبض ... بأي ثمن !

فصحت محتجا بصوت قوي :

– رينغولد !

فتابع ملحّا :

– لقد فهمت يا سيدي العزيز ، واكرّر لك : بأيّ ثمن !

وكنا الآن وجها لوجه ، لاهثين ؛ كنت انا ممتقعا كورقة بيضاء ، وكان هو في حمرة قرمزيـة . وقلت مردداً ، ولكني كنت ادرك ان

صوتي كان يعبر عن ألم اكثر منه عن غيظ :

– رينغولد !

وكانت هذه الصيحة تبدو رجاءً اكثر منها تعبيراً عن غضب رجل مهان ، يوشك ان ينتقل من العنف الكلامي الى الضرب . ولكني في الوقت نفسه كنت أشعر اني على وشك ان أصفع المخرج . ولم يتح لي الوقت لذلك . ولدهشتي الكبيرة ، بدا رينغولد الذي كنت أحسبه ثقيل الذهن ، مدركا الالم الكامن في صوتي ، وبدأ فجأة يتمالك نفسه ويستردّ برودة اعصابه . وقد ابتعد قليلاً ، وقال بصوت منخفض اراده ان يكون متواضعاً :

– اعذرني يا مولتيني ، لم اكن افكر بما قلته !

فأتيت حركة عصبية كما لاقول « انني اعذرك » وشعرت بالدموع تصعد الى عينيّ . واستطرد رينغولد بعد لحظة ارتباك :

– حسنا .. لقد تفاهمنا ... انك لن تشارك في هذا السيناريو .. هل أبلغت باتيستا ؟

– لا .

– وهل تفكر في ابلاغه ؟

– افعل انت نفسك ذلك .. انا لا اعتقد اني سأرى باتيستا من جديد.

وصمتّ لحظة ثم أضفت:

– وقل له ان يبحث عن سيناريّ آخر ... وليكن هذا واضحا ، يا رينغولد !

فسألني بدهشة :

– ما هو ؟

– انني لن اكتب سناريو عن الاوديسة ، لا وفق افكارك ولا وفق افكاره .. لا معك ، ولا مع مخرج آخر ... هل فهمت جيداً ؟

فعبر عينيه نور تفهُّم . ولكنه سأل في حذر :

ـ ايكون ما ترفضه هو سناريوي انا ، ام السناريو بذاته ، على اي حال ؟

فقلت بعد تفكير قصير :

ـ لقد سبق ان قلت لك اني لا اريد تفسيرك ؛ ثم اني أرى اني اذا علّلت رفضي على هذا النحو ، أسأت اليك عند باتيستا .. ولذلك فاننا سنتفق على ما يلي : انت تعلم اني غير موافق على تفسيرك ،ولكن ليكن مفهوماً ، بالنسبة لباتيستا ، اني ارفض معالجة هذا الموضوع مهما كان التفسير الذي يُعطاه .. قل له إني لا أحسّ بالمستوى المطلوب ، واني متعب ، وأني مصاب بانهيار عصبي ... ما رأيك ؟

فبدا رينغولد مرتاحاً ، ومع ذلك فقد قال ملحّاً :

ـ وهل يصدق باتيستا ذلك ؟

ـ سيصدقه ، وليطمئن بالك ، سترى انه سيصدقه !

وتبع ذلك صمت طويل ؛ وكنا منزعجين كلانا ؛ وكان نزاعنا ما يزال في الهواء،وما كان بوسعنا ان ننساه سريعا . وقال رينغولد اخيراً:

ـ آسف جداً ألا تكون معاوني يا مولتيني .. وربما كان بامكاننا ان نتفق !

ـ لا اعتقد ذلك ...

ـ ان اختلاف وجهات النظر بيننا ، ربما لم يكن كبيرا الى هذا الحد ، بعد كل حساب ؟

فقلت بحزم وقد استرددت كل هدوئي :

ـ لا ، يا رينغولد ، لقد كان اختلافاً كبيراً جداً . إن من الممكن ان تكون على حق وانت ترى الاوديسة من وجهة نظرك .. اما انا ، فاني من وجهتي مقتنع بان الاوديسة ، حتى اليوم ، يمكن ان تُقدّم كما

كتبها هوميروس .

فأجبت بلهجة مصالحة :

ـ لنفترض ذلك .. ولكني أصبو الى عالم شبيه بعالم هوميروس ، اما انت ، فلا ...

ـ انت على خطأ يا مولتيني : انا ايضاً ... فمنذا الذي لا يصبو اليه ؟ ولكن حين تكون القضية قضية صنع فيلم ، فان الاحلام لا تكفي ...

صمت آخر . ونظرت الى رينغولد ، وكنت ارى انه بالرغم من ادراكه لاسبابي لم يكن مقتنعاً تماماً . وسألته فجأة :

ـ انت تعرف بلا ريب انشودة يوليسوس في « المهزلة الآلهية » !

فأجاب وقد أدهشه سؤالي قليلاً :

ـ نعم اعرفها ، ولكني لم أستحضرها تماماً في ذهني ...

ـ اسمح لي ان اتلوها عليك ، فانا احفظها عن ظهر قلب ...

ـ اذا كان ذلك يسّرك ...

ولم اكن ادري حقاً ما الذي كان يدفعني لتلاوة هذه المقطع من داتني ؛ وفكرت فيما بعد ان ذلك ربما كان يبدو لي افضل طريقة لأن أردّد لرينغولد بضعة أشياء من غير ان اجازف باهانته من جديد . وفيما كان المخرج مستريحاً في اريكته بهيئة الاستسلام ، قلت :

ـ إن داتني يجعل يوليسوس يروي نهايته ونهاية رفاقه ..

ـ اعرف ذلك يا مولتيني ، اعرفه، اقرأ ...

فتريثت لحظة ، منخفض العينين ، ثم بدأت :

ـ ان الاشكال الاكبر في الاسطورة القديمة ...

وتابعت بلهجة عادية ، متجنباً التفخيم ما وسعني ذلك . وبعد ان تأملني رينغولد لحظة ، مقطّب الحاجبين تحت قبعته القماشية ، صرف نظره نحو البحر وكف عن الحركة . وتابعت في هدوء ، بصوت صاف،

ولكني ابتداءً من البيت :

اوه ! يا اخوتي بمئات الالوف ...

أحسست ان انفعالاً مفاجئاً كان بالرغم مني يُرعش صوتي . وكنت انكر فعلاً بأن هذه الابيات كانت تعبّر،لا فقط عن الفكرة التي اكونها عن شخصية يوليسوس،بل كذلك عن الفكرة التي اكوّنها عن نفسي وعن حياتي كما كان ينبغي ان تكون ولم تكن مع الاسف كذلك . وكنت أشعر أن هذا الانفعال كان يصدر عن المفارقة بين وضوح هذه الفكرة وجمالها وبين عجزي الحقيقي . ومع ذلك ، فقد نجحت في امتلاك رعشة صوتي ، وتابعت من غير انقطاع حتى آخر بيت :

الى ان ينغلق البحر ثانية علينا ...

واذ انتهيت ، نهضت مستأذناً . وكذلك فعل رينغولد ، وهو يقول بسرعة :

ـ اسمح لي يا مولتيني ، اسمح لي ... لماذا قرأت علي مقطع دانتي هذا ؟ انه جميل جداً ، ولكن ما هو السبب ؟

ـ لأن هذا ، يا رينغولد ، هو يوليسوس الذى كنت اريد ان أصوره ... انني هكذا اراه .. وقد حرصت قبل ان اتركك على ان اؤكده لك بصورة لا تحتمل الشك .. وقد خيل الي أن هذا المقطع كان يشرحه لك خيراً من كلماتي ...

ـ طبعاً ... ولكن دانتي هو دانتي : رجل من القرون الوسطى ، اما انت يا مولتيني ، فمن العصر الحديث ...

ولم اجب هذه المرة ، ومددت له يدي ، ففهم وأضاف :

ـ على اي حال ، يؤسفني يا مولتيني كثيراً ان استغني عن مساعدتك لقد كنت تعودت عليك ...

ـ سيكون ذلك لمرة اخرى .. انا ايضاً كنت اتمنى ان اعمل معك.

ولكن ، لماذا إذن ، يامولتيني ؟

فقلت باسماً وانا أشد على يده :

ــ القدر !

وابتعدت . وبقي هو امام الطاولة ، في المشرب ، متدلي الذراعين، في حركة حائرة كما لو انه ما يزال يتساءل عن السبب .

وخرجت بسرعة من الفندق .

الفصلُ العِشرُون

كانت عجلتي للعودة الى البيت مثلها في مغادرتـــه ، وبنفاد صبر وحماسة شديدين لم يكونا يسمحان لي بالتفكير في هدوء بما حدث . والحق اني لم اكن افكر في شيء وانا اعدو تحت الشمس المحرقة ، عبر الطريق الاسمنتي الضيق . ولكني كنت أحس انه قد وُضع أخيراً حدٌ لجمود وضعٍ طال اكثر مما ينبغي ، واني عما قليل سأعرف لماذا كانت اميلي قد كفّت عن حبي : ولم يكن شيءٌ موجوداً بالنسبة لي ، فيما وراء هذا اليقين . إن التفكير يتعلّق باللحظة التي تسبق العمل او تليه ؛ اما ما يقودنا في إبّان العمل فهي افكارٌ منسيّة ، حولتها روحنا الى اهواء. كنت أعمل ، فـــلم أكن إذن افكر . ولكني كنت اعرف ان فكري سيستيقظ فيما بعد ، بعد ان تتم الاعمال الضرورية .

واذا بلغت المقصورة ، رقيت ركضـــاً السلّم المؤدي الى السطيحة ودخلت غرفة الجلوس . وكانت خالية ، ولكن مجلة مفتوحة على اريكة، وأعقاب سجائر محمّرة في المنفضة والراديو الذي كانت تنبعث منه موسيقى راقصة خافتة ، كل ذلك كان يشهد بأن اميلي كانت حاضرة منذ لحظات . ولست ادري ، أكان السبب روعة ذلك النور الاصيلي المعتدل العذب ، او تلك الموسيقى الخافتة ، ولكن غضبي هـــدأ دفعة واحدة بينما كانت

العوامل التي اوحت به ما تزال على وضوحها وعدم تزعزعها . وتوقفت قبل كل شيء عند المظهر الهادىء الفاره الاليف لغرفة الجلوس هذه . فكأننا كنا نسكن هذا البيت منذ أشهر ، وكأن اميلي كانت قد اتخذت فيه عاداتها كما لو انه بيت نهائي . لقد كان ذلك الراديو ، وتلك المجلة ، وهذه السجائر المدخنة نصف تدخين ، تذكرني بهوس اميلي القديم ببيتها ، وتلك الصبوة المؤثرة ، الغريزية والانثوية ، الى المنزل ، والى الاستقرار فيه . واذن ، فقد كانت ، رغم الظروف والاحداث ، تهيء نفسها لاقامة طويلة ، سعيدة ان تكون في كابري ، في بيت باتيستا . والحال اني كنت قادماً لابلغها انه كان علينا ان ننصرف .

واتجهت مهموماً الى غرفة اميلي وفتحت الباب . ولم يكن فيه أحد، ولكني لاحظت هناك ايضاً آثار عاداتها البيتية : الروب ديشامبر الممدد بعناية على أريكة ، والخفين عند أسفل السرير ، وزجاجات الزينة والعلب الصغيرة وجميع ادوات التجميل مصفوفة على الرف ، امام المرآة ؛ وعلى الطاولة ، كان ثمة كتاب نحو انكليزي ، لانها كانت منذ حين قد شرعت في دراسة هذه اللغة ، ودفتر لتمريناتها ، وقلم .. أما الحقائب المحمولة من روما ، فكانت قد اختفت . وفتحت الخزانة بحركة غريزية : كانت اثواب اميلي القليلة معلقة بمشاجب ، وكانت قد وضعت على احد الرفوف مناديل واحزمة وشرائط وزوجاً من الاحذية . وفكرت متسائلاً ماذا كان يهمها ان تحبني او تحب باتيستا ، ما دام لها بيت ، وما دامت تستطيع الاعتماد على اقامة طويلة ، بلا ادنى هم .

وخرجت من الغرفة ، وتوجهت عبر ممر صغير نحو المطبخ الذي كان يقوم في بناية صغيرة متصلة بالمقصورة . وعلى العتبة ، سمعت صوت اميلي التي كانت تتحدث الى الطباخة . وبقيت آلياً خلف الباب لأصغي .

وكانت اميلي تعطي تعليماتها بشأن العشاء . كانت تقول :

— ان السيد مولتيني يحب الطبخ السهل ، بــلا مرق ... المسلوق والمشوي على العموم .. وهذا افضل لك يا انيزينا ، فهذا ما يخفف عملك .

— اوه ! ان هناك يا سيدتي ما يشغلني دائماً .. حتى الطبخ السهل، ليس سهلاً الى هذا الحد ! إذن ، ما الذي سنصنعه لهذا المساء ؟

صمت قصير . ولا بدّ ان اميلي كانت تفكر ، ثم سألت :

— أمن الممكن ايجاد سمك في هذه الساعة ؟

— نعم ، اذا قصدت البائع الذي يورّد للفنادق .

— إشتري إذن سمكة كبيرة جميلة بوزن كيلو او اكثر .. سمكة دقيقة ، ليس فيها حسك كثير ، مرجانة او عجل بحر .. ما تجدينه اخيراً ، وضعيها في الفرن او اسلقيها جيداً .. وهــل تحسنين صنع المايونيز ، يا انيزينا ؟

— نعم ، يا سيدتي .

— حسناً .. اذا سلقت السمكة ، إصنعي مايونيز ، ثم سلطة او خضرة ما ، جزر او كوسى او لوبياء .. ما تجدينــه ، وخصوصاً فاكهة ، فاكهة كثيرة تضعينها في الثلاجة فور عودتك من السوق حتى تكون باردة عند تقديمها ..

— وبمَ تبدآن ، يا سيدتي ؟

— آه .. صحيح .. البدء ! ليكن لهذا المساء شيئاً سهلاً جداً : اشتري لحم خنزير ، لا لحم الجبل المبالغ في تمليحه ، ثم بعض التين في الوقت نفسه .. هناك تين ، أليس كذلك ؟

— نعم ، يا سيدتي .

بينما كنت أسمع هذه المحادثة المنزلية التافهة ، الهادئــة ، كانت الكلمات الاخيرة التي تبادلتها مع رينغولد تعاودني ، لا ادري لماذا . لقد

قال لي اني كنت اصبو الى عالم شبيه بعالم الاوديسة ، فأقررته على ذلك ؛ ولكنه ردّ بأن صبواتي كانت لا تحديـــة ، باعتبار ان العالم العصري لا شأن له بعد بعالم الاوديسة . ومع ذلك ، فقد فكرت بان الوضع تحت عينيّ يمكن ان يكون التمثيل الدقيق للظروف التي سادت في عهد هوميروس : سيدة البيت تتحدث مع خادمتها وتعطيها اوامرها من اجل العشاء .. لقد ايقظت هذه الفكرة فيّ صورة هذا النور الجميل العذب الذي كان يملأ الصالة ، واصبحت مقصورة بانيستا ، كما بفعل السحر ، بيت « ايتاك » ، واصبحت اميلي بينيلوب وهي تتحدث الى خادمتها . أجل ، لقد كنت على حق ، فقد كان كل شيء كالسابق، او يمكن ان يكون كالسابق ؛ وكان كـل شيء مختلفاً اختلافاً مراً .

وتقدمت نحو العتبة وناديت :

ـ اميلي !

فالتفتت ولم تكد ، وسألت :

ـ ماذا تريد ؟

ـ تعلمين اني اريد التحدث اليك .

ـ اذهب فانتظرني في الصالة .. ان لديّ عملا آخر مع انيزينا ، ولكني آتية على الفور .

وعدت الى الصالة فجلست على احدى الارائك وجعلت انتظر . وكانت فكرة تقلقني الآن ، ندم مسبّق لما سوف اقوم به . لقد كانت اميلي ، بحسب الظواهر ، تتوقع اقامة طويلة في المقصورة ، وهأنذا على وشك ان اطلب اليها الذهاب . وكنت اتذكر الطريقة التي ابلغتني بها عزمها على تركي ؛ واذ قارنت موقفها ذاك اليائس تقريباً ، بهدوء سلوكها الحالي ، فكرت بانها بعد كل حساب قد صممت على ان تعيش معي ، حتى ولو كانت تحتقرني . وبالاجمال ، فان الوضع غير المحتمل الذي كانت تثور عليه آنذاك ، كانت تقبله الآن . ولكن هذا القبول كان

اكثر اهانة لي من كل ثورة وتمرد ، اذ هو لديها عــلامة سقوط ، علامة انهيار ، كـما لو انها لم تكن مسرورة بان تحتقرني ، فكانت تتجمّع هي نفسها في هذا الاحتقار . وكانت هذه الفكرة كافية لأن تطرد من ضميري الندم الخفيف الذي كان يعكره . أجل ، كان علينا، من اجلها هي ومن اجلي ، ان نذهب ، وكنت على وشك ان ابلغها رحيلنا .

وانتظرت لحظة اخرى ، ثم دخلت اميلي ، فذهبت تُسكت الراديو ، وجلست :

— كنت تريد ان تحدثني ؟

فأجبتها :

— هل افرغت حقائبك ؟

— نعم ، لماذا ؟

— انني آسف .. ستكونين مضطرة الى ملئها من جديد .. فغداً صباحاً سنعود الى روما .

فلم تتحرك ، كما لو انها لم تفهم . ولكنها سألت بصوت خشن :

— ولكن ماذا حدث ، من جديد ؟

فأجبت وانا انهض لأغلق الباب المطل على الممر :

— حدث اني عزمت على ألاّ اكتب السناريو .. لقد تخليت عنه .. فليس امامنا اذن الا ان نعود الى بيتنا .

فردّت ببرودة مفاجئة :

— كنت مساء امس على رأي مختلف .. ومع ذلك ، فقد كنت على علم بالامور ..

— مساء امس تركت نفسي اقتنع بحججك .. ولكني فهمت اني لم يكن لي حق بان اعتبرها .. انني لا اعرف الدافع لنصيحتك إياي بان اكتب هذا السناريو ، ولا اريد ان اعرفه .. كل ما ادريــه ان من

الافضل ، لي ولك على حد سواء ، ان اتخلى عن المشروع .

فطرحت عليّ سؤالا لم اكن اتوقعه :

– وهل علم باتيستا بالامر ؟

فأجبت :

– انه لا يعلم شيئاً ، ولكني ذهبت الي رينغولد واخبرته .

– لقد اسأت التصرف كثيراً !

– لماذا ؟

فقالت بلهجة قاسية وغير واثقة :

– لقد كنا بحاجة الى هذا المال لندفع اقساط الشقة .. ومن جهة اخرى ، قلت لي انت نفسك اكثر من مرة إن التخلي عن عقد ما يعني اغلاق الباب دون أعمال آتية ... لقد اسأت التصرف ... ومـا كان ينبغي لك ..

واغتظت بدوري ، فصحت :

– الا تدركين ان وضعي لم يعد مُحتمل ، واني لا أستطيع بعدُ أن اتلقى مالاً من رجل .. يحاول ان يغوي زوجتي ؟

فلم تجب اميلي . واستطردت :

– انني ارفض السناريو لاني اذا قبلتـه ، في الظروف الحالية ، كنت مفتقراً الى الكرامة .. ولكنني ارفضه كذلك من أجلك ، بسببك ، لكي تعيدي النظر في حكمك عليّ .. انني أتساءل لماذا تعتبرينني رجلاً جديراً بأن يقبل عملاً في مثل هذه الظروف .. انت على خطأ ، فلست هذا الرجل !

ورأيت شعاعاً معادياً وساخراً يعبر عينيها :

– اذا كنت تتصرف على هذا النحو مـن أجلك أنت ... فهذا معقول ومقبول .. اما اذا كان بسببي ، فما يزال المجال امامك لتغيّر قرارك .. انك تقوم بعمل غير مجد .. اؤكـد لك ذلك .. وهذا لن

يفيد الا في الاساءة اليك ، هذا كل شيء !

— ماذا تقصدين ؟

— لا أقصد غير ما أقول : إن هذا لن يجدي شيئاً .

وأحسست البرودة تصعد الى صدغيّ ، وفهمت اني كنت اصفرّ :

— لماذا ؟

— قل لي اولاً : ما هو التأثير الذي كنت تعتقد انك تمارسه عليّ بقرارك ؟

وإذن ، فقد جاءت اللحظة للمناقشة النهائية . كانت اميلي هي نفسها تعرضها عليّ . وفجأة استولى عليّ الخوف :

— لقد قلت لي منذ فترة ، انك كنت تحتقرينني .. وهذه عبارتك بالذات .. ولا أدري لماذا فقدت احترامك .. ولكني أعرف ان المرء لا يحتقر الا الاشخاص الذين يقومون بأعمال جديرة بالاحتقار .. والحال ان قبول هذا السناريو اليوم سيكون امراً جديراً بالاحتقار .. وعلى قراري ان يثبت لك اني لست ما تظنين .. هذا كل شيء !

وسرعان ما أجابت بلهجة انتصار ، وكأنها مسرورة ان تراني أسقط في الشَرَك :

— إن قرارك لا يثبت لي شيئاً البتة ... ولهذا أنصحك في ان تغيّره ..

— كيف ، لا يثبت شيئاً ؟

وعدت الى الجلوس ، وبحركة شبه آلية كانت تخفي اضطرابي ، مددت يدي لآخذ يدها التي كانت تستريح على ذراع أريكتها :

— اميلي .. أأنت التي تقولين لي ذلك ؟

فسحبت يدها بسرعة :

— ارجوك ... كفى هذا ... لا تلمسني ... لا تحاول بعدُ ان تلمسني .. انني لا أحبك ولن يكون ممكناً لي بعد ان احبك ابداً .

فسحبت يدي ، وقلت وقد جُرحت جُرحاً عميقاً :

ـ لا نتحدث عن حبنا .. انت على حق .. ولكن لنتحدث عن .. عن احتقارك .. وإذن ، فحتى اذا رفضت هذا السناريو ، ستظلين على احتقارك لي ؟

فنهضت فجأة ، كأنها فريسة ألم مفاجيء :

ـ نعم ، سأظل .. ثم دعني وشأني ..

ـ ولكن لهذا الاحتقار سبباً ، على ما أظن ..

ـ أنت هو السبب ، ما أنت عليه .. وجميع جهودك لن تغير في الامر شيئاً .

ـ ولكن ماذا أنا عليه ؟

ـ ماذا ؟ انا لا ادري .. انك لا بدّ تعرف .. إن ما اعرفه انك لست رجلاً .. انك لا تتصرف تصرف الرجال !

ومرة اخرى استوقفتني المفارقة بين وضوح الشعور الذي كان يبين في كلماتها ، وعدم الدقة والخرق في كلماتها بالذات التي هي مصادر البراهين .. وسألتها بغضب بارد ممزوج بالسخرية :

ـ ماذا يعني : ان يكون المرء رجلاً ؟ الا تفهمين ان ليس لهذا ايّ معنى ؟

ـ كفى ، كفى .. انت تعلم جيداً ماذا أعني ..

وكانت قد اتجهت الى النافذة وأولتني ظهرها وهي تحدّثني . وأخذت رأسي بين يديّ ، ونظرت اليها لحظة ، وانا يائس . لكأنها لم تكن توليني ظهرها وحده ، بل روحها كلها . إنها لم تكن تريد ، او ربما لم تكن تعرف ان تعبّر عن رأيها . يقيناً ان احتقارها كان قائماً على دافع مشروع ، ولكنه لم يكن واضحاً بما فيه الكفاية لتستطيع صياغته في دقة ، فكانت إذن تفضّل ان تعزو هذا الاحتقار الى خاصيّة في طبعي جديرة بالاحتقار وراثياً ، غير قابلة للشرح ومن ثم لا سبيل الى شفائها.

وتذكرت فجأة تفسير رينغولد لسوء التفاهم الزوجي بين يوليسوس وبينيلوب ، فانبثق في اعماقي ضوء مفاجيء . « وما يدريني ان اميلي قد أحست بأني منذ بضعة أشهر قد لاحظت ان باتيستا يغازلها ؟ ما يدريني ان تكون قد اعتقدت اني كنت أحاول أن استغل الفرصة ... واني بدلاً من ان اثور ، بالاجمال ، كنت أشجع بدافع من المصلحة ، مقاصد باتيستا »

كان جديراً بمثل هذه الفكرة ان تقطع نفَسي ، لأني في الوقت نفسه كنت أتذكر بعض أحداث ملتبسة كان يمكن ان تثبّت شكي ؛ منها ، على سبيل المثال : في ذلك المساء الاول الذي خرجنا فيه مع باتيستا ، تأخري المعزو الى حادث اصطدام ، ولكنها استطاعت ان تنسبه الى حساب دقيق من جانبي لكي اتركها وحدها مع المنتج .

وقالت اميلي فجأة : كما لتؤكد افكاري ، من غير ان تلتفت اليّ :

— ان الرجل الرجل لا يتصرف كما تصرفت انت مساء أمس ، بعد ان رأيت ما رأيت .. اما انت ، فقد جئت بكل لطافة تسألني رأيي ، كما لو ان شيئاً لم يكن .. مؤملاً ان أعطيك النصيحة بأن تكتب ، مع ذلك ، السناريو .. وقد أعطيتك إياها ، هذه النصيحة التي كنت تنتظرها ، وقد قبلتها .. واليوم ، إثر صعوبات لا ادريها مع الالماني ، تأتي لتقول لي انك قد عدلت عن هذا العمل اكراماً لي ، لأنني أحتقركُ ولأنك لا تريد ان أحكم عليك بأنك جدير بالاحتقار .. ولكنني اعرفك الآن ، وافهم جيداً انك لم تعدل بملء ارادتك عن ذلك العمل ، وان الالماني هو الذي جعلك تعدل .. وعلى اي حال ، لقد فات الاوان .. لقد كوّنت فكرتي عنك ، وبامكانك ان ترفض جميع سيناريوهات العالم ، فلن أغيّر هذه الفكرة .. فمن غير المجدي إذن ان تعقّد الامور على هذا النحو .. إقبل هذا العمل ودعني وشأني ، مرة ، والى الابد!.

هكذا كنا ندور دائما في الدائرة نفسها : كانت تحتقرني ولكنها

كانت ترفض ان تدلي بالسبب . وكنت أنفر نفوراً عميقاً من أن أصوغ أنا نفسي أسبابها ، لانها كانت اولا لئيمـــة ، ولاني اذا صغتها كان يبدو لي اني اقبل على نحو ما أساسها المتين . ومع ذلك ، فلئن كنت اريد ان اذهب الى اعماق القضية ، فلم يكن لدي شيء آخر اعمله . وقد رسّخت صوتي وقلت بأهدأ ما أستطيع :

– اسمعي يا اميلي ، انك تحتقرينني ولا تريدين ان تقولي لي لماذا .. ربما كنت انت نفسك لا تعرفين السبب .. ولكن لي الحق ان اعرف لأثبت لك ان نظرتك خاطئة ، ولأستطيع ان أبرّيء نفسي .. اسمعي ، اذا قلت لك أنا لماذا تحتقرينني ، هل تعدينني ان تجيبيني ان كنت اقول الحق ام لا ؟

وظلت جامدة امام النافذة ، مديرةً ظهرها ، من غير ان تجيب . ثم قالت بصوت متعب ، حانق :

– لا أعدك بشيء ! اوه .. دعني في سلام !

قلت على مهل :

– إن السبب هو هذا : لقد تصوّرتِ ، معتمدة عـــلى مظاهر خادعة ، اني .. لم أكن أجهل شيئاً عـــن باتيستا .. واني كنت ، بدافع المصلحة ، افضّل ان اغمض عيني ، او حـــتى ان ادفعه بين ذراعيك .. أليس كذلك ؟

ورفعت عينيّ عليها ، منتظراً جوابها ، ولكن هذا الجواب لم يأت. كانت اميلي صامتة ، وعيناها تحدّقان بشيء مـــا فيها وراء النوافذ . وأحسستني فجأة أحمرّ حتى الاذنين ، خجلاً مما قلت ، وكنت أدرك ان مجرد النطق بذلك كان يمكن ان تفسره كبرهان اضافي يبرر احتقارها. وعجلت اضيف ، متأسفاً :

– ولكن هذا غير صحيح يا اميلي ، فأنت مخطئة .. فحتى الامس، لم أكن أعرف شيئاً من سلوك باتيستا .. وانت حرة طبعاً في ان تصدقيني

او لا ، ولكن اذا كنت لا تصدقيني ، فلأنك تريدين ان يتاح لك ان تحتقريني بالرغم من كل شيء ، وانك ترفضين ان تفتحي عينيك، وانك تمنعينني من ان ابرّيء نفسي .

وظلت على صمتها ، فأدركت اني احكمت تسديد الضربة ؛ لعلها لم تكن تعرف حقاً لماذا كانت تحتقرني ، ولكنها كانت تفضّل على اي حال ألاّ تعرف ذلك ، وان تستمر في اعتباري محتقراً بـــلا دافع ولا براهين ، كما يرى المرء ان فلانـــاً اسمر ، بطبيعته ، او ان له عينين زرقاوين . صحيح اني لم اكن قد عرفت ان اقنعها ، ولكن هل تملك البراءة .دائماً نبرة الحقيقة ؟ كنت يائساً ومدفوعاً بطاقة داخلية اقوى من كل محاكمة عقلية فأحسست الحاجة لان اضيف الى كلامي حجة مادية ؛ ونهضت لآخذ اميلي من ذراعها وابتهل اليها قائلا :

— اميلي ، لماذا تكرهينني الى هذا الحد ؟ الا تستطيعين ان ترقّي ، حتى ولو لحظة واحدة ؟

فلاحظت انها كانت تصرف وجهها عني ، كـما لتخفيه . ولكنها تركتني أشد على ذراعها ، وحين تقدمت ولمس جنبي خاصرتها ، لم تتراجع . واذ ذاك تشجعت واخذتها من قامتها ، فقالت بصوت مرتفع :

— لن اغفر لك ابداً .. ابداً لن اغفر لك انك هدمت حبنا .. لقد كنت احبك كثيراً ، ولم احب احداً سواك .. ولن احب شخصاً آخر ابداً .. ولكنك هدمت بتصرفك كل شيء .. كان بامكاننا ان نكون سعيدين جداً معاً .. اما الآن فكل شيء مستحيل .. فكيف تريدني ان أرقّ ؟ وكيف لا انقم عليك ؟

ولا ادري اي امل تحرك في نفسي : انها رغم كل شيء تقول بأنها سبق ان احبتني ، واني كنت حبها الوحيد .. وتمتمت وانا اشدها بلطف اليّ :

— اسمعي ، انك ستملأين الحقائب وسنسافر غداً صباحاً .. وفي روما سأشرح لك كل شيء ، وسوف تقنعين ، انا واثق من ذلك .

وتحررت من ضمّي هذه المرة ، بما يشبه العنف ، وصاحت :

لن اذهب ! ماذا تريدني ان أفعل في روما ؟ يجب عليّ ان اترك البيت ، وما دامت امي لا تريدني ، فعليّ ان اذهب لأعيش في غرفة صغيرة ، وان اعود لممارسة الضرب على الآلة الكاتبة .. لا ، لا .. انني لست ذاهبة .. بل انا باقية هنا .. انني بحاجة الى الهدوء والراحة .. انني باقية ، فاذهب انت اذا شئت ، اما انا ، فباقية .. وقد قال لي باتيستا ان بامكاني ان ابقى هنا ما شئت ..

وغضبت بدوري فقلت :

ــ بل ستذهبين معي ، صباح الغد ..

ــ انت على خطأ يا صديقي العزيز ، فانا باقية هنا ..

ــ اذا كان الامر كذلك ، فانا باق ايضاً ، وسأتصرف على نحو يحمل باتيستا على طردنا كلينا ..

ــ انك لن تفعل ذلك !

ــ بل سأفعله !

فرمقتني لحظة ، ثم غادرت غرفة الجلوس من غير ان تقول كلمة . واصطفق باب غرفتها ، وسمعت صوت المفتاح يُدار في القفل .

الفصل الحادي والعشرون

هكذا : ارتبطت بهذا التصريح الذي نطقت به في حركة غاضبة : « انا ايضاً ، سأبقى ! » ولكن ما كادت اميلي تغيب عني حتى ادركت استحالة البقاء : فالشخص الوحيد الذي كان ينبغي ان يرحل ، هو أنا. كنت قد نكثت التزاماتي مع رينغولد وباتيستا ، وكل شيء يدعو الآن الى التفكير اني قطعت علاقاتي مع اميلي . كنت زائداً عـلى اللزوم ، فكان ينبغي ان ارحل . ولكني كنت قد صحت في اميلي انني باق ، وقد كنت في الحقيقة اريد البقاء ، سواء بدافع من بقية امـل ، او على سبيل الانتقام . ولو كانت الظروف مختلفة ، لكان الوضع مضحكاً ؛ اما بالنسبة لحالتي النفسية اليائسة ، فـلم يكن الوضع الا مقلقاً ، اشبه بوضع متسلق للجبال يلاحظ حين يبلغ في صعوده نقطة خطرة ، انه لا يستطيع ان يبقى حيث هو ، ولا ان يتقدم الى الامـام ، ولا ان يعود الى الوراء . واخذت اذرع الصالة جيئة وذهاباً وانا فريسة اضطراب مفاجىء قلق ، اتساءل ماذا ينبغي ان افعل . لقد كان يستحيل عليّ ان اجلس على الطاولة بين اميلي وباتيستا كما لو ان شيئاً لم يحدث ؛ وذات لحظة ، خطر في بالي ان اذهب فأتناول العشاء في كابري وان اعـود متأخراً في الليل . ولكني كنت قد قطعت المسافة بين المقصورة والقرية

اربع مرات في اثناء النهار ، وانا أعدو عـــدواً ، في صميم الشمس ؛ وكنت احسني متعباً ، ولم اكن املك القوة عـــلى مجابهة هذا التعب مرة اخرى . ونظرت الى ساعـــتي ، فكانت تشير الى السادسة . اذن فان امامي بعد ساعتين على الاقل قبل موعد العشاء : فماذا افعل ؟ وعزمت اخيراً ، فقصدت غرفتي واغلقت الباب بالمفتاح ، ثم اغلقت المصاريع فساد الظلام ، وارتميت على سريري .

كنت متعباً حقاً ، وما كدت اتمدد حتى التمست اعضائي غريزياً الوضع الملائم للنوم . واستسلمت لجسمي الذي كان أعقل من فكري ، فكان يعطي بصورة طبيعية جواباً صامتاً على سؤالي المقلق : ما العمل ؟ ولم البث طويلا حتى سقطت في نوم عميق .

نمت نوماً ثقيلاً ، مـــن غير أحلام ؛ ثم استيقظت فحكمت من الظلام الكامل الذي كان يسود الغرفة ان الوقت كان متأخراً . ونهضت فذهبت افتح النافذة : كان الليل قـــد هبط بالفعل ، واضأت النور ونظرت الى ساعتي : كانت الساعة التاسعة . وكنت اعلم ان موعد العشاء هو في الثامنة ، او الثامنة والنصف على ابعد حـــد . وبرز من جديد لذهني السؤال : ما العمل ؟ ولكني كنت قد ارتحت ، فجاء الجواب هذه المرة جريئاً ولا مبالياً : « انني بعد كل حساب ضيف المقصورة ، فليس لي اي عذر في ان اختبيء .. واذن فسأمثلُ على المائدة وليحدث ما يحدث .. » بل لقد كنت أحسني مدفوعاً بروح محـــاربة ومستعداً لمواجهة مشاجرة مع باتيستا حتى لا يبقى امامه الا ان يقذفنا خارجاً ، كما كنت قد هددت اميلي بذلك . وبسرعة رتبت مظهري وغادرت غرفتي .

ولكن قاعة الجلوس كانت فارغة ، بالرغم من ان المائدة كانت مهيأة في الركن المألوف . غير انه لم يكن ثمة الا صحن واحد . وما لبثت الخادمة ان ظهرت واخبرتني ان باتيستا واميلي قد خرجا لتناول

العشاء في كابري ، وأن بوسعي ان ألحـق بهما اذا شئت ، في مطعم « بيلافستا » . والا فبوسعي ان اتناول العشاء في البيت ، باعتبار ان الطعام جاهز منذ اكثر من نصف ساعة .

ورأيت ان اميلي وباتيستا كانا ، مثلي ، قد تساءلا : ما العمل ؟ وانهما اجابا عليه بابسط طريقة ممكنة ، اذ ذهبا وتركاني وحدي سيد الساحة . على اني لم احس هذه المرة حسداً ولا غضباً ولا خيبـة ؛ وفكرت ببعض الاسى انهما كانا قد قاما بالشيء الوحيـد الذي يمكن القيام به ، ولم يكن بامكاني الا ان اقابلهما بالعرفان انهما جنّباني لقاءً مزعجاً . ثم انني فهمت ان هذه الخطة في الغياب كانت تهـدف الى اغرائي بالذهاب ، وانهما اذا استمرا في تطبيقها في الايام التالية فلن يبقى امامي الا ان ارحل . ولكن ذلك كان يمتّ الى مستقبل كان ما يزال غير مؤكد . ولهذا قلت للخادمة انني سأتناول العشاء في البيت ، وان بوسعها ان تقدمه لي ، ثم جلست الى المائدة .

وأكلت من اطراف شفتيّ ، بلا قابلية ، فلم اكد آخذ اكثر من قطعة صغيرة من لحم الخنزير الذي كان يملأ الطبق ، ونتفة من السمكة الضخمة التي كانت اميلي قد طلبتها من اجل ثلاثة اشخاص . وبعد بضع دقائق ، ارجعت الطعام ، وقلت للخادمـة اني ذاهب لأنام واني لست بعد بحاجة اليها . ثم خرجت الى السطيحة .

كانت ثمة بضع كراسي طويلة مجمعة في ركن ، فأدنيت احداها من الحاجز وتمددت عليها تجاه البحر الذي كان الليل قد بدأ يبتلعه .

كنت قد عزمت ، وانا عائد الى المقصورة بعد محادثتي مع رينغولد، على ان اتعمق في هدوء فهم كل ما حدث ، عندما تتوضح الامور مع اميلي . وكنت ادرك في هذه اللحظة اني كنت ما ازال اجهل كل شيء عن الاسباب التي من اجلها كفت اميلي عن ان تحبني ؛ ولكن لم يخطر ببالي ان الامور، بعد ان قابلتها ، لن تتضح اكثر من السابق . بل على

العكس كنت اقنع نفسي بان مناقشتنا ستلقي الضوء النسبي ، على الاقل، على ما لم يكن حتى ذلك الحين الا ظلاماً هائلاً . بحيث انه سيكون بوسعي ان اصيح : « ليس الا هذا ! وانت لا تريدين أن تحبيني لمثل هذا السبب التافه ! »

والحال انه قد حدث ما لم اكن اتوقع ؛ لقد عرفت موقف اميلي— او على الاقل ما كان ممكناً ان اعرفه من موقفها — ولم اكن اعرف شيئاً آخر . وكان هناك ما هو اسوأ : كنت اعتقد ان سبب احتقار اميلي يمكن ان يُكتشف بفحص دقيق لعلاقاتنا السابقة ؛ ولكنها لم تكن مستعدة للاعتراف بذلك ، لاصرارها على احتقاري بلا سبب ، نازعة مني كل امكانية لتبرير نفسي ، مانعة نفسها من كل عودة للاحترام والحب .

كنت قد فهمت اخيراً ان شعور الاحتقار قد ولد في نفس اميلي من قبل ، قبل ان يكون بامكان سلوكي ان يقدم لها تبريراً ، صحيحاً كان ام زائفاً . كان احتقارها قد نشأ من الصلة الثابتة بين طبيعتينا ، خارج اية حجة جوهرية لا تُرد بالطريقة نفسها التي نتحقق بها من صفاء معدن ثمين عند احتكاكه بحجر التجربة ، وبالفعل ، فعندما افترضت ان استياءها مني كان نتيجة خطأ في الحكم بالنسبة لسلوكي تجاه باتيستا ، لم تقر ولم تحتج ، بل ركنت الى الصمت . والواقع ان اميلي ، كما فكرت في ألم ، كانت للوهلة الاولى تحتكم علي باني جدير بكل شيء ، ولم تكن تطلب الا ان ترى ما يؤكد احتقارها . وبعبارة اخرى ، كان موقفها مني يتطلب تقديراً قيمياً ، تثميناً لطبعي مستقلاً عن تصرفاتي . واتفق ان هذه التصرفات كانت تبدو مؤكدة لهذا التقييم ، ولكن حتى بغياب مثل هذه التصرفات ، ما كانت اميلي لتحكم علي حكماً مختلفاً .

كانت غرابة سلوكها تعطيني الدليل على ذلك لقد كان بامكانها منذ

البدء ان تحدّثني ، وتحذّرني ، وتنفتح لي لتبدّد الالتباس القاسي الذي كان حبّنا قد سقط فيه . ولكنها لم تفعل ذلك ، وأصرّت على عدم ارادتها ان تُخَطّأ ، لكي تستطيع المضيّ في احتقاري .

ظللت متمدّداً على الكرسي الطويلة ، وفي الاهتياج الذي لا مناص منه والذي نشأ عن هذه الافكار ، نهضت بصورة شبه آلية فذهبت أرتفق الحاجز . ولعلّي كنت أسعى الى تهدئة نفسي بتأمّل صفاء الليل ، ولكني اذ كنت امنح وجهي الملتهب لأنفاس النسيم الذي كان يبدو وكأنه منبعث من البحر ، فكرت فجأة اني لم اكن أستحقّ هذه التهدئة . ان الانسان الذي يتعرّض للاحتقار لا يستطيع ولا ينبغي ان يجد الطمأنينة ما دام الاستنكار يثقل عليه . انه عبثاً ما يبتهل ، على غرار المذنبين في «المحاكمة الأخيرة» : « غطيني ايتها الجبال ، أغرقيني ايتها البحار .. » فان الاستنكار يتبعه حتى الى ابعد الامكنة خفاءً ، وروحه ممتلئة به ، وهو يحمله معه اينما حلّ . وعدت اتمدّد على الكرسي الطويلة ، وأشعلت سيجارة بيد ترتجف . سواءً أكنت أستحق الاحتقار ام لا — وقد كنت على يقين باني لا استحق هذه الصفة — فقد كان يبقى لي على كل حال ذكائي الذي لم تكن اميلي نفسه تماري فيه ، والذي كان يشكّل جوهر مزاياي وتبريري . كان بامكاني ان الجأ الى الفكر ، مهما كان موضوعه ؛ وقد كان واجبي ، تجاه اية مشكلة ، ان امارس بشجاعة محاكمتي العقلية . فاذا ضعفت ووهنت فلم استعمل ذكائي ، فلن يبقى لي حقاً الا الاحساس المزعج بانحطاطي المزعوم .

وعاد فكري يعمل في عناد وبصيرة . ما عساه يكون هذا الجانب القابل للاحتقار من شخصيتي ؟ وكانت تعود الى ذهني بشكل لا مفرّ منه كلمات رينغولد التي كان يحدّد بها ، على غير وعي منه ، وضعي تجاه اميلي ، بينما كان يعتقد انه يحدّد وضع يوليسوس تجاه بينيلوب : « يوليسوس الانسان المتحضّر ، وبينيلوب البدائية » إن رينغولد إجمالاً

كان ، بعد ان وصف الازمة الكبرى لحياتنا الزوجية ، حين فسّر الاوديسة على غير علم منه ذلك التفسير العجيب ، كان يمنحني العزاء بان يقول لي « متحضر » ، لا ان يقول « محتَقَر » . وهو عزاء مقبول نسبياً . لقد كنت بالاجمال الانسان المتحضّر الذي يرفض حركة طعنة السكين في موقف ذي طابع بدائي ، وتجاه غلطة ضد الشرف ؛ الانسان المتحضّر الذي يفكّر ويقدّر حتّى تجاه الاشياء المقدّسة او المزعوم انها مقدسة . كنت طبعاً على يقين من ان قصتنا الزوجية كانت تشبه قصة يوليسوس وبينيلوب ، كما كان يتصور المخرج ، وذلك التفسير الذي كان يصلح في ميدان التاريخ ، لم يكن يصلح في ميدان الشعور والوعي ، الذي هو ميدان صميمي شخصي ، خارج الزمان والمكان . ان شيطاننا الداخلي ، في هذا الميدان ، هو وحده الذي يحكم . ولم يكن بوسع التاريخ ان يبرّرني ويبرّئني الاّ في ميدانه الخاص . ولكن هذا الميدان ، بالرغم من اوجه الشبه التي كان يقترحها عليّ ، لم يكن ينطبق اطلاقاً على الوضع الذي كنت أصبو الى ان أعمل فيه وأعيش .

ولكن لماذا اذن كانت اميلي قد كفّت عن حبّي ولماذا كانت تحتقرني ؟ وما سبب حاجتها خصوصاً لاحتقاري ؟ كنت أتذكّر عبارتها : « لأنك لست رجلاً » واللهجة البسيطة الصادقة التي كانت تطلق بها هذه الفكرة . ربما كانت هذه الكلمات تنطوي على مفتاح موقف اميلي كلّه منّي . لقد كانت تكشف بالفعل ، كشفاً سلبياً ، الصورة المثالية التي كانت اميلي تكوّنها عن « الرجل الذي هو رجل » وفق عبارتها نفسها ، هذا الرجل الذي لم أكنه ، وما كان باستطاعتي ان أكونه . ومن جهة اخرى ، كانت هذا الاختصار الغامض الموجز الى هذا الحدّ يوحي بأن مثل هذا المثال لم يكن لديها ثمرة تجربة عاقلة للقيم الانسانية ، بل كان ثمرة مواضعات الوسط الذي كانت تنتمي اليه . وبالنسبة لهذا الوسط ، كان باتيستا ، بقوته الحيوانية ونفوذ نجاحه ، يمثل الرجل الذي هو رجل .

ولقد سبق لاميلي نفسها ان عبّرت لي عن هذا بالنظرات المعجبة تقريباً التي كانت تسربل بها المنتج فيما كان يتكلّم ، مساء يوم وصولنا ؛ وكذلك بهزيمتها تجاه رغبات باتيستا ، حتى ولو كان السبب الاول لهذه الهزيمة الغضب والحزن .

وبالاجمال ، كانت اميلي تحتقرني وتحرص على احتقاري لأنها ، بالرغم من استقامتها وبساطتها ، او على الأصحّ بسببها ، كانت منجذبة بافكار عالم باتيستا وأمثاله . والحال ان احدى هذه الافكار كانت تخصّ تبعية الرجل الفقير الاضطرارية تجاه الرجل الغني ، اي استحالة ان يكون الفقير « رجلاً » . ولست بالواثق من ان اميلي كانت ترتاب حقاً في انني شجّعت رغائب باتيستا ، بداعي المصلحة ، ولكني كنت واثقاً مما كانت تفكّر به آنذاك : « إن ريتشارد تابع لباتيستا لأنه مأجور منه ؛ وهو يعتمد عليه ليكسب اعمالاً اخرى ، والحال ان باتيستا يغازلني ، واذن ، فان ريتشارد يوحي اليّ بان أصبح عشيقته ... »

وأدهشني انني لم افكر بهذا من قبل . فكيف تأتّى لي ان أحدّد بذلك التحديد المتبصّر الطرق التي كان باتيستا ورينغولد يواجهان بها الحياة (انطلاقاً من تفسيراتهما للاوديسة) ولم أدرك أن اميلي قد فعلت مثلهما إذ صنعت لنفسها صورةً عني مختلفة عن الحقيقة كل هذا الاختلاف ! كان الفرق الوحيد هو ان المخرج والمنتج كانا يفسّران وجهي يوليسوس وبينيلوب ، الشخصين الخياليين ، في حين ان اميلي كانت تطبّق المواضعات التي كانت تخضع لها على كائنين حيّين : هي وأنا . هكذا تكون قد نشأت عندها ، من مزيج من الاستقامة الخلقية والابتذال اللاواعي ، فكرةُ أني قد أردت ان ادفعها بين ذراعي باتيستا ، وهي فكرة غير مقبولة ، ولكني لم أبرهن على اني لم استنكرها .

وقلت لنفسي : « لكي نواجه جميع معطيات المسألة ، لنتصوّر انّ على اميلي ان تختار بين التفسيرات الثلاثة للاوديسة : تفسير باتيستا ،

وتفسير رينغولد ، وتفسيري . إنها تستطيع بالتأكيد ان تقرّ الاعتبارات التجارية التي تدعو ، في نظرية باتيستا ، الى « اوديسة » مسرحية . بل هي تستطيع ان توافق على مفاهيم رينغولد المحدودة والبسيكولوجية ؛ ولكنها ليست بالتأكيد على مستوى يرفعها الى حدود تفسيري ، وهو اقرب التفسيرات الى هوميروس ودانتي ، بالرغم من حسّها السليم واستقامتها . وليس مردّ ذلك فقط الى الجهل ، بل لأنها بدلاً من ان تعيش في عالم مثالي ، تكتفي بالعالم المادي لامثال رينغولد وباتيستا .

على هذا النحو إذن كنت قد أحطت بالموضوع . لقد كانت اميلي ، في الوقت نفسه ، امرأة احلامي ، والمرأة التي كانت تدينني وتحتقرني على أساس معطيات فكرة بائسة : بينيلوب التي كانت مخلصة عشرة اعوام لزوجها الغائب ، والضاربة على الآلة الكاتبة التي كانت ترى قابلية الشراء حيث لم تكن . ولكي استردّ الأميلي التي كنت أحبّها وان أنجح في ان تحكم عليّ حكماً عادلاً ، يجب عليّ ان انتزعها من وسطها ، وان أُدخلها في عالم بعيد من التعقيدات بعدها هي ، حيث لا يُحسب للمال حساب ، وحيث يحتفظ الكلام بمعناه الكامل المستقيم ، عالم كان بامكاني ان أصبو إليه ، ولكنه لم يكن موجوداً ، كما كان رينغولد ينبّهني .

ومع ذلك كان عليّ ان أستمرّ أعيش وأعمل في عالم رينغولد وباتيستا وأضرابهما . فما الذي انا فاعله ؟ كان الامر الاول بالطبع هو ان أتحرّر من عقدة النقص هذه المقلقة الناشئة عن ظنّ لامعقول بشخصية قابلة للاحتقار وراثياً . لأن ذلك هو ما كان بالفعل المعنى الخفيّ لسلوك اميلي : كانت تنسب اليّ حطّة في بُنيتي تقريباً ، لا تُعزى الى أعمالي ، بل الى طبعي . والحـال اني كنت واثقاً من انه لم يكن ثمة من هو قابل للاحتقار بصورة طبيعية كاملة ، ولكن عليّ ، لأتحرّر من عقدة نقصي ، ان أقنع اولاً اميلي .

وتذكّرت صورة يوليسوس الثلاثية التي كان سناريو الاوديسة يوحيها

لي : صورة باتيستا ، وصورة رينغولد ، وصورتي وهي صورة هوميروس تقريباً . وكانت هذه الصورة ترسم امام عينيّ ثلاث طرق للحياة . فلماذا كانت تصوّراتنا لشخصية يوليسوس مختلفة الى هذا الحدّ ؟ لقد كانت الصورة التي يكوّنها باتيستا سطحية ، مبتذلة ولا عقلانية ، وكانت تتلاءم مع حياته ، ومع مثاله ، او بالأحرى مع مصالحه الخاصة . اما صورة رينغولد الأكثر قابلية للتحقق ، ولكنها محدودة ، وعادية ، فكانت تنسجم مع نظرية المخرج الاخلاقيـــة والفنية . واما صورتي ، الأكثر سمواً وطبيعيّة ، والاوفر شاعرية والاكثر حقيقة ، فقد كانت تنبثق من صبوتي المخلصة ، على عجزها دون ريب ، الى حياة خالية من التسويات المالية يحلّ المثل الأعلى فيها محل النظريات الفيزيولوجية والمادية . وقد كان مما يعزّيني حقاً ان تكون صورتي هي افضل الصور . وكان يبقى عليّ أن أتطابق مع هذه الصورة التي لم أستطع ان افرضها للسناريو والتي سألقى مشقّة كبيرة لجعلها تنتصر في الحياة . وكانت تلك الطريقة الوحيدة لاقناع اميلي واستّرداد احترامها وحبّها . ولكن كيف لي ذلك ؟ انني لم اكن اجد وسيلة اخرى غير ان احبّها اكثر من السابق ، وان اثبت لها بلا انقطاع نقاوة حبّي وتجرّده .

وكان ينبغي في تلك اللحظة ألاّ تشعر خصوصاً بأنها مقسورة ، مُكرهة . وسيكون أفضل حلّ ان أبقى حتى اليوم التالي ، ثم اسافر بباخرة بعد الظهر من غير ان اراها ثانية ولا أن أحدّثها . ومن روما سأكتب لها رسالة طويلة أشرح لها فيها ما لم أحسن قوله مواجهةً .

وإذ بلغت هذا الحدّ من افكاري ، سمعت ضجة اصوات هادئة كانت تبدو صادرة من الممرّ القائم تحت السطيحة ، فعرفت صوتي اميلي وباتيستا . وسارعت أدخل غرفتي وأغلق دوني الباب . ولكني لم اكن أحسّ بالنعاس ، وكان يبدو لي اني سأتألم اكثر مما ينبغي في تلك القاعة الخانقة وانا أشعر بحضور الآخرين غير بعيد عني . وكنت قد جلبت من روما منوّماً شديد

الفعالية ، لأني كنت أعاني الأرق منذ حين ، فتناولت منه ضعف الكمية المعتادة ، وارتميت وانا في ثيابي على السرير ، وقلبي طافح بالغضب . ولا بدّ اني نمت على الفور تقريباً ، لأني لا اذكر اني سمعت صوتي اميلي وباتيستا اكثر من بضع دقائق .

الفصل الثاني والعشرون

استيقظت متأخراً ، فقد كانت اشعة الشمس تنفذ من خلال الشباك، وأصغيت لحظة الى الصمت العميق المختلف اختلافاً كبيراً عن صمت الامس الذي كان يبدو ، بالرغم من كلّيته ، ممزّقاً بصدى جميع الأصوات العابرة . وفيما كنت متمدداً على السرير، مرهفاً اذني نحو الصمت البكر ، حسبتني أكتشف ان شيئاً ما كان ينقصه . لا تلك الاصداء المألوفة التي تبدو وكأنها تؤكد الصمت نفسه وتجعله أعمق (كالمحرك الكهربائي الذي يضخ الماء من الصهريج ، او المكنسة الكهربائية التي تمررها الخادمة على البلاط ...) بل حضورٌ ما . ان ذلك الصمت لم يكن ليعيش ، بالرغم من امتلائه ؛ فكأنّ شيئاً ما قد انتُزع منه ! انه صمت استسلام .

وما كادت هذه الكلمة التي كنت ابحث عنها تعبر ذهني حتى قفزت من السرير وركضت الى الباب المتصل بغرفة اميلي . واذ فتحته ، كان اول شيء لفت نظري رسالة موضوعة على الوسادة ، في وسط السرير الكبير الخالي . وكانت موجزة :

« عزيزي ريشار : ما دمت لا تريد الذهاب ، فأنا التي أذهب ،

ولو كنت وحدي ، لربما لم أوت الشجاعة للقيام بذلك ، ولهذا انتهز فرصة ذهاب باتيستا . والحق اني سأخشى أن أبقى وحدي ، ويبدو لي ان رفقته مفضّلة لديّ بعد كل حساب ، على الوحدة . ولكني حين أبلغ روما ، سأتركه يذهب لشأنه ، وأمضي لأعيش عيشتي . بيد انك ينبغي ان لا تدهش اذا علمتَ اني أصبحت عشيقته : فلست من خشب، وهذا سيعني خصوصاً ان الشجاعة قد خانتني .. وداعاً — اميلي » .

حين فرغت من قراءة هذه الاسطر ، جلست على السرير ، والرسالة في يدي ، وعيناي تائهتان في الفراغ . وكنت ألمح عبر النافذة الكبيرة المفتوحة اشجار صنوبر ، وألمح عبر جذوعها الجـــدار الصخري . ثم طاف بصري بالغرفة : كان كل شيء فيها يُشعر بالفوضى ، فوضى غياب : فلا ملابس ولا احذية ولا حاجات زينة ... بل ادراج فاغرة فارغة ، وخزانة مفتوحة المصاريع على مشاجب عارية ، وليس من شيء على المقاعد . وكنت قد فكرت كثيراً ، منذ حين ، انه يمكن لاميلي ان تتركني ، وكنت افكر بذلك كما افكر بكارثة ممكنة الوقوع ؛ اما الآن ، فاني في صميم الكارثة . وكان ألمٌ أصمّ يصعد فيّ ، وكأنه صادرٌ من اعماقي ؛ كما يمكن لشجرة منتزعة من جذورها ان تُحسّ الوجع في الجذور التي كانت تشدها الى الارض . والحقيقة اني كنت منتزعاً من جذوري دفعة واحدة ، وكانت هـــذه الجذور التي غذّتها اميلي بحبّها كأنها الارض ، كانت تشتاق اليها الآن ، وكانت عـــلى وشك ان تجفّ لنقص الغذاء ، وقد بدأت حقاً احسّها تذبل ، وكنت اعاني من ذلك في صمت .

وعدت أخيراً الى غرفتي . كنت أحسّني في دوار ، وكأن ضربة قاصمة قـــد نزلت بي . وفيما كنت أراقب ألمي الهاجع ، من غير رغبة مني في الالحاح عليه خشية ايقاظه ، تناولت آلياً ثوب السباحة ، وخرجت من المقصورة فاجتزت الممر الذي يستدير حول الجزيرة ، وبلغت

ساحة كابري . وهناك اشتريت جريدة ، وجلست في مقهى ، وبينما كان يبدو لي مستحيلاً ان افكر بشيء آخر غير شقائي ، قرأت الاخبار منذ السطر الاول حتى السطر الاخير . كنت كمن لا يُحس شيئاً ، اشبه بالذبابة التي نزع طفل قاس رأسها ، فظلت بالرغم من ذلك ، تتنزه بضع لحظات وتنظف اقدامها قبل ان تنقض فتموت . وأخـيراً آذن الظهر ، فملأت ساعة البرج الساحة بضجيج دقاتها الاثني عشرة . وكان اوتوبيس يهم بالانطلاق باتجاه شاطيء بيكولا مارينا ، فصعدت اليه .

وبعد بضع دقائق كنت اهبط الى الساحة التي كانت تغمرها الشمس، وكانت تقف فيها سيارات كان سائقوهـا جالسين في حلقة ، يثرثرون هادئين ، وكانت تنبعث من الساحة رائحة بول حادّة . وبخطوة خفيفة، هبطت السلم المؤدي الى الحمامات ، وكنت ارى من الاعلى الممر الضيق ذا الحصى الابيض ، والبحر الازرق الممتد تحت سماء لا غيوم فيها. وما كان أشد هدوء هذا البحر الأملس الأطلسي حتى الافق ، والذي كانت تخططه آثار تيارات كبيرة : تحت الاشعة الباهرة ! وقلت لنفسي ان من المستحسن ان استقل قارباً ، وان التجذيف سيعود علي بالخير ، ثم انني سأكون وحدي ، وهذا شيء مستحيل على الشاطيء الذي بدأ يمتليء بالمستحمين . واذ بلغت الحمام ، ناديت خادماً وطلبت اليه ان يُعد لي قارباً . ثم ذهبت انزع ثيابي في احدى الغرف .

وخرجت أمشي بقدمين عاريتين عـلى السطيحة ، خافض العينين ، حذراً من ان اجرح قدمي بنتوءات الشاطيء المملح. وكانت شمس حزيران تضرب رأسي وتحرق ظهري وتشملني بنورهـا القوي ، وهي تملأني باحساس من السعادة كان يتناقض تناقضاً مراً مع ذهول روحي. وهبطت السلم السريع ، وعيناي ما تزالان مشدودتين الى الارض ، وتقدمت نحو حافة الماء ، على الحصى المحرق . ولم ارفع عيني الا حين بلغت الشاطيء تقريباً ، واذ ذاك رأيت ... اميلي .

وكان خادم الحمام قد وقف امام القارب الذي كان قد انزل نصفه الى الماء ، وكان عجوزاً هزيل القامة قويّها ، ذا جلد مدبوغ ، ورأس تغطّيه قبعة من القش غارقة حتى عينيه . وكانت اميلي جالسة في مؤخرة القارب ، مرتدية ثوباً من البكيني ذا لون اخضر كنت اعرفه جيداً. كانت مشدودة الساقين ، مستندةً على ذراعيها المرتدتين الى خلف ، وكانت قامتها الممشوقة العارية ملتوية قليلا بالنسبة لكشحيها ، فكانت تبدو في وضع نسوي ساحر . وقد بسمت لي امام انشداهي ، ونظرت اليّ باحداد كما لتقول لي : « نعم ، هذه أنا .. لا تقل شيئاً .. ولا يَبدُ عليك الاندهاش ! »

وأطعت هذا الامر الصامت ، وأخذت آلياً اليد التي كان الخادم يمدها لي ، وقفزت الى القارب ، وانـــا صامت ، ميّت اكثر مني حيّا ، خافق القلب . وأدخل الخادم المجذافين في حلقتيهما ، وقد غمر المـــاء نصف ساقيه ، ودفع القارب نحو البحر . .وجلست فتناولت المجذافين وأخذت أجذّف ، خافض الرأس ، تحت الشمس المحرقة ، في اتجـــاه الرأس الذي يُغلق الخليج الصغير . وبلغته في عشر دقائق ، من غير ان انبس بكلمة ، او ارفع نظري نحو زوجتي . واحسست نوعا من التهيُّب في التحدث اليها ، لفرط ما كان الشاطىء وغرفه والمستحمون ظاهرين . كنت بحاجة الى العزلة فيما حولنا ، كما هو الشأن دائماً حين كنت ارغب في التحدث اليها بصورة صميمية .

ولكن فيما كنت اجذف ، احسست دفعة جديدة من المرارة ممزوجة بفرح جديد وغريب ، فاخضلّت عيناي بالدموع . وكانت جفوني تحرقني ، وكلما كانت دمعة تسيل على خدّي ، كنت أحسّ اثرها المحرق . واذ بلغت الرأس ، جذفت تجذيفاً اقوى حتى اقاوم التيّار الذي كان في ذلك المكان يهيج المياه ويدوّم فيها . والى يميني ، كانت صخرة صغيرة سوداء تطلّ برأسها المثقوب ؛ والى يساري ، كان يقوم جدار الجُرْف .

ودفعت مقدّم القارب في ذلك الممر ، وجذّفت بقوة عبر المياه الغالية وعبرت الرأس . وكانت الصخرة التي تغرق في البحر بيضاء من أثر الملح ، وكلما كان الموج ينحسر عنها ، كانت تلمع في الشمس لحى الأشنة الخضراء او بعض ثمر البحر الاحمر البرّاق . واذ جُزت الرأس، ظهرت لي نصف دائرة واسعة من الردوم الصخرية ، وكانت تقوم هنا وهناك بين الكتل شواطيء صغيرة يغطيها الحصى الابيض . كان البحر خالياً ، لا قارب فيه ، ولا كائن . وكانت مياه الخليج ذات زرقة معتمة ، فكأنها كثيفة زيتية ، بسبب شدة العمق دون ما شك . وكانت ثمة رؤوس اخرى تتتابع على امتداد البحر المتلألىء ، شبيهة بديكور طبيعي غريب .

وأخيراً خفّفت جهدي ، ورفعت عينيّ نحو اميلي . وكأنما كانت تنتظر اجتياز الرأس حتى تتكلم ، فبسمت لي وسألتني بصوت عذب :

— لماذا تبكي ؟

— ابكي فرحاً لرؤيتك .

— أيسرّك هذا الى هذا الحدّ اذن ؟

— نعم ... نعم ... كنت احسب انك قد ذهبت ... وها انت ذي قد بقيت !

فخفضت عينيها وهي تقول :

— كنت قد عزمت على الذهاب .. وهذا الصباح هبطت الى الميناء مع باتيستا ... وفي اللحظة الاخيرة ، غيرت رأيي ، فبقيت ...

— وما الذي فعلته منذ ذلك الحين ؟

— لقد تهت عبر الميناء .. وجلست في مقهى .. ثم عدت الى كابري بالمصعد الكهربائي وتلفنت للمقصورة ، فقيل لي انك قد خرجت .. وفكرت في انك ذهبت الى بيكولا مارينا ، فجئت ألحق بك .. وقد نزعت ثيابي وانتظرتك .. وفيما كنت تطلب قارباً ، تمدّدت في الشمس..

ولكنك مررت الى جانبي من غير ان تراني .. وبينما كنت تنزع ثيابك، صعدت الى القارب .

لزمت الصمت لحظة . وكنا في منتصف الطريق بين الرأس الـذي تجاوزناه وشاطيء آخر كان يُغلق الخليج ، وفيما وراء ذلك ، كانت تقوم « المغارة الخضراء » حيث كنت ارغب في الاستحمام .

وسألتها بصوت منخفض :

ــ ولماذا لم تذهبي مع باتيستا ، خلافاً لقرارك ؟ لماذا بقيت ؟

ــ لأني فكرت هذا الصباح ، فأدركت اني اخطأت تجاهك .. وان كل شيء لم يكن الا سوء تفاهم ...

ــ وما الذي جعلك تفكرين بهذا ؟

ــ لا ادري ... ربما كانت لهجة صوتك مساء امس ..

ــ والآن ، هل اقتنعت حقاً بأني لم ارتكب قط الاعمال الرديئة التي كنت تتهميني بها ؟

ــ مقتنعة تمام الاقتناع ...

وبقي لدي سؤال اخير أطرحه ، ربما كان أهم الاسئلة :

ــ انك لا تحكمين عليّ بأني استحق الاحتقار ؟ حتى ولو لم افعل ايّ شيء رديء ؟ اقصد : استحق الاحتقار بطبعي .. قولي ، الا تؤمنين بعد بذلك ؟

ــ انني لم اؤمن بذلك قط .. كنت اظن انك اسأت التصرف ، ففقدت من جرّاء ذلك احترامي لك .. ولكن ما دام الامر سوء تفاهم، فلا نتحدث عن ذلك بعدُ ، اتريد ؟

فلم أضف شيئاً هذه المرة ، ولزمتْ هي كذلك الصمت ؛ واذ ذاك أخذت اجذف بقوة جديدة ، يضاعفها الفرح الذي كان ينبثق مني ، اشبه بشمس مشرقة ، فيدفيء روحي المثلوجة . وفي تلك الاثناء كنا قد بلغنا « المغارة الخضراء » فوجهت القارب نحو المدخل المظلم الذي كانت

قبّته تستدير فوق مرآة من الماء العميق الزرقة .

وجرؤت على سؤالها :

– هل تحبينني ؟

فترددت ، ثم قالت بلهجة أسى فاجأتني :

– لقد احببتك دائماً .. وسأحبك ابداً ...

فألححت وقد اخافتني تلك اللهجة :

– لماذا تقولين ذلك بهذه اللهجة الحزينة ؟

– لا ادري .. لعلّه كان يكون اروع لو لم يفصلنا اي سوء تفاهم.. لو ظللنا نتبادل الحب كالسابق .

قلت :

– نعم ، ولكن كل شيء قد انتهى منذ الآن .. ولا ينبغي التفكير فيه بعد .. اننا الآن يحب احدنا الآخر الى الابد ...

فبدت موافقة بحركة من رأسها ، ولكن من غير ان ترفع عينيها ، ما تزال حزينة بعض الشيء . وتركت المجذافين ، وملت عليها اقول :

– لنذهب الى «المغارة الحمراء» ؛ انها مغارة اصغر واعمق تقوم خلف هذه .. وفي داخلها يقوم شاطيء صغير ، في الظلام .. وسنتبادل هناك الحب ، اتريدين ؟

فهزّت برأسها ايجاباً ، وهي صامتة ، وظلت تحدق بي تحديق تواطؤ خفيّ معتكر . ثم اخذت المجاذيف . وبلغنا المغارة التي كانت شبكة متحركة من الف لون ولون تنعكس تحت قبتها ، وفي الداخل ، حيث كانت الامواج تتدافع فتُصدي القبة بزفير اصمّ ، كان المـاء مظلماً تقطعه هنا وهناك حسكة صخرة تنبثق كأنها ردف حيوان بحري . وكان الممر الذي يفضي الى « المغارة الحمراء » ينفتح بين صخرتين كأنه شبّاك مضيء . ولم تكن اميلي تأتي بحركة ، بل كانت تنظر اليّ ، متابعة بعينيها كل حركة من حركاتي ، في نوع من التأمل الشهواني

الوديع ، كما تفعل امرأة مستعدة لأن تمنح نفسها وهي لا تنتظر الا اشارة . واستعنت بالمجاذيف عـلى جدران الممر ، تحت القبّة الملآى بالرواسب الكلسية ، فوجهت القارب نحو الرواق المؤدي الى « المغارة الحمراء » . وقلت لاميلي :

— تنبّهي لرأسك ...

وبضربة مجذاف واحـدة دفعت القارب الى المياه الهادئة ، داخل المغارة .

وتنقسم « المغارة الحمراء » الى قسمين يفصل بينهـما انخفاض في القبّة ؛ وفيما وراء ذلك تنعطف المغارة وتوغل حتى الشاطيء الصغير الذي يكوّن داخلها . وكان الظلام شبه تامّ ، وكانت العيون بحاجة الى ان تألفه قبل ان ترى الحصباء الصغيرة الملونة تحت الارض بذلك النور المحمر الذي اعطى اسمه المغارة . وقلت :

— ان الظلام شديد حقاً ، ولكن حين يزول انبهار عيوننا ، فسنرى بوضوح .

وكان القارب ، مدفوعاً بالسرعة المكتسبة ، ينساب في الظلام ، تحت القبّة المنخفضة ، ولم أر بعدُ شيئاً . واخيراً سمعت مقدّم القارب يصدم الحافة ، داخلاً حصباء الشاطيء وهو يرسل صوتاً مرناً . وتركت المجاذيف آنذاك ، ونهضت أمدّ يدي في الظلام ، نحو مؤخرة القارب ، وانا اقول :

— اعطيني يدك ، فسأساعدك على الهبوط .

فلم أتلقّ جواباً . ورددت ، مندهشاً :

— اعطيني يدك ، يا اميلي .

واذ ظلت على صمتها ، ملت اكثر من ذي قبل ، على حذر ، حتى اتحاشى صدمها ، ورحت أتلمس موضعها . فلم تعثر يدي الا على الفراغ . وامتزج الخوف فجأة بذهولي فصحت :

– اميلي ... اميلي !

فأجابني صدى مثلوج فقط . وفي تلك الاثناء ، كانت عيناي قد اعتادتا الظلام وبدأتا تميزان في الظل الكثيف القارب المتوقف ، وشاطيء الحصباء الاسود ، والقبّة المضيئة التي كانت قائمة فوق رأسي . ورأيت آنذاك أن القارب كان فارغاً ، والشاطيء خالياً ، وانه لم يكن حولي احد : كنت وحدي .

وظلت عيناي مشدودتين على مؤخرة القارب ، وانا انادي مذهولاً ، بصوت منخفض :

– اميلي ... اميلي .. اين انت ؟

وفجأة فهمت : فخرجت من القارب وارتميت على الارض ، دافناً وجهي في الحصى المبتلّ ولا بدّ انه قد اغمي عليّ ، ذلك اني ظللت جامداً ، محروما من الاحساس ، فترةً بدت لي غير قابلة للانتهاء .

ونهضت فيا بعد ، فصعدت الى القارب بصورة آلية ، ودفعته الى خارج المغارة . وحين غادرته ، بهرني نور الشمس الحادّ الذي كان البحر يعكسه . ونظرت الى الساعة في معصمي : كانت الثانية بعد الظهر . واذن ، فقد بقيت في المغارة اكثر من ساعة ، وتذكرت ان الظهر هو ساعة الاطياف ، فعلمت اني انما تكلمت وبكيت امام طيف.

الفصل الثالث والعشرون

أنفقت وقتاً طويلاً لاستعادة حواسي ؛ وكنت بين الفينة والفينة أكفّ عن التجذيف وابقى جامداً ، والمجاذيف خارج المياه ، وعيناي محدّدتان على صفحة البحر الملتهبة . لقد كان من المؤكد اني مررت بهلسنة ، كما حدث منذ يومين حين حسبت ، تجاه اميلي المتمددة عاريةً تحت الشمس ، اني اميل عليها وأقبلها ، في حين اني لم اكن قد قمت بأية حركة ولم اقترب منها . وقد كانت الهلسنة هذه المرة أدقّ واوضح. وكان ما يثبت لي انها كانت هلسنة ، ليس اكثر ، ذلك الحوار العجيب الذي حسبت اني عقدته مع طيف اميلي ، وهو حوار جعلتُها تقول فيه كل ما كنت اتمنى سماعه . كان كل شيء صادراً عني ، وكان كل شيء يعود إليّ . والفرق الوحيد مع ما كان يجري في مثل هذه الظروف ، هو اني لم اكتف بتصور تحقيق رغباتي ، بل ان قوة العاطفة التي كانت تحركني كانت قد منحتني وهم الواقع . ومن الغريب ان اقول : انني لم يكن يدهشني ان تستولي عليّ تلك الهلسنة النادرة ، بل ربما كانت الوحيدة . واذ ظللت تحت سيطرتها ، كان ذهني يجهد في ان يخلق جميع تفاصيلها واحداً واحداً ، متوقفاً في شيء من الشهوة عند التفاصيل التي كانت تروق لي وكانت تعزيني . ولكم كانت

جميلة ، اميلي ، وهي جالسة في مؤخرة القارب ، ممتلئة بالحب ، بعيدة عن الحقد والكراهية ! وما كان ارق كلامها ! وكم كان عنيفاً مثيراً ذلك الشعور الذي كان يحركني حين كنت أعبّر لها عن اشتهائي لها وحين كانت تستجيب لذلك بانحناءة رأسها ! كنت ما ازال تحت تأثير هلسنتي ، اشبه بانسان حلم حلماً شهوانياً دقيقاً ، وحين استيقظ راح يتذوق جميع احاسيسه وينعم بكل مظاهره ؛ كنت اصدق ذلك ، وكنت سعيداً بأن اعيش مرة اخرى تلك الهلسنة بالذاكرة . وكان سواء لديّ انه كان وهماً ، ما دمت احس المشاعر نفسها التي كنت سأحسها لو كان واقعاً .

وفيما كنت استمتع بلذة لا تنفد بتفاصيل ذلك التجلي ، خطر لذهني من جديد ان اقارن الساعة التي غادرت فيها بالقارب « بيكولاامارينا » مع الساعة التي خرجت فيها من « المغارة الحمراء » ؛ ودهشت مرة اخرى اني بقيت ذلك الوقت الطويل هناك ، على الشاطيء الواطيء ، اكثر من ساعة ، اذا كنت اقدّر المسافة من بيكولامارينا الى المغارة بثلاثة ارباع الساعة . وكنت قد عزوت هذه المدة ، كما سبق ان قلت ، الى غيبوبة او على الاقل الى نوع من الخدر ، من الغيبة الكاملة . ولكني اذ عشت من جديد هلسنتي الكاملة والمنطبقة في الوقت نفسه على أعمق امانيّ ، تساءلت عما اذا لم اكن ، بكل بساطة ، قد حلمت . وعما اذا لم اكن قد استقللت القارب وحدي ، ودلفت وحدي الى المغارة وتمددت على الشاطيء الصغير حيث استولى علي النوم في آخر الامر . ولا بدّ اني في اثناء تلك الغيبوبة حلمت بذهابي في القارب مع اميلي التي كانت جالسة في المؤخرة ... وحلمت باني كنت اتحدث اليها ، وانها كانت تجيبني ، واني كنت اعرض عليها القيام بعمل الحب ، واننا كنا نوغل معاً في المغارة . وما بقي بعد ذلك لم يكن كله الا حلماً : ان ابسط لها يدي لمساعدتها في النزول ... وألاّ اجدها بعدُ .. وان اعتقد باني انما تنزهت

مع طيف على البحر ، وان ارتمي على الشاطيء واغيب .. لا بدّ ان ذلك كله لم يكن الا حلماً !

كان هذا الافتراض يبدو لي الآن محتمل الوقوع ، ولكن ليس اكثر من ذلك . كان ذهني مظلماً ، مضللاً بمخيلتي ، فلم اكن انجح في رسم الحد بين الحلم والواقع ، ذلك الحد الذي كان لا بدّ ان يتعين في اللحظة التي تمددتُ فيها على الشاطيء الصغير الواطيء . فما الذي حدث في تلك اللحظة بالذات ؟ اتراني قد نمت وحلمت بأن اميلي كانت معي ، اميلي الحقيقية بلحمها وعظمها ؟ ام اني ، في نومي ، قد حلمت بأن طيف زوجتي كان يزورني ؟ او لعلني قد حلمت ايضاً بأني نائم واني كنت احلم هذا الحلم او ذاك ؟ لقد كانت الحقيقة تبدو متضمنة حلماً يتضمن حقيقة تتضمن حلماً وهلمّ جراً ، كما هو الشأن في تلك العلب الصينية التي تتضمن كل منها علبة اصغر ... كم طرحت على نفسي ، وانا في البحر ، والمجاذيف خارج المياه ، السؤال التالي : اتراني قد حلمت ، ام أصبت بهلسنة ، ام تجلى لي حقاً طيف ؟ وانتهيت اخيراً الى انه كان مستحيلا عليّ ان اعرف الحقيقة ، واني على الارجح لن اعرفها ابداً .

ووصلت اخيراً الى الحمّام ، فارتديت ثيابي على عجل ، وصعدت الى الساحة وقفزت تواً الى باص كان متوجهاً نحو كابري . كنت مستعجلا العودة الى البيت ؛ ومن غير ان ادري السبب ، كنت احس اني سأجد في المقصورة مفتاح هذه الاعاجيب كلها . وكنت مستعجلا العودة كذلك ، لانه كان عليّ بعدُ ان اتناول الغداء وأرتب حقيبتي قبل ان اذهب في باخرة الساعة السادسة ، وكان الوقت ضيقاً . ومن الساحة ، دلفت وانا اكاد اعدو الى الممر الذي يستدير حول الجزيرة ؛ وبعد عشرين دقيقة ، كنت في المقصورة .

ولم يُتح لي ، وانا ادخل غرفة الجلوس ، ان اتملى جوّ الوحدة

والهجر الحزين . فقد كانت تنتظرني برقية موضوعة الى جانب صحني ، على طاولة الطعام . ومن غير ان افكر بشيء ، فتحت المغلف الاصفر ، قلقاً بعض الشيء . وفاجأني اسم باتيستا في اسفل البرقيـة ، واعطاني مدة لحظة الامل في نبأ طيب . ولكني قرأت البرقية : لقد كان يبلغني ، ببضع كلمات ، ان اميلي كانت في حالة خطرة ، اثر حادث اصطدام مشؤوم .

اني الاحظ ، وقد بلغت هذه النقطة من قصتي ، ان ليس لديّ بعد شيء اضيفه تقريباً . ومن نافلة القول ان اروي كيف سافرت بعد الظهر ، وكيف علمت لدى بلوغي نابولي ان اميلي قـد ماتت بحادث الاصطدام ، قرب « تيراسينا » . وقد حدثت الوفاة في ظروف غريبة. فقد قيل لي ان اميلي كانت قد استسلمت للنوم ، تحت تأثير الحرارة والتعب ، فانحنى رأسها وذقنها على صدرها . وكان باتيستا ، عـلى عادته ، يقود بسرعة كبيرة ، وفجأة برزت عربة يجرها جاموسان من طريق معترضة ، فأوقف باتيستا سيارته ايقافاً عنيفاً ، وبعد ان تبادل الشتائم مع سائق العربة ، انطلق سريعاً . ولكن كان رأس اميلي يتهادى يميناً وشمالاً ، ولم تكن تقول شيئاً . وكان باتيستا قد وجّه اليها الكلام دون ان يحظى بجواب ، وقد فاجأت ضربة الفرامل جسمها وهـو في حالة استرخاء كامل ، وكانت عضلاتها منبسطة كـما في النوم . وقد احدثت الصدمة الناشئة عن توقف السيارة انكسار العمود الفقري لدى زوجتي . وقد ماتت من غير ان تشعر بذلك .

كان الحر خانقاً ، ولم يكن الالم يحتمله ، ذلك الالم الذي لم يكن ، كالفرح ، يطيق وجود اي شعور آخر . وقـد جرت الجنازة في جو خانق ، تحت سماء ملبدة ، وهواء ثقيل ورطب . وحين انتهت الشكليات في المساء ، اغلقت الباب خلفي ودخلت شقتنا التي ستكون فارغة بعد

الآن ولا مجدية ، وادركت اخيراً ان اميلي قـــد ماتت واني لن اراها بعد ابداً .

وكانت جميع نوافذ الشقة مفتوحة على مصاريعها لاجعل من الممكن تسرب تيار خفيف من الهواء ، ولكني لم اكن اقل اختناقاً بينما كنت تائهاً من غرفة الى غرفة ، فوق البلاط اللامـــع ، في الظل الشفقي . وكانت نوافذ البيوت المجاورة مضاءة كلها ، فكان سكانها الذين يُرون من الخارج رائحين غادين بين الغرف يوحون إليّ بشعور من العصبية ، وكان جوّهم الهادىء يصور لي عالماً يحب الناس فيه بعضهم بعضاً من غير سوء تفاهم ، ويعيشون في سلام ، عالماً كنت أحس اني منفي منه الى الابد . وما كنت لاستطيع ان ادخل اليه من جديد الا بعد ان اكون قد تفاهمت مع اميلي ، واقنعتها ، واحييت مـــن جديد معجزة الحب الذي يقتضي ، لكي يوجـــد ، ان يُلهب ليس قلبنا فقط ، بل قلب الآخرين . اما الآن ، فان ذلك لم يكن ممكناً لي بعد ، وكنت احسني أُصبح مجنوناً لدى التفكير بان موت اميلي ربمـــا كان مظهراً نهائياً من مظاهر العداء إزائي .

ولكن الحياة كانت هنا ، وكان لا بدّ من قبولها . وقـــد تناولت حقيبتي من جديد ، ولم يكن قد أتيح لي بعد ان افتحها ، واغلقت الباب واعطيت مفاتيحه الى البوابة وانا اعبّر لها عن رغبتي في بيع البيت لدى عودتي من رحلتي . ثم انطلقت ثانية الى كابري .

وكان أمل غريب يدفعني للعودة اليها ، كما لو ان اميلي يمكن ان تظهر لي ثانية هناك ، حيث تجلّت لي ، افضل من اي مكان آخر . واذ ذاك سأوّضح لها الامور الـــتي اساءت تعليلها ، وسأصارحها مرة اخرى بحبي ، وستُظهر لي من جديد انها تفهمني وتحبني . وكان هذا الامل جنوناً محضاً ، وكنت ادرك ذلك ؛ ولكني لم يسبق لي ان حاذيت نوعاً من البلاهة العاقلة ، تقوم في منتصف الطريق بين اشمئزاز الواقع

وحنين الهلسنة ، كما حاذيته في تلك الايام .

ومن حسن حظي ان اميلي لم تتجلّ لي مرة اخرى ، لا في الحلم ولا في اليقظة . واذ قارنت الساعة التي تجلت لي فيها مع ساعة موتها ، اكتشفت ان هذين الزمنين لم يكونا متطابقين . لقد كانت اميلي ما تزال حية حين رأيتها جالسة في القارب ؛ ولكنها على الارجح كانت قد ماتت عند غيبوبتي على الشاطيء في قعر « المغارة الحمراء » . وهكذا لا يتطابق شيء في الحياة ولا في الممات . ولن اعرف على الاطلاق ان كنت قد رأيت طيفاً ، او كنت لعبة هلسنة او حلم او غلطة اخرى . ان الالتباس الذي كان قد سمّم حياتنا كان قائماً بعد موتها .

وذات يوم راودني الحنين اليها والى الامكنة التي رأيتها فيها للمرة الاخيرة ، فاتجهت الى الشاطيء القائم تحت المقصورة ، حيث كنت قد لمحتها في عُريها وتوهمت انني اقبّلها . وكانت الضفة خالية ؛ وفيما كنت اتمشى عبر ركام الصخور ، واتأمل مدى البحر الازرق الضاحك ، تذكرت « الاوديسة » فجأة ، وتذكرت يوليسوس وبينيلوب ؛ وقلت لنفسي إن اميلي كانت الآن مثلها ، في قلب تلك المسافات البحرية الشاسعة ، مصبوبة الى الابد في القالب الذي كانت قد تلبّسته في حياتها . وكان يتوقف علي ، لا على حلم او هلسنة ، ان اجدها من جديد ، وان اتابع حوارنا الارضي ، على نحو هاديء بعد الآن . ولن يكون تحرري الا بهذا الثمن ، وكذلك لن تتحرر هي من عواطفي فتستطيع آنذاك ان تنحني عليّ كصورة جميلة مؤاسية .

وعزمت على ان اكتب هذه الذكريات ، وكلي امل ان اجدها ثانية في الطمأنينة والسلام .

انتهت


مؤسسة جواد للطباعة والتصوير
هاتف ٨٢٠٩٤٢ - بيروت - لبنان

مؤلف هذه الرواية هو الكاتب الايطالي الشهير البرتو مورافيا صاحب رواية « السأم » التي نالت جائزة « فيارجيو » اكبر جائزة أدبية في ايطاليا .

ويروي مورافيا في روايته هذه « الاحتقار » قصة زوج وزوجته ينشأ بينهما اول الامر سوء تفاهم خفيف ، ثم يصبح غير قابل للحل ، وتنتهي الزوجة الى احتقار الزوج ، من غير ان يدرك السبب . ويؤدي هذا الاحتقار ، الذي ربما كان بلا أساس ، الى نتائج فاجعة ، وبطل مورافيا هنا كاتب مسرحي اصبح كاتب سناريوهات سينمائية ، وقد أدى استغراقه مع زوجته في هذا الوسط الجديد الى التأثير على التفاهم الكامل الذي كان بينهما ، لاسيما بعد ظهور منتج الافلام الذي كان الزوج يعمل لحسابه ، والذي يبدو ان علاقة غامضة قامت بينه وبين الزوجة ، بعد احداث مشوقة .

وسيلاحظ القارئ الاسلوب البسيكولوجي والتحليل العميق الذي ادار المؤلف بهما الحدث الروائي على نحو يثير التشويق ويبعث على الفضول. وهنا تمكن في الحقيقة موهبة مؤلف «السأم» الذي يقدم في «الاحتقار» دليلاً جديداً على براعته الروائية .